واسيني الأعرج

سيدة المقام

مراثي الجمعة الحزينة

رواية



واسيني الأعرج

سيدة المقام

مراثي الجمعة الحزينة

رواية

في البدء كنتَ وحدك وكانت الزرقة والماء،
إليكَ أيها البحر المنسي في جبروت عزلتك الكبيرة،
يا سيد الأشواق والخيبة.
إليكِ مريم، يا زهرة الأوركيدا ومرثية الغريب،
يا سيدة المقام والمستحيلات كلها.

I

مكاشفات المكان

1

شيءٌ ما تكسّر في هذه المدينة بعد أن سقط من علوٍّ شاهق.

لست أدري من كان يعبر الآخر: أنا أم الشّارع في ليل هذه الجمعة الحزينة. الأصوات الّتي تملأ الذاكرة والقلب صارت لا تعدُّ، ولم أعد أملك الطّاقة لمعرفتها. كلُّ شيء اختلط مثل العجينة.

يجب أن تعرفوا أنّي مُنهك ومنتهك وحزين ومتوحّد مثل الكآبة.

2

بدأت أتأمّل حيطان المستشفى. مستشفى «مصطفى باشا»[1]، عالٍ، عالٍ، يبحث عن سماء ضيّعت ألوانها الأصليّة وحالت فجأة مثل خرقة بالية. الأشجار انحنت ويبست في هذه السّاحة الواسعة بلا أيّ معنى، مثلها مثل المدينة الّتي لم تعد مدينة. شكلٌ آخر بدأ ينشأ داخل هذا الفراغ المقلق.

كانت مَرْيم وكانت الدنيا. وردة هذه المدينة وحلمها، وتفّاحة

(1) مستشفى عام بالجزائر العاصمة.

الأنبياء المسروقة في لحظة غفلة، رعشة المعشوق وهو يكتشف فجأة خطوط جسد معشوقته. لكنّها فجأة سقطت من تعداد كلّ الأشياء الثمينة الّتي ظَلّت مدّة طويلة تعتزّ بها البنايات، والشّوارع وقاعات المسرح، وصالات الرّقص، والحارات الشّعبيّة الّتي بدأت تتآكل على أطراف المدينة الّتي غيّرت طقوسها وعاداتها منذ أن بدأ «حرّاس النوايا» يزيحون سلطة «بني كلبون»، ويستعيدون أمجاد الورق الأصفر، والحرف المقدّس والسّيوف المعقوفة وتقاليد رياح الربع الخالي.

أوف.. من بعد؟ وهل هذا الإحساس المرهف، المتلف يُعيد مرْيمَ؟! متعب وسط ساحة هذا المستشفى الواسع. حتى السؤال علق في الحلق عنوة. لا وألف لا.

– كيف تجرَّأت المدينة على قتل مَرْيمَ في هذه الجمعة البائسة؟

ستقولون رصاصة «الجمعة 7 أكتوبر من خريف 1998». رصاصة بلا معنى كغيرها من الرّصاصات الكثيرة الّتي اخترقت صمت المدينة في تلك الأيّام. رصاصة خرَجت من مسدّس لا يعرف صاحبه مطلقاً أنّه هو صاحب الكارثة. قد يكون من بين المارّة الّذين أصادفهم يوميّاً في الشّوارع بعد أن أنهى خدمته الوطنيّة أو اللاوطنيّة؟! لا أعلم. أوف خلينا من الفستي (الكذب) يرحم والديك... العسكر عسكر. قتلة من الطراز الشرعي. لحظة الموت ينتعلون أحذية القتل الخشنة وينزلون إلى الأمكنة المغلقة ويشرعون في مجازرهم.

المستشفى واسع وأنا صغير عند مداخله الخشنة، يمتدّ في داخلي كالظلّ الأبيض.

تملؤني الحيطان البيضاء، والألبسة البيضاء، والوجوه المرتعشة الّتي تعلّق أحلامها بين شفتي طبيب أو طبيبة. رائحة الأدوية، والسّيروم، والمراهم والأنفاس المتقطّعة والخيوط البلاستيكيّة والأسرّة والأرقام الّتي تستفزّ والأبواب الّتي تفتح وتغلق بسرعة مذهلة، الوجوه الّتي تدخل وتخرج تاركة وراءها

ظلالاً من الخوف، تتأمّل الملفّات المعلّقة في الأسرّة البيّضاء. تقيس درجة الحرارة في رتابة مقلقة. تهزّ رأسها. تحضر الدّواء أو تغلق العيون الّتي ظلّت طوال الزمن الفاتك مرتشقة على سقف القاعة، في حلقها سؤال مبهم ومحيّر. آليّة هذه الوجوه باردة وتبرد أكثر كلّما سُحبت ملفّات الميّت من على السّرير. وأنا.. الرجّل الصّغير، المفرغ من داخله، مازلت أتمترس وسط هذه السَّاحة المقلقة. ينتابني حزن عميق، حزن الّذي لا يملك أيّ جواب لدهشته. خائف من النّزول إلى المدينة. أيّة مدينة أيّها «الرّجل الصّغير»؟؟ لقد كنّسها «حرّاس النوايا» بسرعة مذهلة. البيّضاء لم تعد بيضاء. والوجوه لم تعد وجوهاً. لا أتذكّر الآن شيئاً مهمّاً سوى الخرخشات وأصوات التكسّر وكلمات مريم الأخيرة قبل أن ينتزع الطبيب الفلسطيني كلّ الخيوط التي كانت تنسحب من أنفها وفمها ورأسها، عندما صمت قلبها فجأة داخل إغفاء حكاية اللّيلة الأخيرة في صالة الرّقص وهي تتدحرج داخل حنين باليه «رمسكي كورساكوف»، وتواجه، هي «شهرزاد»، غطرسة الرّجل المعوّق الذي أقسم أن يفصل جسدها عن رأسها. الله يلعنك يا «شهريار»، لقد اكتشفت خيبتك، خبّئ عجزك بين رجليك ويديك واهرب!

قالت وهي تتنفّس بصعوبة:

– أرجوك اقرأ. اقرأ. لا تتوقّف. أريد أن أسمع صوتك. أن تأخذني الإغفاءة على كلماتك. اقرأ أيّها الرّجل الصّغير.

قالت الكلمة الخيرة وهي تحاول أن تضغط على شفتيها وتخبّئ ابتسامتها المنهكة.

آه مَريم..

أين الأغاني العظيمة؟ كنّست نفسها وانسحبت باتّجاه برّادات الموت في بياض المستشفيات. لا أريد أن أسمع شيئاً. حتّى دقّات قلبي الضعيفة مللتها. أنا كذلك في هذه اللّحظة بالذّات، وسط رائحة الأدوية أريد أن أدخل في إغفاء الموت المفاجئ وأنام على كمشة

من الرّياح السّاخنة وعلى نبضات قلب مليء بالشقوق. آه مرْيم.. أيّتها الأبجديّة الغائبة، الرّقصة المستعصية والأغنية الّتي تسدّ الحلق. دعيني أنام، دعيني أنحدر باتّجاه كآبة المدينة. ربّما كان الغد ممطراً. أتركك للحكاية الّتي تتعشّقين سماعها. ما يزال في قلبك شيء رهيف يستعصي على الموت. أريد أن أنام، وبإمكانك أن تقصّي على مسمع صديقتك أَنَاطُولْيَا كلّ ما حدث، أو لمعبودتك في الرّقص إيكاترينا مكسيموفا عن حماقات الرّجل الصّغير، الرّجل المجنون الّذي نسي أنّه أستاذك في مادّة «نقد الفنّ الكلاسيكي» «La critique de l'art classique» مجنون المطر والإغفاءات والأسئلة المستعصية، الّذي لا يملك الأجوبة. أعرف الآن. متأكّدٌ أنَّ جوابك في حلقك، لكن الإغفاءة غيّبتك حتّى قبل أن تصرخي. قلتِ ذات مرّة في لحظة حزن مقلقة، بعدما شعرتِ برعشة الموت تملأ صدرك بعد حادثة الجمعة الحزينة:

ـ «هل سأموت أنا الأولى أم أنتَ؟»

ثمَّ بدأت تحكين عن الرّجل الّذي كان ساقطاً تحتك بعد الهجوم على ثكنة «باش جراح»[1]. كان رأسه وجسده مليئين بالرّصاص. كنت تظنّينه ميّتاً. أردتِ غلق عينيهِ المفتوحتين، فجأة صرخ بأعلى صوته. أولاد الحرام! أولاد الكلبة! بني كلبون! الطحانين... ثمَّ طلب منك قليلاً من الماء، بعد أن تأمّل وجهك بحزن. وبدأت صرخته القويّة تتراجع شيئاً فشيئاً مخلِّفة وراءها وجهاً جامداً مثل قطعة حديد. وقبل أن يستمع إلى جوابك، استسلم للموت، وانكفأت فوقه رغم مقاومتك. كان الدّم قد ملأ عينيك. إنَّه تاريخك يا مريم! اليوم الّذي ثقبت دماغك رصاصة. التّاريخ الّذي كان يفترض أن يكون فيه يوم موتك ولكنّه لم يكن. قال لك الأطباء لا خيار لديك سوى أن تتعايشي مع الرصاصة التي اخترقت دماغك. وتعايشت مخترقة كلّ طقوس الحذر. ذلك الزمن بدأ يبتعد بخطى حثيثة. لا تتذكّرين من

(1) حي شعبي بالجزائر العاصمة.

الألوان سوى الدّم والصّرخات الجافّة، وشاحنة الشّاب الّذي اخترق حائط الثكنة قبل أن ينتهي عند تلك الفجوة.

عدتِ إلى سؤالك الأوّل:

ـ لم تجبني؟ هل سأموت أنا الأولى أم أنت؟

ـ وهل من الضّروري طرح هذا السّؤال؟

ـ أنتَ هو أنتَ (اللّي قاربه الذّيب، حافظه السّلوفي).

ـ أنا أو ربّما أنتِ. كلّ هذا ليس مهمّاً. أمامنا الحياة باتّساعها. ويوم يأتي الموت سأقول لك.

لم أكن أعلم أنَّ هذا اليوم سيأتي. كلمة انزلقت في لحظة اكتئاب. ها هي ذي تعود بكلّ ثقلها لتعذّب حضوري. آه يا ابن أمّي!! ما أحوجك في هذه المدينة المنهكة إلى لحظة. لحظة واحدة فقط يتعطّل فيها فكرك. تفتح عينيك مثل حمّو الهبيل تتأمّل ولا تقول شيئاً. تنظر إلى الغادي والرّائح بعينين مدوَّرتين من غير أن تقول شيئاً.

أُربِّتُ على كتفها العريض في شارع المدينة الغارق في صمته ليلاً. لكنّها تصرّ:

ـ اعتبرني مجنونة! هل ستحزن عليَّ؟

ـ أوف. راسك حجرة.

ـ تصوّر. أعرف المشهد قبل حدوثه. سيزورك الأصدقاء في بيتك الجميل. سيجلسون جميعاً على طاولة الأصدقاء. واحد يضع سيجارة في فمه. وآخر يشعلها ثمَّ يضعها بين شفتيْ صديقته بعد أن يمسّد عليهما بأصابعه. وآخر يخرج زجاجة ويسكي من جيبه، ويقسم أنَّه جاء بها من سفرته الأخيرة إلى أوروبا. ويقول الجميع لنشرب على نخب الغائبين. وتستأنس أنت بقليل من الحزن وبالوجوه الّتي تحيط بك. ثمَّ تغرقون في القهقهات ودخان السجائر وروائح النبيذ والويسكي. ثمَّ تتذكّرون. تتذكّرون كلّ الوجوه الّتي مرّت على هذه الحياة بسرعة مذهلة. تغرق أنت في صمتك المعتاد.

تأتيك إحدى الصديقات. تأخذ يدك. توشوش في أذنك. ألم تغرك موسيقى «الدانوب الأزرق»؟ تقوم بتثاقل. تتأمّل تقاطيع وجهها. بعضها يذكّرك بي وبعضها تكتشف سحره للمرّة الأولى، تسحبها إلى صدرك. تدفن رأسها في جسدك وتغرقان في الدانوب الأزرق. مذهل!! أليس كذلك؟؟

- وحق ربيٍّ مجنونة.

- ثمَّ تنزوي بين الحائط والحائط وتبكي بألم.

وترتفع الأصوات بينكم! كانت مسكينة؟ يا الله كم كانت مريم رائعة!! لو أسعفها العمر لصارت راقصة عالميّة. سحرها كبير... ولكنَّها لا تسمع إلاَّ لنفسها... كانت... الله يرحمها...

كنَّا نتدحرج في الشّارع الّذي كان يبحث عن وجه شهيده الضّائع. حاولت أن أغيّر من جوّ المأساة. أوف من قال لك إنّنا سنشرب الأنخاب في لحظات الحزن والألم؟ المدينة لم تعد لنا. وحمّو الهبيل من زاوية لزاوية يبحث عن مكان يقبل هباله وجنونه. المشروب أصبح بذخاً في هذه المدينة. في الكثير من الأحياء منع بالقوّة. التقليد سنّه «بنو كلبون» قبل مجيء «حرّاس النوايا» بزمن بعيد جدّاً. مثلما كانت تقول دائماً أَناطُولْيَا «Sont deux tiges d'une mêm racine».

حرّاس النوايا ينتشرون في المدينة مثل رمال رياح الجنوب السّاخنة. تعرفين أنّهم لا يأتون إلا عندما تخسر المدينة سحرها وتعود بخطى حثيثة إلى ريفها الشفوي، الّذي لا يقبل إلا بطقوسه. مدينة ساحليّة، كانت تتعشّق الألوان ووقوقات النّوارس البيّضاء، صَحَّرها بنو كلبون ويجهز عليها الآن حرّاس النوايا. القبّعة الأفغانيّة ونعالة بومنتل والقشّابيّة والمعطف الأمريكي من فوق، ونفي العصر والحضارة من ذاكرة النّاس. نتشمّمهم من بعيد، فنغيّر المعابر والطرقات. رائحة عطورهم القاسية والعنيفة تسبقهم. عطر يشبه في قوّته العطر الّذي يسكب على جثث الأموات.

مريم... يا بحّة المسكون بمعشوقة مستحيلة، أين أنت وسط هذه الصرخات المنبعثة من البيوتات الصّغيرة داخل هذا المستشفى الواسع كفم الغول؟ دعيني أنام، ربَّما كان يوم الغد ممطراً.

سأكون سعيداً عندما تتحرّرين من السّؤال المقلق.

أريد أن أتحرّر من هذه الذاكرة المثقلة بالحنين والأوجاع، يجبرني الشّارع والأنواء على التآلف مع الموت ومع وجه الله، لكنّي أستعصي على كلِّ الأشياء. لم تبق لي سوى الإغفاءة الحزينة ثمَّ أنسحب بعدها باتّجاه غيمة تطوق الدّنيا ثمَّ تعود إلى مكانها الأول لتمطر.

تصوّري يا مَرْيم.. يا محنة الغريب الأوحد، المتوحّد بظلّه الّذي لا يمتلك إلا جسده المكسور، والجسد لا يسعفه دائماً، مثله مثل الظلّ الّذي يتخبّأ دائماً وراءه، خوفاً من ضوء الشّمس..

تصوّري.. ما معنى أن تقطع علاقتك بالرّيح والنباتات والصرخات والعمل والوجوه الأليفة وغير الأليفة؟؟ ما معنى أنَّك فقدت الأمل ويئست من معرفة سرّ الكلمات المخبوءة في ذاكرة لا تمحى. الكلمات فيك ومنك. كلماتك. زمفيرا معشوقتك.

«تعال أجبني،

يا شاعر الآلهة، يا شاعر الحبّ والجمال،

أهي كلمة إطراء تتلاشى،

العويل الباهت والبارد لدقّات أجراس الكنيسة،

أقصيدة تشقّ طريقها، خالدة عبر العصور،

أم أنَّها حكاية يرويها الفجر؟».

كان من الصعب عليَّ تصديق ما حدث، الموت يبدو سهلاً في هذه البلاد الكئيبة. حتّى وأنا أرى صديقي الطّبيب الفلسطيني ينزع الخيوط الّتي كانت تعطيك الحياة، كان من العسير عليَّ أن أصدّق ما حدث.

عندما وصلت إلى الباب الخارجي، التفتُّ إلى الوراء. بدا لي واسعاً أكثر من المعتاد، وكأنّي أكتشفه للمرّة الأولى، بالرّغم من أنّي قطعت هذه السّاحات وتخطّيت عتبات هذه الأبواب مرّات متعدِّدة.

يتعالى الضّباب الّذي بدأ يملأ الأشجار والعيون والأفواه. حتّى أضواء السيّارات في هذا اللّيل تحوّلت إلى فوانيس صغيرة، أضواؤها خافتة. تغيب الحيطان والأبواب والأشجار شيئاً فشيئاً. بعض القطرات المتكاثفة تتساقط، والأبخرة تتعالى من الأفواه وراء الزّجاج المندّى. يتثاءب النّاس في الدّاخل بعياء كبير على كأس القهوة المرّة، أو الشّاي المنعنع أو ربّما على كأس بيرة في زاوية سرّيّة. البارات في هذه المدينة صارت نادرة. الكثير من مالكيها غيّروا تجارتهم ببيع القماش المستورد من الطّايْوَان أو الّذين يشترونه من المزادات الجمركيّة قبل أن تقفل أبوابها نهائيّاً، ويخلطونها مع سلع التراباندو[1]. الدّولة انسحبت من الحياة العامّة. الّذين قاوموا تهديدات «حرّاس النوايا» وقدّموا شكاوي للأمن، قالوا لهم عوّموا بحركم. في المرة الثانية صمّموا على المقاومة. في المرّة الأخيرة جاءتهم جماعات الهداية وحرّاس النوايا. قالوا لهم غيّروا ونساعدكم على تغيير تجارتكم. نعوّض الخسارات. وفي المساءات الباردة عندما عادوا إلى بيوتهم فركوا أيديهم في أحضان نسائهم العاريات. يا بنت النّاس فرصة!! والله ما نضيّعها. ثمّ دخلوا في الصّباح الموالي في سوق التراباندو. عمّي مزيان وحده لم يفرك يديه، ولكنّه حزّ رأس بندقيّته وقال أنا هنا، والبار مفتوح واللّي أمّهْ جَابْتُه رَجُلْ يِجِي وَيْشُوفْ وَاشْ يَسْتَنَّاهْ.

كان الضّجيج يتعالى والصرخات والضّحكات، والآن، الصمت يلفّ الدّوائر. يأكل النّاس، أو يشربون أو يشترون. كلّ شيء يتمّ بصمت. العيون القليلة الّتي تعبر الممرّات والشّوارع في هذا اللّيل مدوّرة وبليدة خائفة. تمشي أو تهرول بسرعة غير عاديّة من حين

(1) التهريب.

لآخر تلتفت وراءها بعد أن تُطمئن نفسها ثمّ تواصل سيرها أو تسلّقها للشوارع والمرتفعات. عندما تسألها عن درب من الدروب، تخاف منك. تنظر إلى وجهك بسرعة، ثمّ تواصل ركضها باتّجاه قيامة ما، أو باتّجاه امرأة تنفث فيها بعضاً من روحها، تَدَوَّر بطنها من كثرة الجماع يمنة وشمالاً برتابة مقلقة من أجل الحصول على ذكورة ما، تحمل في كفّيها رزقها. يا الله!! هل هو تاريخ الجندي الانكشاري، القرصان المدلّل الّذي ملك المدينة ودروبها، الّذي حلّ بالبلاد ودخلها في البداية فاتحاً ثمّ مستعمراً، أكل العباد، وقطع باب الوادي وباب الجديد وملأ الشّوارع بسيفه ودم الآخرين. قال على الملأ. كان قرصاناً مدهشاً وضع المتوسط تحت إبطيه. جئت لإنقاذ البلاد من الإسبان ولكنه ظلّ يُنقذها من أهلها ويشرب الأنخاب مع الإسبان. أهو تاريخ القرصان أم تاريخ النوميديّة الحزينة الّتي سرق قلبها ولسانها وذاكرتها الرّائعة المليئة بالحنين والأشواق والأوشام؟

مدينتنا فقدت رغبتها في الاحتفال تستأنس مع الشقاوة المزمنة.

بدأت قوّة الرّيح تزداد ولا نسمع في هذا اللّيل المقلق سوى أسلاك الكهرباء وهي تئنّ في هذا الفراغ الواسع الّذي اسمه المدينة.

اللّيالي الماضية كانت رديئة، أكثر اللّيالي بؤساً. لم أنم جيّداً. لم أقرأ جيّداً. لم أتذكّر جيّداً. لم أفلح جيّداً. لم أخفق جيّداً. لم أتحدّث جيّداً. لم أسمع جيّداً. لم أمش جيّداً. لم أقف جيّداً. كنت حزيناً من أجلك بعد غلق صالة الرّقص واستيلاء البلدية عليها بالقوّة. لكن الرصاصة الملعونة الّتي كانت تنام في دماغك، أعرفها جيّداً. قطعة نحاسيّة صغيرة وتافهة، محشوّة بكتلة من الرّصاص الثقيل. لهذا كلّه صمّمت أن أقطع علاقاتي ولو للحظات بالمحيط المقلق الّذي كان يملأني. شربت كثيراً. الويسكي ما كانش. الزامبريطو. Vive la vodka nationale رائحته تشمّ من بعيد سحيق. شربت حتّى سمعت اشتعال الحرائق بداخلي. هل كان من الضّروري

أن تصيبك تلك الرّصاصة الملعونة؟!؟ وأنت تحاولين إنقاذ الشّاب الذّي لسَن الدّنيا ولمِ يجد حتّى الوقت لتوديعها بعينيه ثمَّ انطلق كالسّهم بشاحنته باتّجاه الحائط الهرم..

3

من أين يأتي هذا الخوف المسحور؟ من أين ينفذ هذا السرّ؟ من أين تأتي رائحة الموت والكآبة؟ حاولت كلّ شيء، لكن من المستحيل عليّ الانتصار على عالم بلا قلب. سأعود إلى وحدتي المحزنة، أبحث عنك في أبجديّة الحروف، من الصعب أن نعيش داخل كومة الكلمات والضّباب والسماوات الّتي فقدت الكثير من سحرها، بعيدة وراء هذه البوّابات الحديديّة الباردة. يداك تمتدّان باتجّاهي بخجل. عيناك ترقص فيهما أنوار غير محدودة. أنفك الحادّ يحمِّره البرد. يتمتم قلبك المنهك، ويتذكّر الرّقصات الّتي سُحبت من جسدك والصرخات الّتي سُرقت من حلقك.

ـ أهذا أنت؟؟!

من أين خرجت أيّها الرّجل المبهم؟؟ دبّر راسك!! أنا هكذا وهذا طبعي. عليك أن تقبلني بجنوني وإلا فَارِقْني. أيّها الرّجل الصغير! أمُّك هي الّتي أسمتك الرّجل الصغير. في الطفولة كنت تركب قصبة. هي حصانك الّذي يطير. وعندما تتعب تضعها على ظهرك في شكل سلاحٍ ناريّ. بندقيّة. تدخل البيوتات الواطئة لعمّاتك وخالاتك. تسأل «كَانْشِ رُجَّالَهْ؟». كانت البلاد تخوض حرباً مميتة. تتضاحك النّسوة. ماكانش يا الرَّجَلْ الصْغِيرْ!! شُوفْ مَا كَايَنْ وَالُو.. تبحث من وراء الوسادات البالية والأفرشة الّتي تتسلّق الحيطان العتيقة. ثمَّ تخرج بعد أن تكون قد شهرت سلاحك في وجه النّساء اللّواتي يملأن البيوتات الواطئة. قالت لك أمّك أيّها الرّجل الصغير، ستكبر، ويكبر معك الهمّ وتسرقك الأدغال وتجبر على نسيان حنين الأمومة. وكنتَ تحلم بذلك اليوم. والدك كان يغريك بلباسه العسكري وسلاحه، عندما

يدخل إلى البيت ليلاً من حين لآخر في إجازات قصيرة. لكن ذلك كلّه لم يحدث. فالبلاد استقلّت قبل أن تكبر. وليلتها حزنت كثيراً. سألت أمّك: خلاص الحرب كَمْلَتْ؟! وكِيفَاشْ راحْ نصِيْر جُنْدِي؟ تعذّبك الذاكرة. وتؤذيك هذه الأجواء الّتي لا ينتهي حنينها.

كلُّ شيء أكله صمت الضباب. في هذا الفراغ لم تعد تجمع بيننا إلا ذاكرة متوحِّدة مع شوقها والكلمات والمفردات الّتي تنزلق داخل فراش الحميميّة عندما نصير حرفاً واحداً متوهّجاً بالأشواق. تضحكين؟ هاه.. تضحك أيّها الرّجل الصّغير المتعب؟! أمتشقك أيّتها النخلة العالية. أعرف سحرك وضعفك. أعرف كيف تنكسر. حسّاس حتّى الموت مثل غيمتك البنفسجيّة. لا أنا استطعت أن أكون أنتَ. ولا أنتَ استطعت أن تكون أنا! وهل من الضّروري أن يكون أحدنا هو الآخر؟!.

أستعيد وجهك في خطوطه وألقه. في حزنه وانكساره. تخوّرين عينيك لحظة المواجهة. تخرجين أظافرك. نمرة شرسة. تكشِّرين عن أنيابك الحادّة. تخرجين كل بذاءات الدّنيا. تنعكف خطوط جبهتك. تشمّرين عن ساعديك. ترفعين تنُّورة «اللّيناج» الأسود حتَّى الركبتين من الجانبين. أستعيد وجه الغجر الّذين ساحوا أطراف المدينة المجنونة. يظهر جمالك الّذي لا يقاوَمْ. ثمَّ تصرخين ـ هاه!! ورِّني شطارتك يا فالح؟! أتراجع. تزدد موسيقى الغجر صخباً وقوّة. تتأوّه كَارْمِنْ في ذاكرتك. هه!! واش عندك؟! ثمَّ نغرق في القهقهات الدافئة وتنسابين على الصدر مثل النّسمة الفجريّة وننكسر شيئاً فشيئاً على الموسيقى الهادئة وعلى الأشياء الّتي نتعشَّقها.

والآن.. أشياء كثيرة تغيّرت. تآلفنا مع خيبات الدّنيا وأفراحها. حتّى صارت كلّ شيء جزءاً من دمنا. يوم سلّمتك كتاب كارمن لبروسبير ميريمي Prospèr Mérimée، قلتُ لك اقرئيه. وكنّا قد رأينَاهُ في فيلم. قلتِ. وهل تقبّلني. سأصير مجنونة بِكَ. سأخونك مثلها. ستقتلني.

– تريدني أن أكون لك وحدك؟

– كوني لنفسك أوّلاً.

في النّهاية لا أحد استطاع أن يروّضنا سوى البحر وأمواجه المتعاقبة في رتابة. لا أملك جواباً سوى أنّي أحبّك. وبدأ هواء هذه المدينة الباردة يُدْخِل اليقين إلى ذاكرتي بأنّي سأفتقدك. لا أملك إلا قلبك. لكنّك بكاملك في عمق النقطة البيْضاء الوحيدة الّتي تضيء داخلي. أنتِ هي أنتِ! مجنونة! قلتِ. أعرف أنّك حزين ووحيد. تريد أن تسافر. أن تغادر هذا البلد. أن تهرب. أن تذهب إلى أبعد نقطة ممكنة. ومن بعد؟ هل سَيُسعِفُكَ شوقك لهذه الحيطان ولهذه الوجوه المنهكة؟ هل ستنسى الأضواء والبحر والأشجار زمناً غير محدود تنظرين إلى الشّاطئ المهجور، إلى الأنجم الّتي تقاطعت في السماء العقيمة. التفتِّ صدفة (ربّما) نحو النّصب التذكاري الّذي يتربّع عند مدخل الشّاطئ، شعرتِ به يحرّك رأسه. مددتِ يديك إلى صدري وتمتمتِ:

– مستحيل! غير معقول. إنّه يتحرَّك.

– أنت متعبة.

– لا متعبة ولا هم يحزنون. أَغَاظَك أن تعبِّر مجنونة عمّا في عمقها؟؟

غجريّتك يا حبيبي الّتي تخترق صمتك ودِفْئَكَ. أيّها البدويّ الّذي لم يتحضّر إلا قليلاً! أيّها البوهيميّ المغلق داخل آلاف الأوهام والأحلام. أيّها الرّجل الصّغير. كان عمرك ثلاث سنوات عندما ركبتَ أحصنة القصب الجافّ. لقد كبرت في الموت، ووجودك حيّاً هو مجرّد مصادفة. افتراض، ربّما احتمال صغير. أبوك عاد من أغوار الهجرة ليحترق ذات صيف على أحراش القرية. صارت بعيدة تلك الأزمنة. إنّها تنأى بسرعة مذهلة.

قلتِ: ما يعجبني فيك هو شيء حارّ ينام في الأعماق، لا يخرج من قلبك إلا بصعوبة، في عالم محنّط وملفوف داخل مشنقة متنقِّلة

اسمها ربطة العنق. ربطة العنق أسوأ وأبلد ما أنجبته الحضارة. قلتِ وأنت تبحثين عن رؤوس أصابع يدي اليمنى، ونحن نعبر امتداد الشّاطئ الّذي لا ينتهي: تصوّر! أقف أحياناً على زواية الشّارع، أتأمّل كلّ الذين يلبسون ربطة عنق. تكاثروا في البلاد. تنتابني رغبة كبيرة في الضحك. انفرزوا. إمَّا حداثة وهميّة أو أصالة بدائيّة. عندما أرى ربطات العنق، أتذكّر الكلاب الّتي تجرجرها النّساء الغنيّات وراءها. تجتاحني رغبة عجيبة للذهاب إلى ذوي الربطات وجرّهم من أعناقهم.

ضحكتُ. ضحكتِ. وعندما رأيتني أتحسّس عنقي، زادت قهقهاتك. ما تخافْش. أنت تكره الكرافات مثلي. حتّى ولو كنت تحملها لن أطبق عليك هذه العقوبة. لا تخف. شيء فيك عميق لا يتلاءم مع الرّبطة. تصوّر التشوّه لحق بكلِّ شيء. العفويّة صارت نادرة في هذه المدينة. أعرفك.. ذلك البوهيميّ المنكوب في كلِّ شيء إلا في داخله الّذي يصرّ دائماً أنَّه ملكه وأنَّه ليس مجبراً على الإفصاح عنه بسهولة لهذه المدينة الّتي يمكن أن تخون في أيّة لحظة. قلتَ لي ذات مرّة، عندما سألتك عن سنواتك المكسورة: أوف!! لا شيء يستحقّ الذكر. عشر سنوات دراسة عليا. دكتوراه دولية في علم الجمال. نقد الفنّ الكلاسيكي. سنتان من البطالة بعد العودة من إيطاليا. ثمَّ تكريم من رئيس الجمهوريّة يوم كرّم أكثر من ألف فنّان. تساءلت يومها: هل يوجد في هذا البلد أكثر من ألف فنَّان؟ انكسرت أشياء كثيرة في داخلك. قلتَ هذه مسخرة ولن أذهب. وسافرت إلى مدينة أو قرية، لا تتذكّر جيّداً ما حدث سوى أنَّه بعد أيّام جاؤوك بالشّهادة التكريميّة إلى بيتك. قالوا لك: ارتكبتَ حماقة! قلتَ تلك حماقتي وأنا مسؤول عنها. قالوا بعيونهم المدوّرة: يا رجل! ستتّهم بالعصيان، أو بالانتماء إلى حزب الأعداء القوميّين. وصمّمت بعدها أن تصمت، ثمَّ فتحت لهم الباب، تفضّلوا!! في ستين داهية. الله لا يردّكم عَفُّوا ربيّ[1]! خَلّيوْني في حَالِي. خبّأتَ الشّهادة في مكان لم

(1) اتركوني!

تعد تتذكّره. أنت في حاجة إلى مصادفة عجيبة لكي تجدها. قال لك أصدقاء كتّاب وفدوا من وهران وقسنطينة ليأخذوا تزكيات التكريم: يا سيدي الواحد يأخذها ويغمّض عينيه. جائزة من الرئيس. ضحكتَ في أعماقك. كدت أن تفتح لهم الباب، وتقول لهم اخرجوا. ولكنّك التفتَّ نحو النافذة المطلّة على البحر والسفن البعيدة، وقلت: لَسْتُ فَنَّاناً. لَسْتُ كَاتِباً. ولا حتّى أستاذاً ناجحاً. يومها كانت قاعة قصر الثّقافة الواسعة تحتضن ذوي ربطات العنق. كانوا لا يُحصون، يتحسّسون من حين لآخر مؤخّراتهم بالكثير من الأناقة.

أعبر الزّقاق الضيّق الوسخ، المؤدّي إلى شارع ديدوش مراد. ماذا حدث؟ أتساءل في داخلي وأتدحرج بتثاقل. منذ أن جاء حرّاس النوايا بدأت المدينة تلوّح بنصب مشانقها وتسنّ السكاكين والسيوف وتحشو أسلحتها بالبارود..

ماذا حدث لهذه المدينة؟؟ وجهها تغيّر وامتلأ بالنّدوب وعادت الأمراض الفتّاكة إلى الوجود بعدما نسيناها. وأنتَ هو أنتَ. موجود للعصيان. لا تريد أن تتحضّر. تقولينها ثمّ تبحثين عن مكان لرأسك داخل معطفي الخشن مثل القطّة البردانة. تركضين على قضبان السكك الحديديّة في المحطّة الصّغيرة الّتي تقع على أطراف المدينة. تتمنّين أن لا يتوقّف الطريق أبداً. ثمّ تبدئين في الغوص في أحلامك الجميلة. آه لولا هذه الرّصاصة الملعونة! لو تسعفني فقط لتقديم باليه «شهرزاد». معشوقة رمسكي كورساكوف. أريد أن أرقص على موسيقاه.. أن يتعدّد الكورس. أن أملأ أوبرا العاصمة الّتي تحوّلت إلى مسرح ميّت. ثمّ تنسين نفسك في انتظار مجيء قطار البضائع الّذي يفصل المدينة عن الضّاحية وتسابقينه. ثمّ تتوقّفين. أوف. العمر يمضي، وهذه الرّصاصة لا تسهّل الأمور أبداً.

وأنتَ هو أنتَ. لا تتحضّر! تنتعل «باسكيت» بيضاء. ترتدي لباساً رياضيّاً، قميصاً لا لون له، وفي أغلب الأحيان «تريكو» أخضر مائلاً إلى بياض حائل يشبهُ خضرة اللّباس العسكري القديم. شعر إفريقي ملفلف لا يدخله المشط والماء إلا بصعوبة. تمدّ يدك في

الصّباح إلى الحنفيّة ثمّ تدخل أصابعك في شعرك وتبدأ في لفلفته في شكل دوائر صغيرة. تعرف! تمنّيت أن تكون لي ابنة منك، بنفس شعرك، أسمّيها «البربريّة»! مجنونة.. آ.. مجنونة مثلك وبك. أرفض الاستقامة الوهميّة، لي الكثير من الحبّ لكلّ ما يحيط بي، لكنّهم قتلوه ويقتلونه بالتّقسيط. أنا كذلك أحزن عندما يحزن وطني، لكنّي أكره السّياسة رغم أنّها تأكل معنا في الإناء نفسه، وتنام في الفراش نفسه، واشْ تْحَبْ، هَذِي هِي الدُّنْيَا. في أحيان كثيرة، أشعر بأنّي بلا وطن على الإطلاق. وعندما أخرج من الفرقة خارج البلاد، ينتابني حزن عميق جدّاً، أحسُّ به يتحوّل إلى ديدان حمراء وصفراء وسوداء وخضراء.. أشعر بأنّنا نملك الكثير من الأوهام والأحلام في وطن يحرمنا من حقّ الوجود. المرأة في القانون نصف إنسان. وهي قاصر من حيث تعريفها ـ Par definition ـ عندما طالبنا بإلغاء قانون الأسْرة (أو الأسَرّة) لأنّه شتيمة لوطن الشهداء، شتمونا في المساجد. قالوا بأنّنا نريد الزّواج من أربعة رجال! تصوّر، أحياناً أشعر بأنّ هذا الوطن لا عمل له ولا شغل، إلا المرأة. أحزن. يجب أن أحزن. لا استطعنا أن نتحضّر، ولا احتفظنا ببدائيّتنا الأولى. على الأقلّ الألفة، والعفويّة، والطبيعة.

تتقاذفني الحدود إلى الحدود. والشرطة إلى الشرطة. وبين جمركيّ وطنيّ، وآخر أجنبي، رأيت جزءاً كبيراً من العالم مع أَنَاطُولْيَا، لكن شيئاً ما في داخلي يجعل من هذه التربة ألماً مقدّساً. لهذا أكره النقاشات السياسيّة الكثيرة. لقد أتخمنا بالحديث المكرور. هو ذا وطني، يسكن رصاصة في دماغي في يَوم داكنٍ من أيّام الخريف، ذات جمعة حزين. ماذا تريدني أن أفعل؟! ألله غالب. أبحث عمّا يميّزني في هذا العالم حتّى ولو كان ذلك داخل نوبات الجنون. هكذا أنا مصنوعة، ومع ذلك أشعر أحياناً بأنّي أتكسّر مثل الزّجاج. أفكار كثيرة تحمّست لها ونسيتها. من الصعب أن أصبح شيئاً آخر غير أنا. جلدي مثل التّمساح، يصعب اختراقه. يحزنني هذا الفراغ المقلق!! هذا البحر الّذي صار وحيداً وترك مثل الأنبياء الطيّبين..

أتمنّى أن أتدحرج ليلاً في شوارع مدينتنا الحزينة وحيدة، أو مع الرّجل الّذي أعشقه، أن أسكر حتّى العمى، أن أطلّق الدّنيا بالثلاث، أن أندفن في قلبك وأهدأ مثل قطّة صغيرة، أن أكبر معك مثلما يكبر البحر، والموج وأتّسع معك مثلما تتّسع الأمساء والأصباح والفضاءات. عندما أكون معك في البحر أريد أن أغنّي، أن أسمع صوتك وكلماتك، لكن شيئاً ما يعكّر صفو هذه الوحدة المقدّسة. أوف.. مجنونة، لا أصلح إلا لتخريب اللّحظات الرّائعة. أحياناً أصير رخوة مثل الغيمة وفي أحيان أخرى أصير شيئاً آخر بلا ملامح

إيه مَرْيم.. يا حليب اللّوز المرّ وحبّة القمح البدوي.. وجهك يملؤني عن آخري، كمجنون يستعيد الصّورة الأخيرة الّتي علقت بذاكرته. إنّه الموت السّعيد. موت الّذي يلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يستمع إلى قلبه وهو يتلاشى في سكينة داخل هدوء جنائزي ووسط بياض يقلق بعض الشيء. قلتِ اقرأ!! أريد سماع صوتك. أن أنام عليه. هو ذا وجهي ووجهك يعبر مسامات الجلد. يعبرني مثل الغيمة البنفسجيّة. أتمترس وسط شارع ضيّع ملامحه الأولى وأندفن داخل الألبسة المستوردة من الخليج والشرق الحزين. وأفغانستان. إيران. مصر. العراق. كأنّه لم يعرف يوماً ألبسته الخاصّة. «الفولار» البربري. العباية الوهرانيّة. الهلاية القسنطينيّة. الحايك التلمساني، الّذي لا يظهر إلا سحر العين. والفوقيّة والبلغة. يا لطيف! شارعنا الرّيح اللّي تجي تدّيه[1]. بنو كلبون قالوا الثّقافة بليّة. الثّقافة واش نْدِيرُوا بها. وحرّاس النّوايا الرّقص، والمسرح والغناء. يا سيدي خلّيني من البؤس. عش تشوف!

«وداعاً.. وداعاً..».

قلتُها وأنا أعبر ممراً ضيّقاً. لا أدري أيّ طريق ولا أيّ اسم أعطي لهذه الأزقّة المتهالكة فوق بعضها البعض. صارت باردة ومظلمة. الحيطان القديمة ضيّعت ألوانها.

(1) تأخذه.

أيّها الرّجل الصّغير الّذي يركض فوق حصانه بحثاً عن عساكر الاحتلال.

أيّها الرّجل الوحيد. البرودة في داخلك تكبر مساحاتها مثل الظلال.

أشياء كثيرة مرّت عليها أوقات وأزمنة لا تحدّ. تندفع الآن نحو الأعماق باتّجاه الأضواء الّتي حوّلها الضّباب إلى فوانيس صغيرة وحوّلتها الأمطار الّتي بدأت تتكاثف بقوّة، إلى بُرَك مائيّة عائمة.

صرتُ بعيداً عن المستشفى الّذي يقتل النّاس في المدينة، كأنّي كنت هارباً. خطواتي سرعتها تزداد ومسافاتها تتّسع. مستشفى مصطفى باشا غاب وسط هذا الفراغ المقلق. بيّاع الكَاوْكَاوْ[1] كان يركض بعربته بحثاً عن مكان آمن. لست أدري لمن كان يبيع خيراته الوهميّة. فجأة، كلّما كان يتأزّم الجوّ الشعبيّ في المدينة ينزل أصحاب الكاوْكاوْ الّذين يشتغلون بعيونهم ليلاً ونهاراً. في الزّمن الّذي سقط بسقوط بني كلبون وصار اليوم أحجية. سكّان هذه المدينة الّذين سرقوا حرّيتها وبنوا القصور والمصانع. كانت وظائفهم واضحة، يقفون حتّى ساعات متأخّرة من اللّيل. يسجّلون الغادي والرّائح. بيّاعو الكَاوْكَاو. الله ينصرهم! كانوا يسجّلون كلّ أعداء الوطن القوميّين. يشمّون الرّائحة من بعيد. كانوا عيون المدينة الّذين لا يفلت منهم أيّ شيء. ثمّ تفكّكوا فجأة ليغيّروا ألبستهم بعد أكتوبر الّذي انسحب بسرعة داخل شعلة النّار المقدّسة. مَنْ هرب هرب! ومَنْ غيّر وجهه غيّره! ومَنْ ضاع وسط الزّحمة ضاع. مساكين كانوا ملوك الشّوارع غير المتوّجين. الكاوكاو. الفرفاع. كلّ الكاوكاو يا ضعيف النّفس بَاشْ يَكْبَر زَبّكْ ويَطْوالْ وتصيرْ راجل. لاحْيَا في الدّين يا الخاوا. اسمعوا.. كل القرقاع يا المسكين!! يا اللّي ما تْوَقَّفْش.. يتشدّقون بها في الأسواق بدون خوف ولا حياء. عندما تسمعهم تضحك مريم عالياً، تقهقه. هاه!! شفت وَاش يقولوا.

(1) الفستق السوداني.

العيب يملأ ذاكرتهم وعندما نقولها نحن تُجيهُمْ مُرّة. وحقّ ربّي نقولها، خلّيهم يَسَّمْعُوا قباحة المرأة شحَال صْعِبة. النّاس منافقون. ينبحون ويكسرون ألسنة الآخرين. شَفْتْ أصحابَكْ شحَالْ خَايْبِينْ. يأكلهم يوميّاً مطعم «الرّجاء» بهدوء وسكينة. يتلذّذون بالصمت وبأصوات آليات المَترو التّي تأتي من بعيد، ويتلهّون قليلاً بتعنيفات مدير المحلّ ضدّ كُوَلْمْبُو المسكين. المطعم صار قلقاً مثل الوجوه التّي تملأه في الظهيرة يوميّاً ثمّ سرعان ما تتركه للفراغ حتّى اللّيل. بعد حوادث 5 أكتوبر، عندما كان النّاس يدفنون موتاهم، كنّا في المطعم، عندما دخل علينا رجلٌ ملتح، بدأ يتشمّم الوجوه، كانت رائحة عطره تجرح الأنوف. قلتُ له وأنا أمسح زبدة البيرة الأخيرة من فمي، رُحْ يَرحم والديك. كلّ واحد يدفن أبوه مثلما يريد. لكنّه كان مصرّاً ومصمّماً. بدأ يبسمل ويحوقل ويمسّد على لحيته ويتدرّب ليصير من حرّاس النوايا. كان هذا قبل أن ينتشروا في المدينة. يا آمْرَا!! وَاشْ جَابَكْ للمكان الفاسق، هذا.. أخرجي الله يهديك للطريق الصحيح. كان يتكلّم مثل شيخ تجاوز السبعين من عمره. وعندما (طَلعَ الزَّبْلُ لِرَأْسي)[1] لم يكن هناك شيء يمنعني من الصراخ. أنت رَجلْ؟؟ باش؟؟ ما معنى أن يكون الرّجل رجلاً في بلاد فقدت رجولتها؟؟ ما معنى أن تكون المرأة امرأة في بلاد، أن يكون فيها المرء أنثى عليه أن يدفع الثّمن غالياً!! شيء مضحك هذه الذكورة.. هل يعني هذا أنّكم كلّكم تفكّرون بالطريقة نفسها؟ شيء مخجل ومخيف. الاضطهاد حتّى العمق. حتّى الرّحم. اسألوا أيّة امرأة في لحظة صفاء وستسمعون الجواب المفجع. إنّي أراهم. يدخلون الحمّام. يتحسّسون ذكورتهم أمام المرآة ولا يتأمّلون لحظة واحدة عريهم. يلمسون ذكورهم، يمسّدون عليها بنعومة. يمطّطونها مثل طفل صغير فوجئ في الحمّام وهو يكتشف جسده متأخّراً. يمطّطه من أجل تحقيق حلم غامض سمع به ولا يعرف تفاصيله. تكلّمني عن الرجولة والحرمة؟! لقد وصلت متأخّراً أيّها الرّجل السّعيد في بؤسه.

(1) انزعجت.

هل ذقت الإهانة لحظة واحدة؟! أتعرف ما معنى أن تجرح امرأة في كبريائها. ذكوركم مجتمعة لن تعيد لها لحظة واحدة من عنفوانها المقتول في بداياته الأولى. لحظة واحدة تختارها بإرادتها تساوي دنياكم كلّها. لحظة واحدة مهما كانت صغيرة، تقضيها داخل أكوام التبن أو في العراء ولا بؤسَ قصرٍ تُسفد فيه كلّ ليلة باسم ورقة اسمها عقد الزّواج! هذا هو العهر عينه. تحدّثني عن الرّجولة أيّها المسكين. ها هم أصحابك يعودون إلى بيوتهم ممحونين بالكاتبات اللّواتي يعملن معهم في المكتب نفسه. يلبسون فوقيّاتهم وبلغاتهم الفاسية، ثمّ يتمطّطون على الأسرّة، يفتحون الجرائد اليوميّة. يتحسّسون ذكورهم المنتصبة، بشكل مقرف. يطلبون كأس الماء من زوجاتهم، والماء موجود على بعد ذراع منهم. هل يعرف هؤلاء أنّ تلك المرأة التّي يسحبونها مجبرة إلى الفراش مرغمة بورقة، تتمنّى لحظة تكون فيها حرّة، لكي لا تقول كلمة واحدة، ولكنّها تحمل حقيبتها، وتصفق الباب وراءها من غير أن تتذكّر أبداً أنّها عرفت رجلاً كان زوجها وتعرف بيتاً استُعبدت فيه زمناً طويلاً. يسحبها مجبرة إلى الفراش بورقة وهو ينفخ مناخيره الواسعة وهي تتأمّل عريه المقرف. إنّه لا يعرفها مطلقاً. لمسة واحدة تشعلها. وألف قبلة، وألف نومة، لن تحرّك فيها شيئاً، سوى أنّها تقوم بواجبها تجاه وباء اسمه الزوج، مثل إرضاعها لابنها. أن يلتحم جسدان معناه أن تكون بينهما لغة مشتركة مليئة بالحنين والأشواق. كلّ اللّغات مؤجّلة عندما يتعلّق الأمر بالحبّ والفرح. حتّى الحبّ يمارس بالصمت والظلام والواجب.

ـ مَرْيَم!! أرجوك!! خلّيك من هذا الكلام.

يلتفت الرّجل الملتحي الذّي غزا المطعم فاتحاً، يميناً وشمالاً. يبحث بعينيه عن كلماته الهاربة. يحني رأسه بيأس ودهشة. امرأة تهينه؟! كبيرة الكبائر التّي لا يمحوها إلا الدّم.

أيّها الضبابيّون.. أيّها المندهشون من الكلمات التّي تجرحكم في الكبرياء الوهميّ، قليلاً من الشوق. قليلاً من الهمس. أن يحبّ

الإنسان معناه أن يكون قادراً على الحلم. أيّ وقار؟!.. بربّك.. خَلِّيكْ من الكلام الفارغ.. يرتعد كالقصبة والمرأة بعيدة عنه بكيلومتر! وفي الأخير يتذكّرون المرأة لرجمها. يصرخون!! يرفعون أصواتهم عالياً.. أحياناً بحناجرهم وأحياناً أخرى بالمكبّرات من أعالي الصوامع الّتي خسرت أشواقها ودفئها. هاه.. شفتوهم.. والله ما يَحَشْمُوشْ(1).. أربعة أزواج أحنا مَاقُلْنَاشْ هَاذْ الشِّيء يَا سِيدِي!!؟! واحد فقط يُحِبُّنَا ونُحِبُّهُ. يعشقنا ونعبده. هَذَا مَا كَانَ. يضعنا في قلبه وذاكرته. هل المرأة يا سيدي هي سبب الغواية!! سبب الدهشة. الرّعشة!! النّكبة!!؟ يرحم والديك لِوّينْ رَايْحِين؟ النّاس نست حدودها. كلّ واحد أصبح بإمكانه أن يفتي في من يريد ويشتهي. يلعن. يطالب بنزع رقبتها مثل الدّجاجة. حيّة رقطاء أحلّ دمها. الله يلعنها. حماها الرّسول من البرد فالتفّت على عنقه وأرادت لدغهُ وقالت له: تضحك ناكلك، تبكي ناكلك. وضع الرّجل رأسه بين يديه. انتبه إلى العيون. كانت مرتشقة فيه.

ـ يا حرمة اتّقي الله.

الدّنيا دوّارة مثل الدّولاب. وجهك المنهك يا سيدي بالرّغبات المدفونة يذكّرني بفقيه قريتنا منذ ذلك الزمن الّذي صار ضباباً عندما كنتُ صغيرة، صرخ في وجهي بعدما نزعت يده التي زحلقها من تحت لباسي روحي يا وحد اليهودية. يَا وَحْدْ اللَّفْعَة(2). راح يجّي اللّي يَفْعَرَكْ ويخَلْخَلَكْ كالبندير وستعبدينه بالسيف عليك، أو تنتهين في حفرة الرّجم وستكونين سعادة كلّ النّاس الّذين يرجمونك. آه يا سيدي الإمام لماذا تخبئ رأسك بين كتفيك؟ قل لماذا دخلت إلى السجن؟؟ لقد سبقتني إلى الحماقة. كنت أوسخ منّي. لم تنتظر حتّى تموت لتنعم بفضّ بكارات نساء الجنّة. الله يخْرب بيتك. حتّى الجنّة لم تتخيّلها بدون نساء. ركبَتْك الشّهوة الملعونة لحظة السّهوة. بان

(1) لا يستحون.
(2) الأفعى.

لك الطّفل الّذي كنت تعلّمه جميلاً ومبلبلاً ككرة ثلج. لعنت الشيطان الرّجيم الّذي يوسوس في صدور النّاس. مددت يديك إلى مؤخّرته. حاولت أن تلعن الشيطان لكنّه كان قد ملأ دمك. الطّفل عمره لم يتجاوز العشر سنوات. تفّاحة مرميّة على قارعة الطّريق. اسمع يا ولد ما تخبّرش لوالديك بأنّك توضّأت مع سيدك الإمام وإلا سيغضب منّك الله ويلعنك وليّ القرية الصّالح ويركبك الجنّي الأزرق والأحمر. سيدخلان معك في الفراش نفسه ويسحقانك لتصبح مثل الذرّة الضائعة في الفضاء. شَفْتْ يا سيدي الإمام!! كم كنتَ موحشاً، ومع ذلك أطمئنك، دعوتك وصلتني. عندما حَازَ رجلك العظيم على ورقة الزّواج، اغتصبني كالدّابة. وحياتك اغتصبني. كتّف يديّ وصرخ في وجهي. بِلا رَبيّ مَا رَاكِ زَاغْدَة مِنِّي، يا بنت الحرام. آه يا سيدي الإمام دعوتك لحقتني. رَجُلَكَ اليوم لم أعد أبحث عنه ولا أشعر بحاجة إليه مطلقاً. يركض ورائي وأنا أهرب. أجري. من غير أن ألتفت. شوف. وحقّ ربيّ تقرّب مِني نَرْمِي رُوحِي من التّاقة(1). لكنّه غافلني ورماني على السرير.

كان الرّجل الملتحي ما يزال مندهشاً. أوف. قلّة حياء!!

ـ يا حرمة.. عظامك جهنّم.

ثمَّ غمَّ رأسه وخرج مسرعاً وهو يصرخ ويدفع كولمبو، وصاحب المحل.

ـ راح تشوفوا.. وحقّ النّبي والصّحابة، نعلّقكم من رجليكم يا أولاد الحرام.

عندما خرجنا من المطعم، كانت مرهقة ومتعبة ورأسها ثقيل أكثر من أيّامه الاعتياديّة. اتّكأتْ على عمود كهربائي وبدأتْ تتأمّل إحدى البنايات العالية. هل تسمع هذه الصرخات؟ أيّة صرخات؟ لا أسمع شيئاً.

(1) النافذة.

ـ هل هناك امرأة تملك الجرأة لتقول لزوجها، النّوم في فراشك يقرفني؟

ـ واش بك هذا النّهار؟؟ هذا مش يومك.

ـ لابدَّ أن تكون موجودة! لا يعقل أن يكون العالم كلّه مستسلماً للرداءة.

ـ يا مرْيم. الدّنيا ليست ميّتة. على الأقلّ مليئة بالصرخات الموجعة.

أغمضت عينيها للحظة. استرجعت حنين الحروف الّتي تنام في الذاكرة.

ـ كارمن كانت مجنونة مثلي!

ـ كانت مدهشة.

ـ ومجنونة في عالم يصطنع الاتّزان.

ـ أنت فظيعة.

ـ يا رجل خلّيك! لا فظيعة ولا هم يحزنون.

Une louve perdue dans ce grand desert. وحياتك لا أكثر Rien de plus.

إنّنا في غابة!! من أعطاه الحقّ ليدخل إلى البار ويغتال فرح النّاس. يا أخي دع النّاس يختارون حياتهم. يختارون بؤسهم وموتهم. رأيتهُ؟! كيف تسلّل بلباسه الفضفاض وهو يلعن ويبتهل وينظر إلى الوجوه بكثير من الكراهية. كان يريد أن يضربني، قرأت ذلك في عينيه الحمراوين. في أعماقه تتذابح صرخات الرّغبة. واش جابك لهنا يا أَمَةَ الله؟! التغريبُ.. وقتلُ الحريم الّذي جعله الله زينة للمطهرّين.

ـ وأنْتَ واش تْكُونْ يَا السِّي مُوحْ؟؟

ـ عبد الله يهدي إخوة الإيمان للإيمان.

ـ عبد الله في بَارْ؟

ـ عظام جهنّم. صوتك عورة. أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم.

ـ واش تكون. شكون جابك لهنا؟؟

ـ صورتك غواية.

ـ رُحْ يا ولد النّاس. رُحْ الله يردّك للطّريق المستقيم.

خرج ولم يعد. لم أكن مستعدّة لكسر الفرحة وشهوة الحزن الّتي كانت تملؤني. القادمون الجدد، حرّاس النّوايا، من أعطاهم حقّ اغتيال حميميّة النّاس؟ ينوون أنّك مجرم ثمّ يحاكمونك بناء على نيّتهم. الأعمال بالنيّات يا ولد النّاس... هذه هي بلادك.

نفضت رأسي من الذاكرة المتعبة. عندما التفتّ نحو المستشفى، كان قد غاب بين الأشجار والبنايات، لكنَّ حنين مَرْيم ظلَّ يتبعني. كانت هي المدينة. هي الأشجار. هي البنايات. هي الشوق. هي الهواء البارد والسّاخن في هذا الفراغ المليء بالتّشوُّهات. هي قطرات المطر البلُّوريّة الّتي كانت تتسرّب إلى جسدي. هي بحري المتوحّد بين شواطئه المهجورة.

مَرْيم.. رقصة المجنون الأخيرة. حين تأتي لا تسأل وحين تدخل القلب لا تستأذن مطلقاً، تدخل بحذائها الرّقيق وألبستها الفضفاضة.

II

ظلال المدينة

مدينتنا سُرِقَتْ مثلما تُسرق النّجوم. أصبحت قديمة وعتيقة كأنَّها ميت يخرج من تحت الأنقاض. الظّلال الممتدّة تملأ شوارعها الّتي بدأت تتآكل. السّفن تتدحرج، والسّواري بدأت زوايا ميلانها تتجاوز شكلها العادي. أحياناً يبدو لي أني أسمع تكسّر قطع الخشب وتمزّق الحبال الّتي تشدّ جنبات السَّفينة. شخص ما (دَعَا) على هذه المدينة ومات، تقول مَريم. شيءٌ ما يدور داخل خفايا هذه المدينة وأحياناً في علنها. آه يَا خُويَا وَيَا وَلَدْ يُمّا. إنَّها الدّنيا. خَلّيها تدور. تدور. تدور. مثل الأسطوانة الّتي نعشقها وتُبكينا. الكآبة عندما تأتي، أشمّ رائحتها من بعيد. وحياتك لها رائحة!! سنة تمرّ. سنة أخرى. وبعدها سنة ثالثة. منذ ذلك الحدث الرّهيب عندما شقّت رصاصة ما رأسي. لا شيء تغيّر في هذه المدينة الحزينة الّتي تموت يوميّاً. تموت مثل ريف قديم وتتحوّل إلى قرية صغيرة. تتهاوى مثل الورق اليابس. كلّ شيء فيها بدأ يفقد معناه، الشّوارع. السيّارات. النّاس..

قبل زمن قصير كانت مليئة بالحياة. أسطحها القرميديّة الرّائعة الّتي بدأت تخضرّ بفعل الزمن تعطي الإحساس بالمدن الأوروبيّة. على الجهة اليسرى يركض البحر بسرعة هرباً من زحف البنايات

حتّى كأنَّ الميناء بدأت تنسحب باتّجاه أعماق الموج. الرّافعات تتطاول رغم سواد الصدأ الّذي بدأ يعلوها، تبحث عن سماء لم تعد شاهقة، ولم تعد بها ألوان مغرية. مصنع الفوسفات والمواد الدّهنيّة الدسمة، يقذف بأدخنته الصفراء الّتي تبيد المحيط وتأكل الحيطان مثل الرّطوبة. حتّى محطّة القطار الّتي كانت تمتدّ عبر البحر، تقطّعت إلى محطّات صغيرة. عندما أتذكّرها، أعرف لماذا تَبِعتُك ذات صباح حافي القدمين حتّى التهلكة وركضت وراءك مثل طفل صغير. أتساءل الآن، كم مرّة ركبتِ القطار؟ كم مرّة نمتِ بين ألواحه القديمة، تستمتعين بدفء الأنفاس الّتي تملأ عرباته. كم مرّة مرّ بك على أطراف المدينة، مخترقاً غابات الضّاحية الّتي بدأت تندثر بسرعة مذهلة. كم مرّة شهقتِ باكية في هذه المحطّة تودّعين عزيزاً على حافّة السّكك الحديديّة، الّتي كانت تمتدّ أمامك مثل كآبة لا نهاية لها. تلكزينني وأنا أتأمّل الوجوه. هاه!! كاتِبي وحبيبي يتأمّل! ألمسُ شعرك الهارب مع هذه الأنسام الصباحيّة. انظري دهشة هذه المدينة! إذن سأكتب هذه المرّة عن الدهشة. تخيّليني فاتحاً فمي عن آخره، عيوني وقلبي على أحلام هذه المدينة العاشقة من رأسها حتّى أخمص قدميها. ماذا يحدث لو نركب الآن قطاراً لا يتوقّف؟! ماذا يحدث لو يسرقون منّي سحابات هذه المدينة الملوَّنة؟ ماذا يحدث لو نموت وفي فمنا شيء من الحزن على أشواق هذه المحطّات الّتي لا يتوقّف ضجيجها الممتع؟ هززت رأسك. وكنت مثلك لا أعرف الجواب لكنَّ الشيء الوحيد المؤكّد، هو أنّنا سنكون حزينين حزناً كبيراً. هي المدينة الآن تتسرّب من بين أصابعنا كحبّات رمل تستبيحها أقدام القتلة. منقسمة إلى قسمين. القصبة القديمة بأسواقها الشّعبيّة. الباعة الجوّالون. البهارات الهنديّة وسوق الذّهب التركيّة. السّباكون. الخرّازون. الحدّادون. صانعو الأحذية الصغار. البوّابات القديمة وضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي وبقايا أبواب وفتحات الجيوش الانكشاريّة الّتي كانت تغلق الشّوارع كلّما نزلت إلى المدينة. الشّوايون. الباعة الجوّالون، منظّفو الأحياء الضيّقة الطيّبون وهم يدفعون حميرهم في الممرّات الضيّقة. الفتيات

المراهقات وهنَّ يخرجن من الثانويّات بمآزرهنّ الملوّنة بألف لون طفوليّ. تتصاعد ضحكاتهنّ في السماء الصافية وهنّ يرشقن المعاكسين بتلذُّذ. كانت المرأة جزءاً من سحر هذه المدينة الّتي تشبه القرية الكبيرة. شيء من الفرح كان في الأزمنة المنقرضة يملأ العيون، الآن كلّ شيء اختلط وبعضه انقرض. المدينة العربيّة والمدينة الغربيّة صارا شيئاً واحداً. لا شيء يميّزهما عن بعضهما. المقاهي تتضاءل، المطاعم صارت نادرة. البارات تغلق الواحد تلو الآخر، والموجود لا معنى له أبداً. العشّاق يجدون استحالات كبيرة في إيجاد زاوية هادئة للحبّ والفرح. ضاقت المدينة وأصبحت محصورة داخل أشواق النّاس. حلم كان ذات زمن. المدينة اندثرت. صارت فينا.

سنة تمرّ، وبعدها سنة أخرى، منذ ذلك الحدث الرّهيب، عندما شقّت رصاصة طائشة أو غير طائشة رأسي، تقول مَرْيَمُ، وهي تحاول أن تمسح أحزانها المفاجئة، لا شيء تغيّر سوى هذه المدينة الوحيدة الّتي تموت بين اللّحظة واللّحظة، وتتهاوى كلّ يوم مثل الورق اليابس. كلّ شيء فيها بدأ يفقد معناه، الشّوارع، السّيارات، البنايات، حتّى الوجوه الّتي تعوَّدنا على وضاءتها صارت متّسخة. الأشواق الّتي تحتلّ قلب المدينة، لم تعد تحفل كثيراً بالفرح، الطالبات عندما أراهنَّ في ساحة المعهد، ينتابني الإحساس بأنَّ جدّتي كانت أكثر تحرّراً. تشعر أنهنّ ولدن أكثر من خمس مرّات. مترهّلات بسبب الولادات. هكذا يبدو لي على الأقلّ. الشّباب في الطّريق لا يعاكسون بلطف ولكنَّهم يضربون ويشتمون وبصوت عالٍ. في الطّريق إلى المكتبة الوطنيّة، كنت أنزل بسرعة، جرى ورائي مجموعة من الصبية وهم يصرخون: الله يلعن والديك يا القحبة، ها هي الكلبة، الروميّة.. استري نفسك يا وحد الزّانية.. أتساءل أحياناً، هل يتعلّمون هذه الكآبات في المدرسة؟ طفل صغير، بدل أن يهتمّ بطفولته المسروقة يعطيك درساً في الأخلاق ويكسر كلُّ شيء يصادفه في طريقه. شيء ما في المدينة يمشي على رأسه بشكل غير معقول. القادمون الجدد، حرّاس النّوايا الّذين يخافون على سكّان المدينة من القيامة، جاءوا

بكلّ شيء، بكتبهم، وأوامرهم، ومحارقهم وحتّى لون بارودهم. قبل أيّام أحرقوا منزل أرملة تعيش مع ابنين (بنت وولد)، وقبل أن تصل الشّرطة، كان الطّفل قد تفحّم. قيل إن سيّارة مشبوهة كانت تزورها في الكثير من المساءات وهي امرأة مطلّقة، كلّ العيون مصوّبة نحوها. وعندما جاؤوا بالسيّارة وسائقها، وجدوه أحد إخوتها العشرة. الله يحفظ. عندما يتحكّم حرّاس النّوايا في المدينة، سيحرقون الميّت والحيّ فيها. هه... ومن ـ لعد؟ دخلت إلى اللّجنة المضادّة للتعذيب Le comité contre la Torture وحقوق الإنسان، وبعد فترة خرجت، وجدت كلاماً كثيراً لا معنى له، في حين أنَّ المدينة كانت تموت بهدوء وبفظاظة. أحزاننا تتكاثر بعدد الرّمال، وهم يتطاحنون، ويحدّون أسنانهم. يجب البحث عن شيء آخر؟! كان حرّاس النّوايا، كلّ يوم يغلقون أبواب الصّالات الفنيّة ويوقفون بالقوّة السهرات ويطاردون رجالات المسرح ويندّدون بالكتّاب في المساجد. شيء خفيّ كان يعمل بالقوّة على تصحير المدينة. سيعبر هواؤهم الساخن كلّ أزقّة المدينة وَشوارعها. أَنَاطُولِيَا كانت حزينة ومكتئبة جدّاً. بأيّ حقّ يفعلون كلّ هذا؟ وصلتها أكثر من رسالة تهديد، من أجل مغادرة البلاد، والآن بدؤوا يحرّكون رئيس البلدية ثمَّ مدير المدرسة الّذي لا يملك أيّ إحساس فنيّ. لقد فشل في أن يكون رسّاماً جيّداً. فوضعه بنو كلبون في هذا المنصب ويستغلّه حرّاس النّوايا، وهو قائم في مكانه أوّلاً وأخيراً.

لا شيء، تغيّر، سوى أنَّ المدينة باعت ذاكرتها وهي تبحث الآن، وسط الفراغات المقلقة، عن ذاكرة جديدة تستعيرها من مدن قريبة أو بعيدة، لا يهمّ.

الأتربة كانت تتصاعد باتّجاه السّماء. الجوّ صار أحمر. نتمنّى لو يسقط المطر، لكنَّ المطر لا يسقط، لو تغيّر الدّنيا طريقها، لكنَّ الدّنيا لا تغيّر طريقها. الرّياح الساخنة لا تتوقّف مطلقاً. أعرف أنَّ القادمين الجدد، عندما دخلوا البلاد، دخلوها وقت الحرّ والزمهرير. ولهذا كلّما التهبت الأرض وخسرت السّماء زرقتها، تذكّرتهم،

يجرّون ألبسة بيضاء تظهر مفاتنهم. يختبئون في الزوايا بحثاً عن امرأة تعبر شعاعاً في ساعة ما من اللّيل، حتّى عندما تكون مع رجل. يتفرّجون. يتشمّمون الرّوائح من بعيد. ثمَّ فجأة يغلقون عليك الطّريق!.

ـ الدّفتر العائلي؟!

ـ من أنتم؟ لستم شرطة!

ـ حرّاس الإيمان (النّوايا) يا حمار.

ـ هذا ليس كلام رجال عاهَدُوا الله أن...

ـ هذا كلام طيزك، طلّع الورقة وإلا نقلع لك زبّك؟!

ـ ... ...

شيء من الدهشة يملأ عينيك؟ لا! لا! لابدّ أن يكونوا من المافيا الّتي تملأ شوارع المدينة! وإذا دخلت معهم في نقاش، يُمَرْمِدُونَك. يمرّغونك أنت ومن معك. ثمَّ يعودون قريري العيون بعدما أدّوا ما عليهم من واجبات. إنّنا نعبر عصراً منقرضاً في هذه المدينة الّتي أصبح فيها الباعة الجوّالون وتجّار الشنْطة والترابندو سادة الأزقّة والشّوارع، والأطفال الشّحاذون ومسّاحو زجاج السيّارات والنّساء الواقفات في الزّوايا، في غفلة حرّاس الإيمان. «يا خويا يا ولد أُمّا. كمْ أنتَ وحدك! ما أوحش مدينتك الرّاضية بكآبتها!» حزن كبير يتجشّأ في الدّاخل كالسرطان. الميزيريا[1]، السيدا، والزطلة! الطّاعون قادم. في الطّريق يا حبيبي! يأتي مع الفقر والبؤس. عام الفتنة الكبرى. إنّي آراه!! ألمسه برؤوس أصابعي. النّاس يقتتلون في الشّوارع. المارّة يساعدون على تضخيم الموقف إمّا بالدّخول في المعركة بجانب القوي وإمّا بصمت أو الارتماء براحة على هامش المدينة أو اللامبالاة، كأنَّ الأمر لا يعنيهم.

Les Voyous

وأنت!! ما أصعبك في هذا الفراغ المقلق.. الفنّان؟ المتوحّد

(1) البؤس (من: Misere).

والوحيد. المضادّ لكلّ طقوس المدينة. الجامعة هي مكانك للتنفّس. بدأت تنكسر داخل ذاتها!! عندما أغادرك أيّها المسكين ـ قالت هذا قبل أن تأخذها إغفاءة الموت وقبل أن تَسْمَعَ إلى كلماتها الأخيرة ـ ستبقى وحيداً. ببوهيميّتك وحبّك للفنّ. ستُدفن داخل جسدك. إنيّ أعرفك. ألمس جرحك. القادمون الجدد. حرّاس النّوايا، يلوّحون من بعيد بالحرف الوهّاج الّذي صار حرفاً صدئاً.

ـ يكفي من الكلام الفارغ!!

ـ وحياتك هذه هي الحقيقة. وعليك أن تقبل بها. رصاصة في الرأس ومازلت حيّة. الأطباء قالوا نزعها يفقدكِ حياتكِ. تآلفي معها. فالدّنيا كلّها، تآلف مع الكآبات والأحزان. ولكن هذه الدّنيا تضطهدني في ما تبقّى من كبريائي. أحببتها بقوّة، وفجأة شعرت بشيء يشبه الرّيف الحزين يأخذ منّي حميميّتي. لم أستيقظ إلا متأخّرة على وجهكَ ووجه أَنَاطُولْيَا. كانت الرّياح ما تزال تعصف بالمدينة. قال الطّبيب الجرّاح، بعد أن أراني صورة «السكانير»: عليكِ أن تعرفي هذه الحقيقة. الكثير من النّاس يعيشون بالرّصاص داخل أدمغتهم. من المستحيل نزعها. نزعها قد يكلّفك حياتك. أنا أعرف أناساً عاشوا وشاخوا والرّصاصات في أدمغتهم. لا أريد أن أكذب عليك. يجب أن تتوقّفي عن رقص الباليه. في أسوأ الأحوال أن تخفّفي من حركاتك.

ـ لكنّه حياتي يا سيدي.

ـ انسيه.

تذكّرتُ إيكاترينا مكسيموفا. منذ تلك اللّحظة كان إصراري يتنامى بقوّة. إصْرار لا يقهر. كنّا قد قدّمنا العرض الأوّل ونستعدّ للعرض الثاني عندما جاء حديث الرّصاصة الطّائشة. بقيت في ذهني صورة بيتك والمطر ولوحات محمّد خدة الّتي كانت أبجديّتها تتسلّق حيطان عظماء المدينة. ماذا تريد؟ الطبيب ظلّ صامتاً أمام مشهد الحزن وبكاء أمّي وعلامات الحيرة على وجهك. قال إنّهم يقتلون

الجياد في هذه البلاد. سأقدّم شهادتي أمام لجنة حقوق الإنسان واللّجنة المضادّة للتعذيب. سأقول إنّهم استعملوا الرّصاص الانفجاري. إنّهم منعونا من تسليم الجثث لذويها. وإنّهم أجبرونا على كتابة الأسماء على توابيت محشوّة بالقطن والمفاصل الممزّقة، لأناس مجهولين. سأقصّ حكاية المرأة الّتي أصرّت على رؤية وجه ابنها الّذي سقط في الأحداث. قالوا لها سيذعرك المشهد. أصرّت. وعندما فتح الصندوق، وجدوا رِجلين مختلفتين، وذراعين، كلّ منهما لجسد، ورأساً نصفه متلف. بكت كثيراً وحاولت مع الزمن أن تنسى قتيلها. وذات يوم وصلتها رسالة من أحد أصدقائه الخارجين من السّجن، تُذكّرها بضرورة سحب الدراهم من مكانٍ ما في زاوية مهملة داخل البيت. ابنها كان الوحيد الّذي يعرف المكان. في آخر رسالة، يسلّم عليها ويقول بأنّه سيخرج بعد أيّام قليلة. شعرت بالجنون يصعد من قلبها. وعندما عاد بعد خمسة أشهر، لم تعرفه. مسّدت على وجهه. كانت عيناها منهكتين، وعندما تأكّدت أنّه هو، ضمّته إلى صدرها وتنهّدت بقوّة. صعدت الشهقة إلى قلبها واندثرت مثل السّحابة.

كلّ هذا يحدث!! وأنت هو أنت مصرّ على كبريائك ووحدتك في مدينة لا تعير أهميّة كبيرة لأشيائك الصّغيرة الّتي سحبتها وراءك من قريتك. اقترحَ عليك صديقكَ الوزير أن تنتقل معه إلى قصر الثقافة. قلتَ له بخجل كبير: مكاني هنا، في هذه المدينة المنهكة. قال لك بحزن شديد:

ـ يا رجل خلّيك من الكلام الفارغ. خذ حقّك من هذه البلاد. أنت فنّان وتسكن في بناية عادية مع الغاشي[1].

ـ الله يكثّر خيرك وخيرهم. راني مليح هكذا!

دار في كرسيّه الدوّار. مسح على وجهه غمامة مقلقة نزلت فجأة على عينيه:

(1) مع العامّة.

ـ أنتم الفنّانين وجوه البؤس. يجيكُمْ الخير حتّى للفمّ وتضيّعُوهْ! دبّرْ رَاسَكْ.

وعندما نزلتَ إلى المدينة، كان الذينَ استشرتهم يضحكونَ من غفلتك. لقد ضيَّعت فرصة العمر. القادمون الجدد، حرّاس النوايا، سيأكلون الأخضر واليابس.

«يا مرْيم!! ما أعظم صوتك وصمتك في مدينة صارت لا تتكلّم، ولكنّها تهذي بقوّة».

الشّوارع بدأت تتثاقل بالأوساخ والأوحال، وجمالها يغيب تحت كثافة دخّان المصانع الصّغيرة الّتي نبتت في الحارات كالفطر. تصنع الحلوى، والبلاستيك، الألياف، الكارطون. حتّى المطابع صارت لا تطبع إلا كارطونات الأحذية والدّعوات والعناوين وكتب الدروشة وأغلفة الألبسة والأقمشة وإعلانات الأحزاب الّتي صارت تفرّخ مثل الدّيدان. حتماً ستتقلّص حتّى تصير واحداً مع القادمين الجدد. الميناء صار فارغا من كلّ شيء. العمّال يتثاءبون بكسل كبير. يفركون أياديهم، ثمّ يظلّون تحت سارية سفينة مهملة أو تحت أكداس الأشياء المجهولة الّتي لا يعرفونها، وعندما ينزلون إلى الأسواق يتفرّجون على كلّ شيء حتّى بدون التّفكير في الشّراء.

البحر مزيّت ومتّسخ كأنّه بركة مهملة. كلّما هبّت عاصفة، جلبت إليها كلّ أوساخ الحارات والمنحدرات والشّوارع الضيّقة. السفن بدأت تتصدّأ، وتتفتّت بفعل الزمن الّذي صار يتحرّك بصعوبة كبيرة، وتنتفخ ألواحها المرميّة على الشواطئ المهجورة. الشّوارع والبنايات تمتلئ بالنّفوس، والأشواق بدأت تضيق.

في المرّة الماضية رأيت في التلفزيون فقهاء الظّلام، القادمين من القاهرة واليمن السّعيد وبلاد السّودان يتحدّثون عن تحريم مختلف أشكال تحديد النّسل. عين على المسؤول وأخرى على جيبه. حرام.. حرام.. الله يرزق عبده! يضع الله في كفّ كلّ قادم جديد رزقه. لا تقتلوا النّفس الّتي حرّم الله قتلها إلا بالحقّ. أين

يذهب كلّ هؤلاء الخلق؟ بدؤوا يجدون صعوبة كبيرة فيما يأكلونه. بعد سنة سيأكلون التراب، ثمَّ يتآكلون مثل الجرذان. إنَّهم يتوالدون مثل القطط. يتداخلون معها. المرأة في هذا البلد لا تصلح إلا لردم الرغبات المهووسة المقموعة عبر السنين. مدينة تتجشأ الجوع والعطش. يَاخِي تَلْفزَة ياخي! هل هي معنا أم معهم؟ حتّى أقراص التهدئة الّتي نبتلعها كلّ مساء لم تعد كافية لصدّ صرخات الأمواج الّتي تتذابح داخلنا. العلم علم. والدين دين! أمَا ملّوا من تكرار نفس الحديث، منذ أكثر من أربعة عشر قرناً؟ لقد بلّدوا هذا الشّعب. صار يتقاتل عن نواقض الوضوء. الفساء والتش والريح الكريهة وسلس البول. اللّحية من الرّجولة! تضحكين. الله ما عندوش شلاغم فهو إذن ليس رجلا!! هل تجوز الصّورة في بطاقة التّعريف؟ في الصّحافة؟ التشبيه بمخلوقات الله كبيرة من الكبائر!! بعض الجرائد صارت تصدر بدون أيّة صورة كلّ شيء يدعو إلى الموت البطيء. المساجد لا تتذكّر كاتب ياسين إلا لشتمه! ولا تتذكّر الجمعيّات النسائيّة إلا لمزيد من التّهم الأخلاقيّة، ونَسِيَتْ الصلاة والتّسامح. الشرطي الواقف عند بوّابات المساجد العالية، يدير ظهره للشوارع الخلفيّة ويخبّئ رأسه في أقرب حائط من حيطان العاصمة الهرمة، بعيداً عن المقتلة الّتي كانت تدور عند رجليه المتورّمتين بالوقوف اللامجدي. منذ أكثر من خمسة عشر قرناً، لم نخلق مدينة نأمنها. وجدناها جاهزة، فدخلناها بالدّجاج، والأرانب، والكلاب، والقطط، وبدأنا في تزييفها حتّى صارت مثل الخيمة. سحرٌ ما ينقص في هذه المدن الّتي لم تبقَ فيها إلا النباتات الّتي بدأت تفقد رونقها وتتساقط كلّ الأشياء والتّحف الّتي كانت تزيّن ساحاتها ومداخلها. كلّ شيء يباد بهدوء وطمأنينة. تقرأ في العيون الكلمات الّتي صارت من عادات المدينة. «Silence! On Tue!».

مدينة ـ خيمة. تقفل شبابيكها وأبوابها في السّاعات الأولى من اللّيل. فقدت الكثير من أنوثتها وأهوائها وأشواقها الّتي لم تكن تُحدّ. نساء هذه المدينة كنّ مدهشات وجريئات. دُفعن ذات قتامة، إلى جحورهنّ، نحو البيوتات الضيّقة. وكلّ من خرجت، تخرج عمرها

قبل أن تصل إلى البيت. الطّفل يَضْرب بالحجارة. الكبير يصرخ: «استري روحك يا امرأة»!! المراهق يعاكس ببدائيّة كبيرة: ياخي قحبة ياخي!! كم كان شيوخنا حكماء. أخرجوا من المساجد والمقاهي ودفعوا باتّجاه الظلال الثقيلة. الفضاء صار ضيّقاً والوجوه الطيّبة تبحث عن متنفسها خارج هذا البحر.

في ساحة مدرسة الفنون الجميلة لكزتني بقوّة:

– هه. وَاشْ بِك؟! تحلم بأستراليا؟ دعك من حلم الكلورادو. الأرض الموعودة كذبة كبيرة. في روما يقتلون، في باريس يكشّرون. في لندن يُطردون. في مدريد يرجعونك من المطار. ماذا بقي أمامك؟ أن تخبّئ رأسك في رمال وطنك الواسع أو تموت، أو تهرب إلى عمقك، إذا بقي شيء في عمقك.

– هذا هو المنطق المقلوب. ضربني وبكى، وسبقني واشتكى.

– هذه هي الدّنيا. أدِّ وإلا خَلِّ[1].

– إمّا ديمقراطيّة الفوضى أو حرّاسَ النوايا؟؟ ياخي حالة ياخي!

– قلت لك خلّيك من حلم الكلورادو. فهو ليس لك.

– وهل بقي شيء آخر يستحقّ الذكر؟؟

– هيّا «انس الهمّ ينساك» بدأنا نحضّر لباليه «البربريّة». بعد أيّام سأنتقل مع أَنَاطُولْيَا إلى بلاد القبائل لدراسة طبيعة المكان والألوان. أَنَاطُولْيَا سيّدة عظيمة. لا تترك شيئاً للصدفة. تقول إنّها ستقوم بعمل جبّار لهذا البلد (كان هذا قبل دمج حياة فاطمة آيت عمروش بموسيقى محمّد إيقربوشن).

– أوف. وَهل هناك شيء كبير في هذا البلد؟

(1) خذها أو اتركها.

– لا تجعل كلّ شيء مظلماً! أنت بوهيميّ وقلبك واسع سعة البحر.

– ربّما لست في يومي. الظّلام في داخلي.

ثمَّ نفترق، لنلتقي مع أَنَاطُولْيَا في زاوية أخرى داخل السّاحة الواسعة لهذه المدرسة الّتي يريدون إغلاقها. قالوا إنَّها لا تنتج إلا الفسق والتغريب. يجب تحويلها إلى مسكن لسكّان القصبة القاطنين تحت مخاطر الزلازل. فهي واسعة ويمكنها أن تستوعب عائلات كثيرة. هذه النغمة ليست جديدة. بدأت منذ مدّة ليست بالقصيرة. عندما تعرّض بيت أَنَاطُولْيَا للسرقة وتقدّمت بشكوى للشرطة. قالوا لها: البلاد هكذا. غابة. دغل من أدغال إفريقيا. عندما نقبض عليهم سنتفاهم معهم. ثمَّ أغلقوا الملفّ، وسألوها، إذا كان قد سُرِق منها شيء مهمّ. قالت لا أملك سوى الاسطوانات، وقد كسروها. قالوا لها احمدي ربّك أنّهم لم يحرقوا البيت. وانتهى كلّ شيء عند هذه الكلمات. في المرّة الثانية كان التهديد صريحاً. وجدت في صندوق البناية، وتحت باب بيتها الخارجي، رسائل تقول: «عودي إلى بلادك أيّتها الشيوعيّة القذرة». قالت للشرطة، اقتحام البيت معناه أنّي أصبحت تحت رحمتهم. قال لها الشرطي الّذي كان ينام على كرسيّه:

– Vous savez madame, vous n'êtes pas convaincante. On n'y peut rien, c'est comme ça, à prendre ou à laisser.

وعندما حكت القصّة لمدير المدرسة تأفّف قليلاً، ثمَّ قال لها: صبيان لا يدركون مخاطر ألعابهم الناريّة. سنتصرّف بحزم. وفي المرّة الأخيرة عندما أصرّت على توقيع رسالة تضامن معها. جاءها المدير نفسه وهو يصرخ:

– إنّك تتسبَّبين في فوضى كبيرة داخل المؤسَّسة. أنت مجرّد متعاونة وكفى Et si ça vous déplait, vous n'avez qu'à quitter le pays.

– Ce n'est pas à toi de me le dire. J'ai un contrat avec le ministère.

- C'est mon établissement. بلا ربي مارَاكي قاعدة[1] دقيقة في هذه البلاد. رَاحْ تشوفي وين توصل هذه المهزلة.

وعندما ذهبت إلى الوزارة طمأنوها. ووعدوها بالتدخّل عند الضرورة. ونسيت حكايتها. واليوم عادوا ليغنّوا الأغنية القديمة نفسها ويهدّدوا بإغلاق صالة الرّقص. تصوّر أن أفظع ما أخشاه، عندما تتعقّد الأمور، أن يركب المسؤولون طائراتهم الخاصّة ويغادروا البلاد بعد تركها في دماء الفتنة والحروب الأهليّة. لا شيء يجمعهم بهذا الوطن. المدينة تتهاوى وهم يلعبون على رؤوس المفردات والكلمات. أو من يدري قد يتحالف بنو كلبون وحرّاس النوايا على رؤوسنا.

- أتعرف؟ أحياناً أشفق على ستالين، وهتلر، وموسوليني!!

- أنت تبالغين.

- وطنيّتهم الزائدة هي الّتي أفقدتهم عقولهم. بينما هاذو باعوا كلّ شيء.

- الدمّ يلغي المجد ويهزّه في العمق!!

- لا يوجد مجد بُني بحمام السّلام. رومنسيّتك جميلة ولكنّها ليست لهذه المدينة. المدرسة قد تغلق. ولكن هل يجب أن نصمت، وننساح على الهوامش، أو ندفن رؤوسنا في الظّلال المنكسرة؟ نحتاج إلى شيء آخر ليصبح لصرخاتنا صوت. العالم يتغيّر بسرعة. ونظرتنا للأشياء هي هي!

- لا أعلم إذا كنت معك أو ضدّك. العالم يتغيّر بسرعة مذهلة. أَنَاطُولْيَا تنتف شعرها كلّما ذكر أمامها غورباتشيف.

- لتتحمّل هذه الشعوب مسؤوليّتها ولو مرّة واحدة في التاريخ. هناك شيء ما يسير بشكل مقلوب. ما معنى أن لا تُطلق رصاصة

(1) لن تبقي هنا.

واحدة في ألمانيا الديمقراطيّة حفاظاً على النموذج الاشتراكي؟ في المجر؟ في بولونيا؟ ليعد التّاريخ إلى الوراء خطوة؟ ليصحّح نفسه من جديد. أو في ستين داهية. التّاريخ لا يتحرّك إلا إذا تعفّن.

- بعد أن ينهار كلّ شيء.

- يا أخي هذه أحاسيسي!! هذه أنا. لينفّس النّاس «Une bouffée d'air frais» خارج حيطان هذه المدن المهزومة. كلّ شيء فينا صار ضيّقاً. ساحاتنا. شوارعنا. بيوتنا. حجرنا. قلوبنا. عيوننا. ذاكرتنا. فراشنا. تاريخنا.

- التخلّف!!

- العجيب أنّ التخلّف هو الوجه الآخر للعبقريّة. دافعها القوي. لكن العبقريّة عندنا يسطّحها التخلّف. إنّنا نُدفع إلى الموت ببطء شديد الرّقابة الصّارمة لحرّاس النوايا.

- حتّى اللّحظات الحميميّة أعطوا لأنفسهم حقّ مراقبتها.

تصوّر الهستيريا الّتي أصابت هذه المدينة!! إنّي أراهم!! يقفون على أطراف الشّوارع والطّرقات، بألبستهم الفضفاضة. عيونهم حمراء مليئة بالعدوانيّة. ينظرون إلى الغادي والرّائح. يطلبون الأوراق. دفتر العائلة. البطاقة الوطنيّة. الهويّة الحزبيّة، الدينيّة، ثمّ يأمرون، أو ينزلقون من وراء شقوق الحيطان، تمتدّ أياديهم نحو سكّينة لامعة تخترق ظلال الحميميّة. ينزلقون إلى الفراش. تَحْمَرُّ عيونهم أكثر أمام مشهد العري. قومي يا وَحْد الزانية بنت الزانية. تنامين في فراش غيرك بدون أوراق؟ أين وثائق الزواج؟ تعالي هنا! يتأمّلون جسد المرأة عارياً. يرتجفون للبشرة المندّاة بعرق الفرحة. يصرخ كبيرهم فيهم. تفرّقوا، ويبقى هو في مواجهة الشهوة. ثمّ يعوي مثل الذئب قابضاً بحفنة يده على ذكره المنتصب. بنت الكلب ماأجملها! ينزع سرواله. يصرخ شيء في داخله. اتّقِ الله يا رجل. أوف. عَفْ ربيّ أنْتَ!! شويَ للربّ وشويَ للعبد. يرفع رجلها اليمنى. يسحبها باتّجاهه بقوّة. أووف.. ينفرج وجهه عن آخره. إنّها

الحركة المدهشة للجنس وقوفاً. ترفع المرأة رجلها أكثر، يشعر باللّذّة، وفجأة توجّهها بكلّ قوّة إلى حجره. يشعر بخصيتيه تتبعثران. إنّه الكابوس الّذي صار أقلّ من الحقيقة الّتي نحياها.

ثمَّ تغرق في حالة من الهذيان. ماذا تريدني أن أقول لك؟ القلب صار ممتلئاً بالهواء. نستنشق ما نتنفّس ونتنفّس ما نستنشق. لا أحد يساعدنا على تجاوز هموم الدّنيا. وحلم الكلورادو يتضاءل يا وَلْد النّاس. زُرت بلداناً كثيرة في إطار عروض فرقتنا وتأكّدت في السنوات الأخيرة، أنَّ شيئاً ما في العالم يسير باعوجاج.

أَنَاطُولْيَا لم تكن تتدخّل في الحديث. كنت أشعر أنَّ في رأس مَريم الكثير من الأشواق المكسورة والكثير من الأحزان الّتي لا تخرج إلا بصعوبة كبيرة، وأنوثة مسروقة، داخل مدينة لا تصرخ إلا لتأتي بطوفانات السلالات المنقرضة. شفاههم مهدّلة، تسيل لعاباً على السلطة الّتي صارت على مرمى العين. مدينة غيّرت الكتاب والعلم بالصفرة، والشعر بالحكاية، والكتابة بالرّواية. والحروف المنسوخة على جلد الماعز بالنّار والموت والدّم. كلّ شيء تصدّع بقوّة. بقوّة فظيعة.

هذه هي المدينة الّتي سرقت قلب مَريم وذاكرتها.

كَبُرتْ فيها. تعلّمتْ فيها. كان هذا، قبل أن تنكفئ ذات مساء على فمها في البحر المنسيّ وأمام صالة الرّقص عندما غزتها البلدية بأوامرها. تدحرجت كثيراً بين القرية وسيدي بلعباس قبل أن تصل إلى هذا المكان. حكايتها أطول من هذه الذاكرة. عندما تستغرب مشهد التحوّل، تضع رأسها بين يديها ثمَّ تغرس نظرها في التربة الّتي تبدأ في الاحتراق مثل القشّة. في الحقيقة كانت هذه المدينة تُحبّ من القلب قبل أن ينقلب الزمن على ظهره متنكّراً لكلّ مشاهد القداسة. كانت، عندما يأتي المساء، ويستسلم الموج والبحر لشواطئها أو للميناء الواسعة والمختنقة، تسلب النّاس، يقف العشّاق على واجهة البحر، يتأمّلون السفن الّتي تذهب وتجيء بأعلامها

الملوّنة، يتبادلون القُبَل في حضرة البحر، والمارّة، ثمَّ يضعون اليد في اليد وينزلقون باتّجاه مطاعم الصيّادين الّذين، حينما يرون امرأة قادمة، تغزوهم زرقة ساحرة ويصبح البحر مثل النايلون، يلينون مثل الغيمة البنفسجيّة النادرة في هذه المدينة. يسألونك بودّ كبير. هاه آسيدي!! ماذا تريدون؟ كلّ شيء جديد!! الكروفيت (الجنبري)، الميرلان، الروجي، شيّان دومير... تمدّين أصبعك باتّجاه الكروفيت. يضحك، ويتمتم. بناتنا كُلْهُمْ يَعَشْقُو الكُروفيتْ. ثمَّ يغرف بقبضة يديه، ويضع الكلّ في القدر الجاهزة. عمّك علّمك تذوّق الكروفيت، قبل أن يصير واحداً من سكّان هذه المدينة. ذات مرّة أكلتِ كثيراً. وأردتِ أن تتقيّئي. صرختُ في وجهك: ويلك. في كرشك الذهب. بلعتِ ميزانيّتي. ممنوع التقيّؤ. كلّ شيء إلا الكروفيت! ضحكتِ طويلاً قبل أن تنسيْ نهائيّاً أنّكِ فكّرتِ في آلام بطنك. قلتِ ربّما كانت العادة الشهريّة المزعجة. يأخذنا عمّي موح الصيّاد الّذي أَلِفَنَا كثيراً. أَرْاوَحُو!! يأخذك من يديك، ونتزحلق في الفلوكا. ندخل عمق البحر. ما أعظم قوّته وهو ينكسر، عند حدود كسارة الموج على أطراف الميناء. تبدأ الشّمس في الانحدار. نتأمّل المدينة من بعيد وهي تنغمس بهدوء في كومة الضباب الحليبيّ. يضحك عمّي موح.

ـ من قال إنَّ البهجة ليست بيضاء؟ تقاتلنا عليها وجبناها.

ثمَّ يبدأ في إخراج حنينه الداخلي بدهشة الفوال الحزين. أنا كذلك عندي بنت. تمنّيت أن تكون طبيبة ولكنّها اختارت تَقْرَا[1] بَاشْ تُوَلّي محامية وإلا قاضية. في البداية زعفت[2] ومن بعد قلت مليح. القرايا تَنفع تنفع. نحتاجها محامية تدافع عن مساكين البحر والمنسيّين. مثلها مثل الطبيبة.

وعندما تنتهي الرّحلة الّتي كنّا نتمنّاها أن لا تنتهي، يودّعنا بعينيه. يا أولاد!! تهلاوْا في أرواحْكُمْ. الله يحفظكم من العين.

---

(1) تدرس.
(2) انزعجت.

وعندما نتذكّر الرّحلة، ونعود إليه لندفع باتّجاه كفّه، ببعض النقود، يهزّ رأسه، ويحكّ على رأس مَريم. في المرّة القادمة إن شاء الله. البحّار يدير[1] الخير وينساه، يجدُه قدّامه كي يظْلمْ البحر وتَغْلا أمْواجُهْ. رُوحوا الله يحفظكم. ما تنساوْش تْفكرْونا.

منذ ذلك الزمن أشياء كثيرة تغيّرت. حتّى وجوه النّاس. عمّي موح الصيّاد مات غرقاً في البحر. بعضهم يقول انتحر بسبب ابنته. كانت حلمه المدهش الّذي يفخر به أمام النّاس. تزوجت أحد رجال الأعمال، يقال إنّه تاجر أسلحة، وسافرت خارج البلد. المسمكة الّتي كان يسيّرها أغلقت تقريباً. يأتيها بعض النّاس. يسألون عن ثمن الأسماك ثمّ يغادرون المكان بدون أن يأكلوا أو يشتروا. قلّت وجوه العشّاق على واجهة البحر، صارت مليئة بالصدأ والحديد. في المساءات الأولى يأتي بعض السكارى والمهملين يبوّلون في الأماكن العامّة. يتقيّؤون، ثمّ ينكفئون داخل أنفسهم وداخل الكراتين الّتي يجرجونها وراءهم، بحثاً عن نوم مفقود داخل هذه المدينة. يسترقون السمع إلى السيّارات الّتي تذهب وتجيء. يعرفون جيّداً صوت محرّك سيّارة الشرطة. عندما يسمعونه، يقفزون فجأة، ويتظاهرون بتأمّل البحر. حتّى الشرطة مع الزمن تعوّدت عليهم ولم تعد تهتمّ كثيراً إلا بالمظاهرات والتجمّعات، حتّى هذه بدأت تهملها لِلاجداواها وكثرتها المزعجة. بعض السكارى التحى من أجل التنكّر داخل أفواج حرّاس النّوايا. وكلّما رأى المجموعات قادمة، يمسّد على لحيته ثمّ يبدأ في البسملة والحوقلة. لا يعيرونه أيّ انتباه، لأنّ عيونهم تكون وقتها مركّزة على الشّابة المنكفئة على حائط الواجهة، تتأمّل البحر، وتستنشق رذاذات الأمواج المتكسّرة أمام عينيها. يتأمّلون المشهد من بعيد، وعندما يأتي العشيق الّذي تنتظره، وقبل أن تضع يدها في يده، يقفزون أمامهما.

«الدّفتر العائلي، الله يحفظك!!».

(1) يفعل.

«ما عنديش!! ما عنديش!!»

يلعن بوه دفتر عائلي. تقول مَريم وهي تحكي ألمها. مزّقتُهُ عند عتبة البيت ورمَيْتُهُ في وجهه وهو يهدّدني بطلاق الثلاث قبل أن يتّهمني بتكسير الباب. أيّ دَفتر عائلي يا ولد النّاس، عندما يكون القلب ممتلئاً بالدّود الأسود! أضع يدي في النّار إذا ما كانش عمّي موح الصيّاد قد انتحر بسبب حبّه المطلق للحياة وسخائه العظيم. كان ممتلئاً بالتسامح والحكمة. آه يا عمّي موح!! وِينْ نُواحُكْ وِينْ!! الموجة اشتاقت إليك وأنت تعذّبها في البحر. إنّها تتعرّى عن آخرها. تندب غيابك الكبير. اشتقنا إلى أناشيدك المضمّخة برذاذ المساء.

يا موجة المسكين،
القلب رَاهْ حزيْن،
في الشدّةْ واللّيْنْ،
دَاخْلَكْ اليَوْمْ
يَا موجةْ العاشقْ
يا لَبْحَرْ الغِامَقْ
راني فيك غِارقْ
كِيَ طيورْ الحوْمْ...
يا موجة لَهبِيلْ
العاشقْ رَاهْ قْتِيلْ
خَلِّيه يَشْهَقْ فَ حْضَانَكْ...

أَيْنَ حنينُك يا عمّي موح؟ أين هدهدات زرقتك؟! أين موج بحرك؟ كلُّ شيءٍ، عندما استيقظت في ذلك الفجر البعيد، وجدته قد صار كآبة ورماداً. ماذا بقي الآن من زوارقك وبحرك؟؟ والألوان الّتي تملأ الأميراليّة والبنايات التركيّة العتيقة الّتي كانت تزحف بكبرياء باتّجاه البحر؟ ماذا بقي؟ يرحم والديك قُلْ لي! وجوه النّاس صارت مثل الهياكل الحديديّة والكتل الصخريّة المرميّة هنا وهنالك. قريباً من

الميناء. عمّي مُوحْ في أخريات أيّامه، كان أنفه حادّاً، يتحسّس كلّ هذه الرّوائح من بعيد. من حين لآخر ينظر إلى السماء باكتئاب. إيه يا لُولادْ! الضْبَابْ كْثَرْ ولَبْحَرْ غَيَّمْ والرايْس ضاعْ مَعَ السفيَنة! قُلْنَا رَاحُوْ بني كَلْبُونْ، جَاتْنَا مَافِيَا جْدِيدِة!! تصوّروا!! في ذلك الزّمن الّذي صار بعيداً، كان الواحد فينا يأتي متعباً، يخرج من البحر، ينزلق عند الحماميصي. يأخذ بيرة وقليلاً من الحمّص، ثمّ يغرق في غيمة يركبها وحده. الأطفال يجدون ضالّتهم مع الصيّادين. يبيعون ويشترون. ثمّ نخرج نستنشق رائحة البحر قبل أن نغرق في العمل من جديد، وحمل الصناديق. حانوت الحماميصي غَلْقُوهْ. قالوا له. بِرْ تجارَة أخْرى. صَرَخ بأعْلى صوته. باشْ يا عباد الله! هذا شغلك. رفع ذراعه الموشوم منذ سجون «غويانا». كانوا أربعة. تأمّل كلّ الوجوه الّتي كانت بجانبه. هذه حرفتي منذ ثلاثين سنة! وعندما أخبرنا بالقصّة، قلنا له. خلّيهم يْجيوْا!! ونشف شْكُونْ يَاكُلْها! منذ ذلك اليوم لم نرهم، لكنّنا كنّا نشمّ رَائحتهم. وذات صباح اندلعت النيران في المحلّ وفي المخازن المجاورة. حاول الحماميصي أن يطفئ النّار، ولكنّه انطفأ معها وهو يصرخ. ثلاثون سنة!! اا يلعنكم ويلعن البابور اللّي جابْكُمْ.

اليوم كلّ شيء تبدّل. المَحلّ صار مخزناً للمواد البلاستيكيّة، يبيع ويشتري فيه تاجر ميزابي. يبيع بأثمان باهظة وبدون ابتسامة. الفرح خالٍ من قلوبهم وعيونهم، هؤلاء التجّار الميزابيون. يعرفون النقود ومختلف العملات، من خلال شنشنتها في أكفّهم، ومع ذلك يدقّقونها باللّمس. لا لون سوى لون العملة، ولا شكل سوى شكلها. حتّى الصيّادون الّذين تعوّدوا على المكان، صاروا يجدون راحة كبيرة على حافّة البحر. هناك يتمدّدون بنوع من الكسل والملل. يضعون برانيطهم على رؤوسهم. يدخّنون سجائرهم الفارغة الّتي تلتصق بين أصابعهم وشفاههم. من بني كلبون لحرّاس النّوايا!

وين رايْحَهْ يا البيضاء،

لِوْينْ رايْحَهْ؟!

وعندما تفاجئهم الشمس الحارقة، يلينون مثل البلاستيك. يتمدّدون أكثر. لا يسمعون الأصوات، ولا ينتبهون للغادي والرّائح، ولا لسيول السيّارات، والتاكسيات والباصات الّتي خلقت محطّة لها بجانب محل الحماميصي. ولا الأدخنة المتصاعدة ولا سيّارات البلدية وهي تجمع بعضاً من الزبالة المتراكمة على أطراف البحر، وتترك البعض الآخر، ولا لأصوات السفن وهي تغادر ممتلئة باتّجاهات مجهولة قبل أن تنكسر أحلامهم في أولى الموانئ الّتي تعاملهم كالماشية. بابور[1] فرانْسا بابور استراليا! بابور الكندا!! وبابور أفغانستان!... أيّ حلم يا ولد النّاس؟! أيّ وهن؟! ينكّسون رؤوسهم في جبال أفغانستان أو في الرّبع الخالي أو في مجازات أستراليا. يموتون مقابل وهم مدهش. يبيعون ويشترون على رؤوسهم. تعَلَّمْ آ الحفاف لحْسَانَهْ[2] في رُوسْ[3] ليتَامَى! شباب في عزّ عنفوانه، قُمعت الحياة في عينيه، فأدخلوه عالم الجنّة والجحيم في رمشة عين! مكاتب بيشاور (باكستان) فتحت لهم الأبواب داخل دروب الجنّة والرّخاء، ثمّ أغلقتها على مرتفعات أفغانستان. البائعون الّذين تساوموا على رؤوسهم، عادوا يتاجرون. الترابَاندو والزطلة ومدّ الأيدي باتّجاه السلطة. إحدى الأمّهات من اللّواتي سرقت تجارة بيشاور ابنها، رأت حلماً بَيَّتَها واقفة على رؤوس أصابعها. رأت ابنها في المنام، يأخذه أربعة أشخاص يرتدون عباءات بيضاء. أخذوه ورموه في البحر. رمضان دراع الفندول. ذكرت شهادته مجلّة الجهاد الأفغاني في عددها 75 وهي تصدر عن مكتب الخدمات بيشاور. خصّصت صفحة كاملة له ووصفته بشهيد بومرداس الأوّل. صرخة الأب كانت قويّة. ابني استشهد. لقد قبلت بهذا القدر المحتوم. فليبعدوا عن أبنائي الآخرين. أتساءل إذا كان في هذا البلد قانون؟؟ سلطة؟ المراكز الثقافيَّة تغلق، النّساء يُمسخن في الشّوارع لكونهنَّ نساء. البلديّة تسرق سلطة الدائرة والولاية

(1) الباخرة.
(2) الحلاقة.
(3) رؤوس.

تسرق سلطة البلديّة. دخل شعبان في رمضان! وحياتك هذه علامات الفتنة الكبرى. دافع عن نفسك أو تموت مثل الجرو.

أيّ فرح يولد يا ابني من عصر انقرض، يُعاد بعثه؟

خلّيني[1] يرحم والديك!! البؤس يملأ القلب، والرخص المعمّر يدفع إلى القيء. بنو كلبون قادوها للخراب، والقادمون الجدد يسحبونها بسرعة مذهلة تجاه الدّم والحزن والوحدة. تقولها مريم بيأس. ترفع رأسها، تتأمّل الأرمة الّتي كتب عليها «الحزب... الديمقراطي». بوف!! يتناهشون على الصغائر والبلاد تسير نحو حتفها. قل لهم ينزلون للبحر. وَيحْكِوْا شْوِيَ مع عمّي مُوحْ! ولكن عمّي موح مات، وترك المدينة للضّباع. المدينة الّتي شقّت قلبه منذ أكثر من ثلاثين سنة. كلّ شيء انتهى وكأنّه لم يكنْ في أيّ يوم من الأيّام.

عمّي مُوحْ ماتْ. اشتاق البحر إلى نواحه.

نواحك يا عمّي مَوحْ صار نادراً.

وأنْتِ! مَريَم يا نوّارة! زهرة عبّاد الشمس وشعاعات الفجر الخجول، المدينة تؤنّبك بصمتها.

مَريم يا نوّارة! ماذا بقي من عنفوان المدن المسروقة وشهاداتها الصادقة؟

أستعيد الآن تفاصيلك، كبرياءك، وحبّك..

طفلة عِشتِ..

وطفلة سرقتك المدينة في لحظة إغفاءة داخل حرف تتعشّقينه وتحاولين عبثاً كشف سرّه الوهّاج وداخل أغنية، أو رقصة بقيت في الحلق مثل شهقة المحتضر الأخيرة.

(1) اتركني.

III

فتنة البربريّة

عينان خضراوان، ووجه خمري...

مناوشة في كلّ شيء، ورائعة حتّى في الحماقات.

وحين سكنت الرّصاصة الطّائشة دماغها، تغيّرت فيها أشياء كثيرة، ونزل سواد يشبه الظّلام على عينيها. لم يكن الأمر مهمّاً لأنّها كانت مصرّة حتّى الموت على حقّها في الحياة. في الرقص. شيء من الطّفولة يحكم كلّ حركاتها.

ـ أريد أن أخرج كلّ ما في قلبي. الصحافة لم ترحمنا في فشل باليه «زواج الفيغارو»، بعضهم اتّهمنا بحزب فرنسا، والبعض الآخر جسّد فشلنا بموضوعيّة. لكن مع باليه «البربريّة» الأمر مختلف. قنبلة الموسم.

لم تكن ساحة مدرسة الفنون الجميلة كافية لاحتواء فرحتها. كان هذا قبل أكتوبر 1988، وقبل أن تستقرّ الرّصاصة في دماغها. تظلّ ساعات طويلة وهي تحاول أن تقنع بوجهة نظرها، لاسيّما عندما يتعلّق الأمر بالباليه، أو بالموسيقى الكلاسيكيّة.

عنيدة أنتِ يا مَريم. لا تريدين أن يناقشك أحد في يقينك. في حبّك. عندما تحبّين، تصلين إلى درجة الغواية والموت. ذات مرّة

سرقنا الحديث حول طائر النّار وبحيرة البجع، كُنّا بين سترافانسكي وتشايكوفسكي. قلتِ صَادَقُوا كورساكوف، وفي لحظة الغفلة سرقوا إبداعاته. لم يكن مهمّاً أن نختلف لأنّي لم أكن مفوّضاً من أحد. وخزتك لأراك في لحظة توحّشك.

– طيّب!! ما رأيك في برليوز، وفاغنر وموزارت! هؤلاء كذلك سرقوا منه.

كانت أَنَاطُولْيَا قد دخلت في النّقاش الّذي كان يدور بيننا بابتساماتها المعتادة الّتي توحي دائماً بألفة وحنان كبيرين.

– كلّهم رائِعِين.«Ils sont tous formidables».

– لا يكفي. علاقة كورساكوف بهم كبيرة. بل أخذ الكثير عنهم!!

تنظرين إليّ بدهشة. تُخوّرين عينيك الخضراوين الميّالتين نحو صفاء بربريّ. تغرقين عينيك في الحصى. تتأمّلين. تأتيك الأغاني والرقصات، والقطع الموسيقيّة المتوالية. تمسّد أَنَاطُولْيَا على رأسك. وتفكّ لحظة الصمت الّذي بدأ يملأ فراغات دماغك.

– هذا كلّه لا يهمّ. كورساكوف فنّان عظيم، والّذي أعرفه أكثر، هو أنّ مَريم من أجمل راقصات الباليه ليس في هذا البلد وحده. لو كانت في موسكو لدخلت بكلّ سهولة إلى فرقة تشايكوفسكي، أو البولشوي. أجمل ما فيها أنّها تحبّ فنّها بعنفوان. وهذا مهمّ.

وعندما غادرتنا مَريم، كرّرت عليّ أَنَاطُولْيَا كلامها المعتاد الّذي ألفته. شعرت بضخامة حماقتي، وفداحة تدخُّلاتي. مريم، بقدر ما هي صلبة كعود الزيتون، رخوة كغَيمتِي البنفسجيّة (كما كانت تقول لي دائماً). رقيقة ومحرجة كدمعة العاشق. لم أفهم إلا في تلك اللّحظات المتأخّرة، كلمات أَنَاطُولْيَا.

– هي طالبتك!! أنت تعرفها. مَريم لا تتكلّم إلاّ بأحاسيسها. أسوأ وأجمل ما فيها. تحبّ وتكره في لحظة واحدة. عندما تودّك. فأنت نموذجها، وعندما تكرهك فأنت القبح كلّه. تحتاج إلى زمن آخر،

وإلى تجربة أعمق. فهي تحبّ كورساكوف لأنّه أنجز شهرزاد، ولو أنجزها فاجنر لأحبّته.

لم أجبْ. شعرت بشيء ما في داخلي لم أعرف مصدره، لكن بسرعة أقنعت نفسي بأنّها طالبتي. مستمعتي الحرّة «mon auditrice Libre» وكفى. أرفض أن أكون نموذجاً، في مثل هذه الحالات، يتيأّس الإنسان ويتحوّل إلى أبٍ نصوح. كانت تراني شابّاً وسط مشايخ الجامعة المحنّطين بغلاف رخاميّ رماديّ.

– أوف يا لطيف. تخاف تقول للواحد فيهم صباح الخير.

ثمّ تأخذني من يدي. وتجرّني، إلى السّاحة الّتي تعوّدنا الحديث فيها.

كلُّ ذلك لم يكن مهمّاً.. في كلِّ النّقاشات، الحماقات والاستقامات. لكنَّ الّذي بقي يحرق ذاكرتي من تلك الأزمنة، عيناها اللّتان تدوران بعنف في محجريهما مخلّفتين حالة قصوى من الاكتئاب، كلّما أصيبت بخيبة أمل.

عندما قدَّمَتْ العرض الأوّل من باليه البربريّة، كانت السّماء قد دخلت دفعة واحدة إلى قلبي، وانحنت الأغصان الصغيرة، تقبّل الأتربة الجافّة وشقوق الأرض والألوان الصفراء وحنين الأشياء المبهمة الّتي تتثاءب بحياء في داخلنا.

كنت مشدوهاً لحركات جسدها المتناسقة، خصوصاً بعد خيبة تجربة «زواج الفيغارو» الّتي دفعت بأَنَاطُولْيَا إلى إعادة النّظر في كلِّ شيء، حتّى في ذاتها وفي موهبتها. قالت، لا. يجب أن يتعمّق هذا الإصرار من أجل تقديم شيء متميّز لهذا البلد. هناك أشياء عظيمة تحتاج إلى العين الّتي تراها واليد الّتي تلمسها. وفجأة لملمت كلّ ما عندها من وثائق وكتابات وأوهام ورحلت إلى بلاد القبائل. وفي لحظات خلوتها، صرخت بأعلى صوتها: Eurreka!! وجدتها!؟ وجدتها!! تعالي، قالت وهي تؤلّف بين سامفونية «إيقربوشن» وبين حياة «فاطمة آيت عمروش». منذ عرض البربريّة تغيّرت أشياء

كثيرة. قبل ذلك بقليل، جاءتني أَنَاطُولْيَا تركض. كان عرق التدريب ما يزال يملأ جبهتها وعنقها.

– رأيت!! بدأنا نكبر. أرجوك أن تحضر العرض. أريد أن أسمع رأيك، لأوّل مرّة أشعر بأنّي قدّمت شيئاً متميّزاً لهذا البلد. مَريم ستكون مدهشة.

قرأت شيئاً احتفظت به لنفسي في عيني أَنَاطُولْيَا وهي تمطّط الجملة الأخيرة. حتّى مريم نفسها لم تكن راضية في ذلك الزمن عن «زواج الفيغارو». قالت: جسدي كان ثقيلاً، والشخصية لم تكن قريبة من قلبي. كنّا نحتاج إلى شيء يتحوّل إلى دم وهواء داخل عروقنا حتّى نستطيع أن نبدع. غلب علينا بعض التسرّع والافتعال. لم يكن من الضّروري اختيار «موزارت» من أجل ضمان النّجاح!! أوف كلّ شيء كان Fiasco.

– البربريّة!! لا!! لا!! شيء آخر. فيها شيء من الوطن.. من لغته.. من همومه وأشواقه. يجب أن نغيّر نظرتنا للأشياء. أن نكون نحن أوّلاً!! عندما ننتهي من عروض البربريّة، سندخل في تدريب مغلق من أجل تحضير «شهرزاد» لرمسكي كورساكوف، الّذي لم يكن مخطئاً عندما قرأ ألمنا الشرقي في عيني هذه المرأة. أتمنّى أن أقدّم شهرزاد وليأتِ ربّ هذا الموت إذا شاء.

ورشة الباليه قويّة. تشتغل دائماً على عملين في الوقت نفسه. عندما كانت البربريّة في لحظاتها الأخيرة، كان التحضير لشهرزاد قد دخل مرحلته المعقّدة، على الأقلّ على الصعيد النّظري. لولا بؤس تلك الرّصاصة الطائشة... ومأساة الجمعة الحزينة.

أيّاماً قبل العرض. كانت في أقصى درجات الارتباك والخوف أو ربّما شيء آخر غير هذا! تعرف أنّ «البربريّة» مسؤوليّة. شيء آخر فيه حرارة الأحراش وذعر العذراء ليلة زفافها. لغة المنسيّين، حزن المنفيّين. آلام الّذين تأكّدوا أنّ للجوع رائحة. منذ أن نبّهتها أَنَاطُولْيَا إلى سيرة فاطمة آيت عمروش، وهي مأخوذة بها من شعرة

رأسها حتّى أخمص قدميها. مسكينة فاطمة! تقول مَريم... جابت بلاد القبائل عارية، حافية، في زواجها حَرافية وفي ولادتها دهشة. أشعر بقرابة كبيرة تجاهها. تغرّبت، أكلتها أجواء الصمت في البلاد البعيدة. ولم تكن لابروطاني La Bretagne قادرة على استيعاب دهشتها وموتها! كلّما تدرّبتُ على «البربريّة» شعرتُ بشيء ناقص في قلبي.

– تصوّر!! أَنَاطُولْيَا قطعت الجبال والمداشر من أجل تتبّع خطوات حياة فاطمة آيت عمروش. سألت الوديان والأوهاد عن أصدائها. المشايخ الذين يروون سيرتها وعنفوانها. ثمّ عادت إلى الصالة، وهي مليئة بها. في هذه المرأة شيء من الجنون بالموسيقى. كيف ولفت بين إيقربوشن وفاطمة؟! شيء غريب! ثمّ كيف عثرت على هذا الرّجل المدهش؟! قليلون هم الّذين يعرفون إيقربوشن ابن تنامنغوث الضّال الّذي تلقّفه الكونت الإنجليزي (روث Roth) وجاره في القصبة الرّسام المبشّر (روس Ross). لقد اختطفته الأكاديميّة الملكيّة للموسيقى في بريطانيا، ثمّ شوارع فينّا وكونسرفطواراتها. شيء ما في العمق يبدأ في التآكل، كلّما تدرّبت على باليه البربريّة أشعر بالوجع المقلق. البربريّة في دمي. أعرف ما معنى أن لا تعرف أباك! أجد نفسي فيها. في حاضرها، وماضيها، في منفاها.

عندما رفع ستار العرض، كنت من الأوائل، كانت مَريم بعيدة عن الأنظار هي وأَنَاطُولْيَا. ترفض أن تظهر في الكواليس قبل العرض. صادف العرض مهرجان ربيع الموسيقى الوطنيّة. كانت مدهشة تحت شلالات الأضواء الملوّنة. كانت الوديان القبائليّة تنشقّ داخل المنصّة. أدخنة ملوّنة تشبه الضّباب الكثيف، تصعد من أرضيّة تكاد لا تُرى. أصوات العصافير، وخرير المياه، أشياء تأتي من بعيد. تخرج مَريم شيئاً فشيئاً من كتل الضّباب والضّياء. تظهر قدمها. ثمّ ساقها داخل جنّة من الألوان. ثمّ تمتدّ اليدان داخل قفّازين لم يستقرّا على لون. يخرج رأسها من كثافة الأدخنة الّتي بدأت

حمرتها تزداد فقاعة. تندفع بصدرها إلى الأمام أكثر. يرفرف الوشاح القبائلي على رأسها. تتأمّل النّاس. تنزعه من على رأسها. تعقده على خصرها الملوّن بألوان النّار. تزداد عيناها امتلاء بدهشة الطّفولة ثمّ تلتفت إلى زقزقات العصافير وهي تتداخل مع نداءات موسيقيّة كانت تصعد من الأعماق. هي البداية، الّتي سحرتني وأدخلتني مرغماً أجواء الطّفولة المسروقة. كانت مَريم دافئة مثل اللّحظة المدهشة الّتي تسكنها. استمرّ العرض أكثر من ساعتين. كلّ شيء كان يتحوّل بين حركاتها إلى قصيدة. فستان اللّيناج الأسود ضيّع ألوانه الأصليّة. لباسها المفضّل بشكل دائم. تريد الأشياء الّتي تلتصق على جسدها في الرّقص، والألبسة الفضفاضة في حياتها اليوميّة، والتي تمنح جسدها حرّيّته وامتشاقه..

هاه! أيّها الرّجل الصغير؟! لقد نسيتَ نفسك. تفتح الآن فمَكَ عن آخره. تعيدك الدّهشة إلى الطّفولة. مشدوهاً كنتَ أمام رقصات نساء القرية. تركب حصانك الخشبي. قصبتك الهوائيّة. عوْدْ بّالخضر. وعند الحاجة تحوّلها إلى عصا للرقص. تقفز على الأرض. تضرب بها التربة المتصاعدة. سَبَّسْ يا ولد الحرام. عرَّش!!؟ يتعالى الغبار تحت قدميك. هه!! كَبُرتْ معك الرّقصات في القلب، وشاخت في الذاكرة الوجوه الّتي تتعشّقها وتمنح أجسادها قرابين للرقصة الأخيرة. العينان مليئتان بغبش النّوم. تبحث عن مكان للرؤية. تجلس على الحصير، مأخوذاً بسحر الراقصة الّتي لا تتعب، بانثناءات جسدها وانكساراته . الحصان يرتفع. عَوْدْ بّالخضر يُجَنّ، وأنت تبحث عمّن يمدّ لك يده، يدعوك إلى احتفالات الرقصة الأخيرة، المصحوبة برعشة الموت. وعندما يفاجئك الفجر، تعود إلى بيتك البعيد. وأنت تتذكّر كلمات الرّجال الكبار. آوَالْديَها!! جنّية!! الموت على صدرها نعمة.. ضوْ ما فيك ما تقبضْ فيه. عينيَها زويجة[1] تضرب ما تخطا[2]...

(1) بندقية.
(2) لا تُخطئ.

لم أستيقظ إلا عندما بدأ التصفيق يزداد حدّة. شيء ما في داخلي كان يحرجني ويجرحني. كنت ممتلئاً بالذهول ومأخوذاً بفتنة جسد مَريم. الّذي لا يموت. كانت الأضواء تنسحب إلى الخلف، وهي تزداد عظمة وشموخاً. عندما تتحوّل الرّقصة إلى فتنة والجمال إلى لغة مأخوذة بحروفها، يغيب الجسد مرّة أخرى داخل شلالات الأضواء ويندثر داخل غيمات لا لون لها. ويأتي سؤالُكِ بكلّ إحراجاته وأشواقه: هل تراني؟! لقد صرتُ شفّافة مثل غيمتك البنفسجيّة. إنّي أراك في الله ولا أراك. ينفتح الجسد على نفسه، ثمّ ينفتح على أبواب الجنّة والقيامة.

كان التصفيق قد تحوّل إلى عاصفة. قمت من مكاني، وفي يدي باقة البنفسج الصغيرة الّتي احتفظت بها طوال فترة العرض بين يدي. شيء ما في داخلي كان يدفعني إلى أخذك من خصرك والدوران بك حتّى الذوبان داخل الغيمة البنفسجيّة الّتي رأيتها فوق رأسك عندما نزعتِ الوشاح القبائلي، تحومين مثل عصفور الجنّة. عندما احتضنتك، تأمّلتِ قليلاً وجهي في محاولة يائسة لقراءة الملامح المخفيّة. ثمّ دفنت رأسك باستسلام في صدري. شعرتُ بأنفاسك. عرقك. رائحة جسدك. دمعتك الدافئة. نظرتِ إليّ من جديد. رقصتْ في بؤبؤيْك كلّ ألوان النّار. تمتمتِ بصعوبة:

ـ شكراً يا أستاذ. شكراً! شكراً!

قلتُ لك بنوع من الرعشة أبردت قلبي.

ـ جئتُ من أجلك يا مَريم. كنتِ مدهشة.

ـ شكراً لك.

قالتها وهي تحاول أن تلملم أنفاسها. شيء ما في صدرها كان ما يزال يتحرَّك بقوّة. حرارة جسدها تصل إلى وجهي. قبّلتني على خدّي للمرّة الأخيرة قبل أن أنزل من المنصّة. شيء ما كان يجرحني في داخلي. شيء مبهم ورائع. لم تكن أَنَاطُولْيَا مخطئة أبداً

في مَريم. فضّلتُ أن أكون وحيداً. شيء ما فيّ لا تروّضه إلا الوحدة. غادرت صالة الأوبرا (المسرح الوطني) القديمة كما كانت تلحّ مَريم دائماً على تسميتها. كان المطر الربيعي قد بدأ يتساقط. الشتاء هذه السنة تأخّر كثيراً. كان الهواء بارداً، لم أشعر به إلا وأنا أحاول أن أعبر شارع عبّان رمضان الطّويل.

مسطولاً كنتُ، حتّى القلب.

أيمكن أن يكون المرء مدهشاً إلى هذه الدرجة؟ وجميلاً بكلّ هذا العمق!

أيعقل أن تمتلك عيون بشرية كلّ هذه الروعة الغجريّة؟!

شيء ما من الألوهيّة والصوفيّة في حركاتها ورقصاتها. شيء من النّور، يصعب لمسه، يملأ القلب والذاكرة والجوارح. شيء من العبادة في جسدها. طعم عود النّوار والشهيّة والنعناع والدهشة الّتي لا ذوق لها. عندما دخلتُ إلى معبر الأقواس، شعرتُ بالمطر يتوقّف فجأة، لم يُرِخْني الجوّ. عدت من جديد إلى الشّارع المكشوف، والتلذّذ بالمطر الّذي بدأ يلمس كلّ الأشياء الجميلة في داخلي.

لم أنتبه إلى نوعيّة السيّارة، ولكنّي سمعت تكسرّ العجلات، وهي تتوقّف عند رجلي. أحسستُ أنّها مَريم من صوتها المكابر دائماً.

- اركبْ!! البرد والمطر.

تأكّدت أكثر من سيّارتها، 205، الفضيّة اللّون. اشترتها من ابنة خالتها. Tu as fait une bonne affaire!! كانت فرصة جميلة. تقول، لولاها لانتحرت. كنت بوهيميّاً، يتعشّق الموسيقى ، والمطر والألبسة الصوفيّة الخشنة، والكتابة في لحظات العنفوان، بدون السقوط في وهم التحوّل إلى أديب عظيم. رجل بسيط، يملك حساسيّة كبيرة تجاه الأشياء الّتي تنبض بالعنفوان والحياة. الشهرة أساساً ليست إلا إرضاء للأنا الصغيرة المملوءة بالمكبوتات.

- اركب!! المطر بارد.

- مَريم!! المطر شحيح في هذا البلد، وعندما يحدث فذلك حَدَثٌ مهمّ.

- اختر! يا تركب، يا أنزل أمشي معك.

- ... ...

- هذه الأمطار غزيرة، وليست أمطار العشّاق والرومانسيّين.

- مع ذلك!! الشّارع، والمطر، والباليه تعمّق الإحساس بالفداحة والجمال والوحدة.

- أريد رأيك في باليه البربريّة.

- الحديث يطول.

- يا سيدي خلّيه يطول. واش خاسرين. اركب.

لم يكن بإمكاني أن أرفض رغبتها بالرّغم من ولعي الشديد بالتوحّد والشّوارع واللّيل والأضواء الّتي يغيّبها الضّباب المسائي المدهش. نشوة المطر لا تضاهى في هذه المدينة الّتي بدأت تتحوّل إلى صحراء قاحلة.

كانت السيّارة مليئة بالدفء. حتّى صوت محرّكها غاب وسط إغفاءات موسيقى «شهرزاد» لرمسكي كورساكوف.

- كورساكوف... تعرف يا أستاذ أنّي مسحورة بهذه القطعة حتّى العمق. سندخل التدريب المغلق قريباً مع أَنَاطُولْيَا.

- الموسيقى وحدها، والكلمات، لا تموت يا مَريم.

- خلاص، بعد البربريّة، بدأ هذا الرّجل (كورساكوف) يملأني بقوّة. أنت مبتلّ.

- السكن قريب.

- أعرف.

- هاه!!...

ـ حكتْ لي عنك أَنَاطُولْيَا. تودّك كثيراً، وتثق في ذوقك. بوهيمي ذوقه صافٍ، تقولها دائماً.

ـ نعوت كبيرة! سأعرّفكِ على قَصْري! كأس قهوة سينعشك. أنت متعبة.

ـ أريد سماع رأيك في البربريّة. لقد تخلّصت من ثقل كبير، أتمنّى أن يكون ذلك قد تمّ بطريقة جيّدة.

في نهاية شارع محمّد الخامس، توقّفت 205 الفضيّة. فتحت الباب. نزلت معي. هي اللّحظة الّتي سأتذكّرها طويلاً قبل أن أغرق في ظلمة القبر وصمته. شيء ما شقّ قلبي وقلبها منذ تلك اللّحظات. أشياء تكسّرت واندثرت، وأخرى نبشت على الأطراف بقوّة. كلّ شيء تغيّر بطريقة وبسرعة مدهشة. قبل هذا الزمن كان بيننا ودٌّ كبير ووقار وهمي وأستاذيّة تخفي وراءها الكثير من أوهامها.أحاديثنا المتناحرة، كانت تنام في النهاية بين أصداء ساحة المعهد الواسعة. الصديقة الأولى لأَنَاطُولْيَا. عرفتها من خلالها. أتذكّر حتّى اللّحظة الأولى الّتي دخلت فيها إلى القاعة وهي تقدّم لي ورقة L'auditrice libre (المستمعة الحرّة). ثمّ تمتمت: هل تسمح لي؟ لم يكن هناك ما يمنعني من قبولها. الموهبة الجسديّة وحدها لم تكن كافية. تذكّرها أَنَاطُولْيَا دائماً بضرورة تعميق وجدانها الداخلي بالثّقافة. أنتِ لستِ إنساناً عادياً. في خزرتها شيء من الدهشة والسحر، الدهشة الّتي افتقدناها في هذه البلاد. كلّ الأشياء صارت عاديّة. عاديّة لدرجة التسطّح. وعندما تفاجأ بالوجوه النادرة، يترك الإنسان وجدانه ينساب داخل بحر بدون حدود وداخل موجات لا تعرف التكسّر مطلقاً.

قالت وهي في الصالون، تتفحّص اللّوحات الحائطيّة الكبيرة. تمعّنت في إحداها باهتمام كبير، بعد أن شمّت فيها رائحة البربريّة كما تقول. اللّون الأحمر يطغى عليها ويتمدّد مع الأصفر داخل

الحروف العربيّة الّتي انسحبت أشكالها ولم تبق إلا روحها الّتي تجد تناسقها وتجانسها كلّما ابتعدنا قليلاً عن اللّوحة.

ـ هاه. هذه لمحمّد خدّه. فنّان هذا الوطن البوهيمي. تشكيلاته أعرفها من بعيد. رائعة. فيها رائحة البربريّة. لباسها. فراشها. أغطيتها.

تدحرجت قليلاً باتّجاه الزّاوية. ثمّ التفتت نحوي وهي تحاول أن تكتم ابتسامتها الّتي انعكست على عينيها الخضراوين اللّتين تعمّقت ألوانهما تحت الضوء الخافت.

ـ «كَالا تقطف الفجر»! كَالا عارية. سلفادور دالي. المجنون العبقري. ألا تحرجك هذه اللّوحة أمام الأهل؟

ـ اللّي ما عجباتوش يحوّل وجهه!

رددت ضاحكاً من داخل المطبخ المتداخل مع جزء كبير من الصالون.

كانت قد انكفأت على «الستريو» تتمعّن الأسطوانات والأشرطة. ثمّ فجأة توقّفت قليلاً.

ـ «كارمن». رائعة. شيء فيها إشبيلي يعيش في دمي.

ـ يا مَريم. في عيون كلّ امرأة نادرة، شيء من كارمن.

ـ سحرها يستعاد بشكل دائم.

ثمّ رفعت عينيها باتّجاه السقف. لم تَرَ سوى البياض الّذي يملأ البيت.

ـ بيتك جميل.

ـ أيّ جمال؟ حجرة نوم متداخلة مع مطبخ صغير. لا يوجد إلا هذا الصالون. شكّلته بحسب ذوقي.

لا أملك يا مريم سوى هذا الجوّ الّذي خلقته بيدي. الآجر الأحمر

الممتلئ، الّذي يحيط بأسفل الحائط الدّاخلي، أنا الّذي بنيته لأعطي لهذا البيت شيئاً منّي. لا أستطيع العيش داخل أذواق تُفرض عليّ. في مدينة مكفّنة، تموت باكراً، يجد المرء نفسه في حاجة إلى مكان فيه قليل من الفرح والسعادة. أجد بعضاً من هذا داخل هذا المنفى الّذي اسمه البيت. الموسيقى ، الكتب، اللّوحات، وبعض التأمّلات في أعماق الأشياء الّتي لا تموت. في داخلنا كلّنا يا مَريم شيء من البربريّة. حرقة فاطمة آيت عمروش. طفولتها. من الأب الّذي لا تعرفه إلى حرقة القبيلة، إلى مطاردات العائلة، إلى الفقر، إلى المنفى، إلى الموت داخل الصمت المقلق. أحياناً يغمرني هذا السّؤال. هل هناك من يتذكّرنا عندما نموت؟! وعندما لا أجد جواباً أدخل في عبثيّتي المعتادة. ومن بعد؟ ليكن! لنعش، وبعدها لينذثر هذا الجسد داخل التربة.

ـ تصوّر. ثقل انزاح من على ظهري. لقد صرت الآن ممتلئة بـ «شهرزاد».

ـ قلت لك، في عمق كلّ واحد شيء من كارمن، أو ربّما شهرزاد.

كنّا قد دخلنا في عمق الحديث عن عرض «البربريّة»، تحت ضوء بدا لي يزداد خفوتاً، كلّما انغمسنا داخل النقاشات الواسعة، وفي أجواء موسيقى «شهرزاد» لرمسكي كورساكوف. رأيت في عينيها بريقاً مشعّاً. كنت أخشى أن تكون محرجة ومتعبة، لكن كنت كلّما لامست وجهها بعيني، شعرت بصفاء ما في داخلها، ينعشها ويقودها باتّجاه فرح ما، لا تعرف مصدره. تتحدّث بحماس مطلق. حماس الّذي لا يملك الحقيقة فقط، ولكن المولع بالدّفاع عنها.

عندما وصلت مقطوعة «شهرزاد» إلى جزئها الأخير، دارت عيناها الواسعتان صوب كلّ الأشياء الّتي تحيط بها. عضّت على شفتها السفلى ثمّ مدّت يدها باتّجاهي.

ـ هل تسمح لي أن أكون وقحة في هذه الحركة الأخيرة؟.

ـ لا شيء يقاوم أمام الرّقص. وقاحتك عظيمة.

ـ هذا الجزء من القطعة يذهلني. عندما ننتهي من شهرزاد، سنرقصه مع بعض وفي الصالة.

ـ لا أملك كلّ هذه الموهبة.

ـ أريد أن أرقص مع أستاذي. عندك مانع. واش تقول؟!

ـ موافق. من يرفض مَريم مجنون.

عندما اقتربت منّي، كان رأسها منحنياً. مددت يدي إلى خصرها، اقتربت أكثر. طاوعتْ حركتي بهدوء، ثمّ مدّت يدها اليمنى لكي تحوطني. التصقت أكثر. سمعت تمتمتها أو تخيّلتها. هكذا أريدك. دفنت رأسها في صدري. غزتني رائحة عطرها المفضّل. «Acrobate» أو «Poison». في لحظة ما تخيّلتها نامت. شعرت بدفء صدرها وكثرة جروحه. وببحر يأتي بكلّ زرقته ويدخل إلى القلب دفعة واحدة. شيء ما بدأ يتفتّت مثل الأتربة المحروقة داخل هذه الذّاكرة. فيها من كارمن. البربريّة. شهرزاد. عندما تريد، لا تصمت. وعندما تصمت، تريد أن يحترم صمتها. الّذي لا يعرفها يظنّها غجريّة، همجيّة، ولكنّها في لحظات عنفوانها، تتحوّل إلى خيط رقيق، أرقّ من الشعرة وأقطع من السيف.

لامست يديها، وجهها. شعرت برعشة ما تأتي دفعة واحدة، ثمّ سرعان ما تستقرّ في الأعماق.

عندما انتهت المقطوعة، مسحت على وجهها بارتباك كبير.

ـ أوف. هذه المقطوعة، تحتاج إلى جنون أكبر.

ـ أنتِ اليوم متعبة جداً. لنتركها ليوم آخر.

سحبتها بهدوء من يدها الّتي كانت ما تزال في يدي. ثمّ تهالكت على الصوفا. تمتمت أو تخيّلت أنّها فعلت ذلك. أريد أن أنهي كأسي. سحبت سيجارة. النَّفَس الأوّل كان طويلاً. شربت قهوتها.

لم تخسر فيها في النهاية سوى الحالة البائسة الّتي فرضت عليها. نزعت لها يدها من على خدّها.

ـ واش مَريم! بابورات الملح غرقت؟

ـ لا أعرف كيف أناديك. أستاذي أم باسمك؟؟

ـ خلّيك من حكاية أستاذ. سبع صنايَعْ والرّزق ضايَعْ!

نظرت إلى السّاعة فجأة. يوه!! الثالثة!!

ـ اللّيلة بابا ـ عمّي يطردني من البيت.

ـ اختاري!! عمّك وإلا أباك؟

قلتها ضاحكاً، ولم أكن أعلم أنَّ للكلمة وقعاً خاصّاً في قلبها.

ـ أوف تلك قصّة أخرى. خلّيها على الله.

سحبتْ حقيبتها اليدويّة. رشفت رشفتها الأخيرة. نظرت إلى لوحة خدّه للمرّة الأخيرة. قبّلتها بحزن ولم تستطع لجم الدّمعة الهاربة من عينيها. ثمَّ نظرت إليّ بعينين غجريّتين، مائلتين.

ـ تصبح على خير.

خرجتُ معها عند الباب البرّاني. كانت الأمطار غزيرة جدّاً، تتكوّر مثل حبّات البلّور على زجاج السيّارة (205) الأمامي. ثمَّ لوّحت بيدها اليسرى كعادتها.

ـ شي[1] نهار من النّهارات...

سعيدة كانت حتّى القلب، لكنَّ شيئاً ما كان يعذّبها ويعذّبني. لم أتساءل كثيراً، ولكن عندما دخلتُ إلى البيت، كان صوت سيّارتها المتفرّد يتسلّق شارع محمّد الخامس بصعوبة كبيرة. لا أعلم إذا كان ذلك يحدث حقيقة أم أنَّه كان يجري في رأسي فقط.

(1) ذات يوم.

أعدت «شهرزاد» من الأوّل ثمَّ ذهبت لأنكفئ على الفراش وأتمدّد قليلاً في مواجهة صورة راقصة الباليه كاتيا ماكسيموفا الّتي كانت تملأ ثلث حائط حجرة النّوم. لا أعلم إذا حلمت أم لا، لكن هذه المرأة كانت منذ تلك اللّحظة الحادّة قد ملأت جزءاً كبيراً من هذا الخواء الواسع وأعطت للأناشيد معاني جديدة. فتحت كرّاستي الاعتياديّة وقلت: مثل هذه الحالات يجب أن تسجّل. وبدأت أفكّر في الكتابة عن البربريّة كعرض، أو كحالة وجدانيّة تؤلمني وتعذّبني، داخل هذا السحر الّذي يشدّني بعمق إلى مَريم.

لا خيار لنا في هذا الوطن سوى الكتابة.

تذكّرت كلمتها الأخيرة. «شي نهار من النهارات». الجملة الأولى في الكتابة مرهقة. الإحساس الدّائم بخطورة الفعل وعمقه واستحالته. كيف نتجاوز دهشة البياض في الورقة.. وكيف نلمس عذريّتها المخيفة..

«أوف تلك قصّة أخرى.. خلّها على الله!».

IV

حنين الطفولة

منظر المدينة من قاعة المحاضرات يبدو مدهشاً. تشعر كأنَّك تملك سحراً خاصّاً. رائحة البحر، ورذاذات الشتاء تملأ الأجواء. النوافذ مُغلقة والزجاج تملأه قطرات النَّدى الّتي كلّما كبرت، تبعثرت لتتعدّد من جديد.

عاجزون يا مريم عن فهم أشواقنا. نحتاج إلى قدر كبير من الحبّ لكي نتجرّأ على قول الحقيقة. لم أكن أعرف أنَّ ما حدث، سيحدث. لم أكن أعلم أنَّ رصاصة طائشة ستأكل بعضاً من الأحلام.

«يا ولد النّاس، أحتاج إلى وجودك المطلق لكي أسمعك الحقيقة».

تقول مَريم، بغصّة في قلبها. في الكثير من الأحيان، نخطئ في النّاس الّذين نحبّهم. طفلة. بنت تائهة في اتّساعات القرى والمدن المحروقة. أتذكّر مدننا، وذات الشّوارع والممرّات الواسعة، الّتي كانت تشتعل بالأنوار والفرح. سيدي بلعباس وشحال[1] فيها ناس، بأسواقها ونواديها ووجوه نسائها وعمّالها وفلاحيها. يقولون إنَّ الرّجال الرّائعين الّذين كتبوا مواثيق تحرير هذه البلاد، جاءوا من

(1) كَمْ.

هناك، ونبتوا على تربتها مثل أزاهير شقائق النّعمان وحملوا الأقلام عندما كان الظلام معمّماً وطرّزوا بالياقوت كآبات جهنّم، وخطّوا على صدورهم المواثيق الأولى للاشتراكيّة. نشؤوا في أدراج هذه المدينة مثل الكتب الممنوعة، قبل أن تغيّر هذه الأخيرة جلدها. يقول الّذين عرفوها، في السنوات المرّة، بأنّ عمّالها في السكك الحديديّة، كانوا أوّل من استشهد عند بوّاباتها الواسعة الّتي لم تكن محروسة. مدينة الزرع والقمح ومساحات الخضرة الواسعة. كانت بلاد القادمين على آليات النّار وجهنّم، ترضع من ثديي هذه المدينة. صارت اليوم الحلفاء، والأشواك تملأ تربتها الّتي بدأت تتصحّر وتتصخّر ـ حتّى البؤس والخوف يتحوّل إلى حنين، لحظة الخواء والصّمت.

يا ولد النّاس. الله يهديك. تقول مريم، بغصّة في حلقها. ماذا تصنع بامرأة يأكل الجنون حاضرها وغيابها. لا تعرف حتّى أباها. منهكة من كثرة الأسئلة الّتي تصطدم بالنّاس ثمّ تعود إلى قلبها مثلما خرجت. أنا اليوم ممتلئة بك. وأريدك أن تسمعني. فهل قلبك معي؟؟ لم أقل هذا حتّى لزوجي الّذي انتعلني مثل فردة حذاء مهملة منذ زمن بعيد.

هل يؤذيك كلامي؟ امرأة غير متّزنة. بهلولة. مهبولة. مخروطة. ماذا تريد؟! هذه هي بنت البلاد. قالتها وهي تتأمّل حبّات المطر الّتي كانت تتكسّر على زجاجات قاعة المحاضرات الواسعة المطلّة على البحر، وعلى جزء كبير من المدينة والميناء المختنق بالبضائع الفاسدة والآليات الّتي لا تتوقّف حركتها الأبديّة.

ماذا تريد أن تعرف؟! كلّ شيء مقلق. تقول مريم بحزن وبخفوت ظاهر على صوتها. أمّي. مسكينة مخلوقة وحيدة في وجدانها. تزوّجت مبكّراً من رجل لم تحبّه ولم يحبّها ولكنّها منذ اللّيلة الأولى أحسّت بقوّته وشجاعته وفتوّته وكبريائه. قال لها: يابنت النّاس أنا وأنت كِيفْ كيفْ. كان ابن عمّها. لم تتكلّم معه إلاّ قليلاً. وبعد شهر من زواجهما، قال لها البلاد تشتعل وعليّ أن أحمل

زادي وشوقي وأهاجر باتّجاه غابات الصنوبر والصفصاف العملاقة والبلّوط. كانت شابّة. لبوءة. تفّاحة بلديّة. رأت الكثير في قريتها. رأت الأجساد الّتي كانوا يسحلونها كلّ مساء في القريّة. رأت كيف فصلوا رأس أخيها عن جسده بقوّة وظلّ فمه محافظاً على شهقته الأخيرة. أبوها، كيف جرجروه ومزّقوه ودفنوه حيّاً. لم تقل شيئاً، لأنّها كانت تعرف كبرياء النّاس الّذي تحوّل إلى قدر من الأقدار في هذه القرية النّائية. قال لها، يجب أنّ أذهب. كانت تتمنّى أنّ تلتصق به. أنّ ترجوه بالعدول عن سفره. لكنّها لم تفعل. لم تدر إذا كان الأمر خوفاً أم شيئاً آخر يشبه القدر.

خرج ليلاً. من يومها لم يعد أبداً. عندما حاول أن يدخل القرية بعد شهرين، قيل له إنّ الاستقلال على الأبواب. فقتلته المنظّمة السرّيّة .O.A.S. هكذا سمعتُ. أشياء كثيرة أخرى قيلت فيما بعد، عندما كان النّاس يلمُّون أحزانهم. يوم سمعتْ بموته، لم تقل شيئاً. لبست السواد وغطّت رأسها على غير عادتها. لكنّها في الكانون (المطبخ) بكت كثيراً وهي تخبز. حين سألتها أمّ زوجها، قالت لها، يالالّة حليمة، دخان الخبز يعمي العينين. الكانون. والحطب والمناصب والطاجين. الدّخان يقتل. من يومها كلّما أرادت أن تخبز، انفتحت شهيّتها للدّموع. قالوا لها كلّ دمعة في ذيك الدّار[1] جمرة على قلب الشهيد. قالت. حتّى واحد ما راح وجاب الخبر. وبعد أيّام وهي تحضّر العجين للدّخول إلى الكانون، وكان قلبها قد ازداد ضيقاً، قالت لها لالّة[2] حليمة، أرواحي (تعالي). أحتاجك. اليوم يجينا خو زوجك. كوني امرأة ونُصّ. يسكن المدينة يا بنت النّاس. الله يفرج عليك وعليه. هو لم يتزوّج وأنت عمرك مازال في النّور. أمّي عاجزة ومستسلمة. كانت تريد أن تقول لها من الصعب عليّ أن أدخل سريراً ينام فيه أخَوَان، لكن القرية هكذا كانت. نائمة بعمق في طقوسها المعادية للعاطفة وللفرد. قرأت لالّة حلّومة كلّ شيء في

(1) القيامة.
(2) سيدتي.

عينيها. قالت لها، لا أنت الأولى ولا أنتِ الأخيرة!! امرأة ما عندك والي، وأنا وسيدك كبرنا. كلّ النّاس داروها. خضراء القبايليّة. عيشة بنت النّخلة كيف، كيف. وأنت ما كاين حتّى باس وإلا عيب.

«لكن يا لالّهْ، مات قبل أقلّ من شهر. دمه مازال ما برد!».

«الميت الله يرحمه، والحيّ الله يطول عمره. الموت ما يتخبّاش يا بنتي».

كان الحديث قد أغلق. عندما رآها، بدت له أجمل ممّا تصوّرها. تفّاحة المجانين الريفيّة. كان قلبه واسعاً، تقول أمّي ولكنّه ضاق مع الزمن. ما عندوش الزهر. هاجر بحثاً عن العمل إلى سيدي بلعباس، وهناك استقرّ نهائيّاً قبل أن تنهكه هذه الزيجة المقحمة. بعضهم يقول إنّه كان في الغابة، وبعضهم الآخر يقول إنَّ عمله التجاري كان واجهة. اختلى بأمّه، وظللت أتأمّل حركاته، تقول أمّي. يدي في فمي. كنت أتمنّى أن يرفض. أن يقول لا. خويَا أكبر من هذا الزّواج. لكنّه، عندما سَألَته، أحنى رأسه ثمَّ خزرني من رأسي حتّى قدميّ. لم تستطع لالّه حلّومة أن تخبّئ فرحتها وابتسامتها. ربتت على كتفيه بنوع من الانتصار.

«أنت ولد الحلال. دين خوك على ظهرك.»

ثمَّ سحبتني إلى الزاوية. تقول أمّي، عند كانون المطبخ. كانت الأدخنة تتصاعد. اقتربت منّي أكثر.

«تبكين؟».

«لا يَا لالّهْ!! دخّان الحطب يقتل ويعمي العينين».

«شوفي يا بنتي. تزوّجي وعفّكْ[1] من وجع الراس...».

«لكن يا لالّه حلّومة!».

«هذا مقدورك وزهرك. ادْعِي الله بالتّسخير».

(1) دعْكِ.

لكن وجع الرأس لم يمت. ماتت كلّ الأشياء الّتي كانت تملأ قلبي. لم يكن الأمر عسيراً تقول أمّي. كان العرس بارداً. زوجة شهيد وهجالة[1]. يا بنتي، أخذت حقّي من الدّنيا في تلك اللّيلة الأولى. هو نفسه لم يلبس برنوس العرس الأبيض. كنت تحت صهد الأغطية أعرق. أعرق. لم أعرف ما معنى الرّجولة إلا قليلاً. بالأساس، كنت أشعر بإثم كبير في أعماقي. في نفس السرير يا الله! لَحْسَنْ وأخوه؟! لم يغادرني وجه لَحْسَنْ لحظة واحدة.

ثمَّ أحنت أمّي رأسها وبدأت تخطّ خطوطاً عريضة وهي تحكي، خطوطاً وهميّة، على أرضيّة مغلقة. تبحث في التربة المحروقة عن الإجابات المستحيلة لهمٍّ يحزّ في الأعماق بلا هوادة. عندما حَاذَاني في الفراش، شعرت بصعوبة كبيرة في التنفّس. وجه لحسن. جسده الغائب كان يعذّبني. رأيت عينيه الحمراوين وهما تطلان من وراء الفراش الّذي كنت أنام فيه. من تحت السرير. من وراء البرجة[2]. من تحت الباب القديم، الّذي تشقّق بفعل الرّطوبة والسّوس، من وراء ظهري، وأنا عارية، يلكزني من حين لآخر، بلباسه العسكري الّذي لم أرَهُ فيه أبداً. سوى أنّي تخيّلته في الكثير من المرّات ورأيته في المنام. ليلة قبل أن يدخل عليّ أخوه العبّاسْ. جاءني في لباس عسكري وصرخ في وجهي. وحقّ دين محمّد لو كان مش مريم نايْمة في بطنك كنت قتلتك وانتحرت. من يومها أقسمت أن يكون اسمك مريم. الاسم لم يعجب عمّك العبّاس، ولكنّي أصررت. لم أسأله لماذا. كنت أشعر بذنب كبير تجاهه، يؤذيني، ويزحف ليوقد بداخلي النّار الفارسيّة. حين حكيت الرؤيا للالّه، ضحكت منّي ومسّدت على كتفي.

«يا بنتي الميّت يَغَارُ من الحيّ. كي يشوفك منوّرة يفرح».

لم أسألها. حاولت أن أنسى كلّ شيء سوى أنّك بدأتِ تتحرّكين في بطني. أهو وهمٌ أم حقيقة؟؟ لم أتساءل ولم أشغل بالي. تقول

(1) أرملة.
(2) الكوّة.

أمّي. في النهاية، أقنعت نفسي، أنَّ ما حدث معي لم يكن جديداً. نظرات الجارات وأسئلتهنّ، كانت تحرجني. شكون خير، لحسن وإلا خوه؟! لالّه مريم نوّارةً والزين مواتيها! العين مكحّلة والفم خاتم! أشعر بعيونهنّ تدينني في أقصى حميميتي. بعد أسابيع قليلة شعر بألم في أعماقه لا يعلم مصدره يعيش معه مثل الوباء. شيء يشبه الحنين المبهم الّذي يعذّبه. رضخت لطلباته وعدت معه إلى سيدي بلعباس، على أطراف المدينة القديمة. لم يكن تاجراً مهمّاً. كان عمله محزناً. يشتغل بوّاباً في البلديّة. يفتح ويغلق طوال اليوم. ثمَّ يتشمّس بقيّة اليوم. في المساء يغلق الأبواب للمرّة الأخيرة، ثمَّ يعود مرهقاً ومكتئباً. يتمتم مثل المحزون المبتئس. البلاد بدأت تخسر وجهها. أيّام الثورة، كنّا على الأقلّ نحلم، أمّا اليوم فقدنا حتّى إمكانيّة الحلم.

لكن شيئاً ما ظلَّ يملأ دماغي. يحرق خلاياه. إصراري لم يكن هيّناً تقول مريم.

«هذا أعرفه، لكن أنا مريم المهبولة، بنت مَنْ؟؟..».

«أنتِ ابنة الخرافة. كآبة من الضوء. شعاع من الحزن..».

كانت أسئلتي قاسية. تقول أمّي بالتفاتة مليئة نحو الفراغ. أنت صورة من لحسن وصورة السي لحسن من الصعب إخفاؤها يابنتي. سرقتِ منّه القامة والعينين وحركة اليدين. أخوه أقصر منه كثيراً. هذا ما أعطى الله. الله غالب. كان من الصعب عليّ تحسيسه بأنّي حامل من أخيه. حتّى خالتي فاطنة أنتاع «تريبان»، الولّادة الشعبيّة، تلمّست بطني وقالت، يا بنيّتي، الله يعيّشْ مزيودك[1] في خير عمّه. كلامها كان مهمّاً وكانت له دلالاته. كنت متأكّدة من وجودك في بطني. كانت أمنيتي منذ اللّيلة الأولى معه. تآلفت معك بقوّة. ألمسك يوميّاً. وعندما وُلدتِ بعد شهور من زواجي، لم يقل شيئاً. لم

(1) مولودك.

يعلّق كثيراً ولكنّه منذ ذلك اليوم صار يناديك النّاقصة أو المازوزيّة[1].

«واش داها النّاقصة؟!».

«أرْضَعْتِ المازوزيّة!!».

كان مقتنعاً بأنّك ولدت قبل الأوان ولم أكن أريد أن أخدش قلبه بشيء يُفترض أن يعرفه. منذ الشهر الأوّل انقطعت عادتي الشهريّة. وأكّدت لي ذلك خالتي فاطنة انتاع تريبان. الرّجال عندنا، عندما يتعلّق الأمر بهذه المسائل، يفضّلون سماع الكذب على حقيقةٍ هم يعرفونها. المرأة حياة الرّجل ومقتله. أن ينام في أحضانهنّ، فحولة أن تنام في فراش رجل آخر، ولو كان زوجها الأوّل كارثة لاينساها أبداً حتّى القبر. كان يرفض حتّى سماع الحديث عن السي لحسن. يقول كاذباً، إنَّ دم أخيه يعذّبه. لكن عينيه كانتا تقولان شيئاً آخر مُرّاً بمذاق الدفلى. عندما سمعت التأكيد من خالتي فاطنة، صعب عليّ أنفه العالي. ذات مساء، شعرت بوجهه يشبه قطعة حديد قديمة. تعالت الحرائق في داخله. كان يريد أن يحمّلني جفاف عشرتنا. زمّ فمه طويلاً مثل الحلزون العنيد ثمَّ قالها. ليكن!..

«كيفاش نبقى على المازوزيّة. لازم لنا ولدْ آخر».

«واش تحبْني ندير يا خويا».

«يا بنت النّاس. أنت زوجتي منذ سنوات كثيرة ولم تُنجبي سوى المازوزيّة».

لم أجبه في تلك اللّحظة، ولكنّي تذكّرت وجه لحسن المليء بالنّور والحزن. أضاف، بحرقة ملأت قلبه بقساوة:

«لازم لي أولاد. والطبّ ضعيف وعاجز. رحت عند الطّبيب وقال لي ما عندكْ شي».

«ربّما ضربك برد في حِجْرك».

(1) الحبوب الّتي تنبت في غير فصلها وتكون ناقصة الطّول.

«وعلاش ما تكُونْيشِ أنت اللّي ضَرَبَهْ البرد».

كان يجب أن أصدمه وأحزنه ليعرف أوهام حقيقته. أسودّ وجهه وبدأ يأكل أصابعه وأمعاءه. تحوّل إلى كلب ضُرب على رأسه. لم يستطع أن يصمت حتّى أنّه فكّر في أن يضربني. رفع يده إلى أعلى ثمّ لعن الشيطان الرّجيم، والوسواس الخنّاس. تراجع قليلاً، ثمّ ترك الكلمات تخرج من قلبه. أنا؟! رَاكِ غالطة! ولد امرأة ورجل؟ رجل فحل يطيّحْ حَيْط! ويَفعَرْ السماء ويجبّن الماء. لو كان عندي امرأة كاملة كنت ولّدتها خمسين مَرَّة. معك الله غالب. الأرض يابسة والتربة ناشفة.

«يا سيدي شُوفْ طبيبْ، واش راحْ تخْسَرْ؟..».

«واش يقول لي الطّبيب، ما يعرفنيش كمَا نَعْرَفْ نفسي».

«يا سيدي جَرّبْ!».

لم يكن خائفاً عليَّ، ولكنّه كان خائفاً على رجولته. في المرّة الأخيرة، عندما أخذني وفحصني الطّبيب، أحرجه وأخضعه لفحوص استمرّت قرابة الأسبوع. عندما عاد إلى البيت كان محزوناً حتّى القلب. منهكاً. يائساً. شيء ما سقط فيه بقوّة. لم يتكلّم. التفتُّ نحوه بحنوّ. شعرتُ بحقدٍ ما في عينيه اللّتين أواجههما للمرّة الأولى على هذا النحو.

«حتّى شي بَاسْ مَا صَار. رحمة ربي كايْنَة! علاش تعميها.»

«والمازوزيّة من وِينْ جَاتْ؟؟! قولي لي!!».

جمعت كلّ قواي وقلت في أعماقي، ومن بَعْد؟ هو يعرف كلّ شيء.

«المازوزيّة. النّاقصة. بنت أخوك».

لم يقل شيئاً على الإطلاق، ولكنّه أحمرّ مثل الخرقة وعضّ على شفته السفلى حتّى أدماها. ما عندي ما ندير يا ولد النّاس. لو يعود السي لحسن سأتحمّل وأقول له لا أعرف. سأنكره لأنّي ربطت حياتي

بك. ولكنّني لا أستطيع أن أكذب على بطني. مريم!! هي حقيقتي الوحيدة.

سالت دمعات سوداء من عينيه. الحائط الكبير الّذي كان يتّكئ عليه بدأ ينهار.كنت أشعر بفظاعة الأشياء الّتي في داخله، بقوّة شديدة. حتّى الدّمعات كانت تتشقّق مثل قطع الزّجاج المكسور. المازوزيّة! هي حقيقته هو كذلك، الّتي كان يعرفها، ولم يكن مستعدّاً لسماعها. هو ذا يسمعها اليوم بقدر كبير من المرارة والحزن. نهض من مكانه. كان في حاجة إلى من يربت على كتفيه ويقول له اجلس. هذه هي الدّنيا. ولكنّي لم أستطع فعل ذلك مطلقاً. لحظة من الكآبة وقوفاً. ثمّ جَلَسَ من تلقاء نفسه. كان مليئاً بالتردّد والخوف، وربّما من الكراهية لي. أنا الّتي تزوّجت أخاه وحملت منه. كلّ شيء يمشي بالعَوَج. يُشْعِرهُ بعجزه الكبير، هو الفحل القويّ الّذي لم يولّد حتّى امرأة هجّالة بلا وليّ[1]؟! يشعر بالكلمات وهي تتساقط على قلبه مثل الشهب النّاريّة. قضى ليلة بكاملها يبكي، حتّى سمعت ندبه ونحيبه. لم أحرّكه. كان ظهري في الفراش ملتصقاً بظهره. تركته يفرغ كلّ ما في قلبه من وحدة وحزن. ثمّ خرج في اللّيلة نفسها ولم يعد إلا بعد أسابيع عديدة. كان ملتحياً ومُكْتَئِباً وصامتاً. يصلّي كثيراً على غير عادته بعد أن نكس رأسه ولم يعد يتحدّث إلا قليلاً. آه يا بنتي الحنّانة!! تقول أمّي. هذه هي الحقيقة. وقد كبرتِ أفضّل أن تسمعيها منّي من أن تسمعيها من الشّارع المظلم.

تصوّر!! كلّ الّذين رَأوني في البلدة يقولون لي ولغيري.. سبحان الله!! مريم والسي لحسن فوله انقسمت على زوج (اثنين). كانوا يحرجونني، ولكنّني في العمْق كنت فخورة بأن أكون بنت السي لحسن. بنت هذا الجرح الكبير المفتوح على اثنين.

خَوَّرت مرْيم عينيها وهي تبحث عن خيط رفيع داخل حكاية أمّها، تتأمّل السّماوات الّتي تحوّلت إلى نقاط صغيرة في أفق ملوّن

(1) بلا رجل.

بدكنة تشبه السّواد الأكبر. فتحت نافذة قاعة المحاضرات الواسعة، شرّعتها عن آخرها. دخل هواء المدينة وأنداء البحر الّذي سرقت الغيوم منه زرقته، استنشقتْ بقوّة ثمَّ التفَتَتْ نحوي وهي تبحث عن كلماتها، كانت مثل عمّها، تبحث عن بحر فارغ تملأه بأشواقها وكلماتها.

ـ قلت لك خلّيها شي نهار من النّهارات.

هذا هو النّهار! فهو محزن والجوّ كئيب والأمطار تتأهّب للسقوط والرّياح بدأت تقوى وشجيرات المدينة اليتيمة تتدثّر بالحيطان القريبة.

ـ شيء ما ينتكس الآن داخل هذه المدينة.

شفَتْ[1]! شحّال[2] الدنيا صعبة؟ بنت من مواليد الاستقلال مباشرة، أبوها قُتل قبل أيّام من الاستقلال؟ اليد الحمراء.. O.A.S.. هي الّتي قتلته. لا نعرف حتّى قبره. أحياناً ينتابني إحساس غريب بأنَّه مايزال حيّاً حتّى الآن. يكون قد كبر وشاخ مثل الحطبة اليابسة. بعضهم يقول إنَّه مايزال حيّاً حتّى الآن أو على الأقلّ لم يمت بالصّورة الّتي قيل عنها. عندما عاد، وجد زوجته قد تزوّجت. وعندما كانت البلاد تحتفل بأعيادها، كان هو يتدلّى على شجرة الخرّوب الوحيدة على أطراف القرية. حتّى أمّي خبّأوا عنها الحكاية. وظلّت مقتنعة باستشهاده والأبوان مرّرا بقية حياتهما بوجل وخوف وعقدة ذنب عميقة. لم يحتفلوا مثل النّاس بعيد الاستقلال. لم يخرجوا إلى ساحة القرية الواسعة. سرّ ما ظلَّ في داخلهما، حملاه معهما حتّى الموت. أمّي صارت ترفض مثل هذه الحكايات وعمّي كان يعرف شيئاً لا يحسّ به إلا هو.

القصّة طويلة يا ولد النّاس. عليك أن تفتح أذنيك عن آخرهما.

---

(1) أرأيت!!
(2) كَمْ.

أشياء كثيرة تحدث صعب عليّ حملها وتحمّلها. أحياناً أقول. تقول مريم، يجب أن أترك هذا البيت. كلّ شيء يسير بشكل معوجّ، لكن صعبت عليّ أمّي. المسكينة، ستموت حزناً، مشجبها الّذي تعلّق عليه متاعبها اليوميّة. حياتها كلّ يوم تزداد تدهوراً. حتّى عمّي العبّاس طُرد من عمله في البلديّة بسبب خموله وتهوّره وكثرة تردّده على الصلاة حتّى في غير وقتها. بل طالب بإنشاء مسجد داخل البلدية وتكوين نقابة إسلاميّة. مسكين مثل المنبّه العطلان. يُوَكّل ليرنّ في الوقت غير المناسب. صار ينظر إليّ بشكل فيه الكثير من الكراهية والاستفزاز، لكنّه هدأ ولم يعد يهدّد أمّي بالزّواج. في سيدي بلعباس، كانت أَنَاطُولْيَا الرّوسيّة جارتنا. كانت جديدة على البلاد. مصادفة الأعراس هي الّتي عرّفتني بها، طلبت منّي الانخراط في باليه سيدي بلعباس الّذي كانت قد أنشأته. أمّي كانت تريد إخراجي من كآبة البيت وعمّي يريد أن يتخلّص من حضوري ليتفرّغ لأمّي. كنت ثقيلة على عينيه. بالأساس لا أعني له شيئاً مهمّاً. كنت أقضي وقتاً في الدراسة ووقتاً آخر في الرياضة وفي تعلّم الباليه. قالت لي ذات مرّة: إذا تحسّنت أكثر سآخذك معي إلى موسكو. تخْرجني معها إلى الغابة. إلى حفلات أصدقائها القليلين في المدينة. الوقت الّذي أقضيه بين بيتها وصالة الباليه يتجاوز الوقت الّذي أقضيه في بيتنا. بل أصرّت وسجّلتني في مدرسة محاذية لبيتها. حتّى عندما أمرض، هي الّتي تأخذني في سيّارتها الخاصّة. تقول دائماً:

ـ عندما نريد أن نقوم بشيء، إمّا أن نتقنه أو نتركه لغيرنا.

الرقص صار دودة خضراء في رأسي. عندما تقاضت أمّي راتب الشهيد، قبل أن يوقف ثمَّ يُعاد لها من جديد، اشتريت مسجّلة وبعض الأشرطة الموسيقيّة الّتي نصحتني بها أَنَاطُولْيَا. عمّي انزعج قليلاً، ثمَّ أقنع نفسه بعدم جدوى ما يفعل. كانت «سيدي بلعباس» في ذلك الزمن الّذي صار بعيداً، مدهشة. بناسها الطيّبين، بعشّاقها، بمجانينها وعاقليها وشدّة ولعهم بالرّقص والغناء والأعراس والأفراح والمواسم. بشوارعها الواسعة وساحاتها. باريس

الصغيرة Petit Paris، هكذا كانوا يسمّونها. «ورّاد بومدين»[1] قالها، «بلعباس خير من بَاري في السكنى». حركة الشوارع الممتدّة باستقامة. البنات الرّائعات وهموم الأحياء الشعبية... اليوم. كلّ شيء تصدّأ. بدأ الحقد بحفر ملامح النّاس ويعرّش كأغصان الخرّوب. كثر الوسخ والجريمة. ضاقت الشّوارع والأبواب والنّوافذ والمجاري والنّفوس وعقول النّاس. العصافير الّتي كانت تملأ السّاحات العامّة، غادرت مواقعها ولم تترك إلا خيوط التليفونات والكهرباء مجرّدة من كلّ حياة. السجون اتّسعت والقضاء مثل السوق. القاتل والمقتول في ميزان واحد. في كفّة واحدة. والنّاس يتدافعون بقوّة لرؤية المشهد. الوجوه لم تعد مشرقة، واتّسخت اللّحى والأقدام الّتي تجرّ أوساخ الشّوارع الخلفيّة. نساؤنا يمشين الهوينى في أكفان ملوّنة بالألوان الداكنة. كلّ شيء خسر بريقه وحنينه وأشواقه.

وعندما أغلقت مدرسة سيدي بلعباس للفنون الجميلة، وصالة الرّقص، انتقلت أَنَاطُولْيَا إلى العاصمة بتدخّل من وزارة التعليم العالي ووزارة الثّقافة. أقسمت لأمّي أن تأخذني معها. وربّما تأخذنا جميعاً. وعندما استقرّت ساعدتنا في الحصول على بيت دفعت أقساطه سلفاً. رجل خالتي كان حاضراً، قال: عليّ تدبير السكن، وقالت أَنَاطُولْيَا عليّ الدّفع. وحدث كلّ شيء بسرعة مذهلة لم أعد أتذكّرها، بعد أن آوتنا في بيتها مدّة من الزمن. عمّي لم يكن متحمّساً في البداية، لكنّه عندما خرج من السجن بعد محاولات اقتحام المحكمة هو وجماعة الشيخ عثمان، كان حَزيناً ووحيداً. قال، قالوا لي شهّدْ وازدَمْ. لكنّي وجدت نفسي وحيداً وخرجوا هم بالوساطات. حلق لحيته المتدليّة ووضعها داخل غلاف رسالة وبعثها إلى أميره. قال له: منذ اليوم لم أعد معنيّاً بالجماعة. في لحظات اليأس، قلتُ لأمّي اتركيه وشأنه. هذا طريقه، فاختاري

(1) مغنّي جزائري من المدينة نفسها.

طريقك. قالت، يا بنتي أنا وعمّك كي[1] القطّ والفأر. طريقنا واحد وأهدافنا تختلف. لا أستطيع. من لحمي ودمي.

وحياتك، أشعر أحياناً أنَّ أَنَاطُولْيَا أعطتني من الحبّ، أكثر ممَّا أعطتني أمّي. أشياء كثيرة فتحتُ عيني فيها معها وبحضورها. طفلة ريفيّة، مغمضة العينين كنتُ. لستُ ابنة هذه المدينة ولكنّي أحببتها. باب الوادي[2] لم يكن عبورها مستحيلاً. والحصول فيها على سكن، أمر ممكن جدّاً. كنّا نَكْرِي، وعندما التحق بنا عمّي بعدما باع سكن سيدي بلعباس فضّلنا الشراء. شراء المفتاح. مازلنا نسكن باسم البِشْكْرِي، إذا ضربه المانو للرأس سَيرْمِينا في الشّارع رغم أنّنا ندفع فواتير الغاز والكهرباء والسكن، والماء. قال عمّي العودة إلى الأصْل فضيلة. شمّر عن ساعديه ببشاشة فائضة. عمل خضّاراً في أحياء باب الوادي الشعبيّة، لكنّه بعد مدّة قصيرة، عاد إلى وساوسه القديمة وإلى كآباته الّتي لا تطاق. وذات مرّة فاتح أمّي أمامي، اسمعي يا بنت السيّ الهبري، أنا تعبت. ما فلحت في شيء. الثورة نسيتنا. البلاد دفعتنا للهاوية. بلعباس وناسها بعتهم من أجلك. أنا حَابْ[3] وَلْدْ. رجل يملأ بيتي. أمّي لم تبلع لسانها، اسمع يا ذاك الرّجل الزين. بنتي تسوى الذهب. أخْلِ بارودك إذا حَبّيْت. دِرْ[4] واش تحبّ. ما عندي صلاح فيك!

وعندما عاد إلى الدروشة مرّة ثانية انتقاماً من نفسه ومن أمّي، صارحَتْهُ وكانت صارمة معه بقوّة. ولم تفعل الأشياء ثمَّ تندم عليها كما كان ذلك من قبل. بنتي راها كبيرة. والله وتجيب هاذوك عظام جهنّم ولحية الربّي، ما نبقى عندك نهار واحد. وكْلُوكْ الزّبل ومازلت تمشي في طريقهم. كانوا يأتونه كلّ مساء بقشّابياتهم البيْضاء ونعالات ميكا ثمَّ يركنون في إحدى زوايا البيت بعد أن يغلقوا كلّ

(1) مثل.
(2) حيّ شعبي بالجزائر العاصمة.
(3) أريد.
(4) افعل ما تريد.

الممرّات. عندما يدخلون، يسبقهم هو بطقوسه المعتادة. الطّريق. ديروا لهم الطّريق. يقصدني أنا وأمّي. لابدّ أن يكون لا شعور هؤلاء النّاس محشوّاً بعداوة لا تُطاق ضدّ المرأة. أحياناً أتساءل، إذا كان متعلّقاً بأمّي، أم براتبها الشهري عن الشهيد. وعندما أراد أن يملي شروطه. ماكانش المايدة؛ ماكانش المغارف؛ الفراشيط[1] التلفزيون... الصحابة كانوا يأكلون على الحصائر ويمشون حفاة عراة. مدّ يده على الأشرطة والمسجّلة، طارت أمّي عليه. لا. لا. لا. يا السي العبّاس. هَذوُ لمريم. ما عندك حتّى حقّ. عيني ولا مريم يا ولد النّاس. من يوم الاصطدام مع أمّي قلّل من الإتيان بأصدقائه ولكنّه صار يدخل إلى البيت متأخّراً في كلّ ليلة وعندما يعود لا يكلّم أحداً. يُخْرج المصحف وأهوال القيامة وعالم الملائكة والجنّ وبعض الكتب الصّفراء ثمّ ينزوي في مكان ما، في زاوية شبه وظلمة داخل الحجرة الجانبيّة ويبدأ في تمتمته المعتادة وبسملاته وحوقلاته. شيء ما كسر سلطته وأصبح يمنعه من الهيمنة. أمّي كانت مستعدّة لتقسيم البيت إلى اثنين. اسمع يا السي العبّاس. بيننا الملح والعشرة. إذا ضِقْتَ بنا، ها هي الدّار. خذ البيت الطرفاني. وأنا ومريم نأخذ البيت الآخر، والسلام، وعفّنا من وجع الرأس.

لكنّه بعد حملة الاعتقالات الّتي شلت رجالات الدّعوة في الحيّ، اختبأ فترة، ثمّ خرج مجهراً بصوته. ثمّ انكفأ على نفسه وبدأ يشتم ويشتم.

ـ الله يلعن والديهم. كلّهم حركة وبيّاعين. يقتلون الميت ويمشون في جنازته. قلنا الجبهة قالوا سَرَّاقين. قلت ما عليهش. وهاذو كيفاش نسمّيهم؟

بدأ يزهد في كلّ شيء. دخل إلى عمقه المجروح وانكفأ هناك بصمت كبير، يزداد كلّ يوم انتشاراً في هذا البيت الّذي صار مقلقاً. صار طريقه مثل الخطّ المستقيم، بين البيت ومسجد «التقوى».

(1) لا أريد طاولات ولا ملاعق ولا شوكات.

أحياناً تنتابني رغبة الخروج، وأصرخ في داخلي. كلّنا نصرخ في دواخلنا. ما الّذي يربط أمّي؟ زهرة البريّة النادرة كانت، بهذا البؤس المذلّ. وأحياناً أفبرك جواباً من تلقاء نفسي. ليكن!! لولاها، لجنّ المسكين، داخل مدينة ليست له ولكنّه وُرّط فيها. وَعَدُوه بتجارة كبيرة بعد الانتهاء من غلق خمّارات الحيّ وتحويلها إلى متاجر يؤمّها المؤمنون الصّالحون. ظلّوا هم يروحون ويأتون. شَقّوا طرقاً تجاريّة سرّيّة بين الرياض، وبيشاور وكابول. السّاعات والذّهب والفيديوهات والألبسة الدّاخليّة والفيلّات، وظلّ هو يتراجع ويزداد بؤساً ووحدةً وخوفاً والتفاتاً نحو أمّي من حين لآخر.

ـ حياتي كئيبة ولا أعرف ما الّذي يجعلكِ تتحمّلين هذا البؤس والشقاء.

ـ يا رجل الله يهديك. ما يحكّ جلدك سوى ظفرك.

قالتها وهي تحاول أن تدخل رأسها بين كتفيها، وتغلق زجاج النّافذة. أوف!! البرد قاسٍ والشتاء هذه السنة جاء مبكراً على غير عادته. ثمّ يداعبها، يتضاحكان عالياً ويدخل الجميع في إغفاءة اللّحظة السّعيدة الّتي لا تدوم طويلاً.

تمدّ مريم يدها إلى نافذة المدرّج المطلّ على المدينة. الأمطار بدأت تتساقط بكثافة أكثر. زرقة البحر ازدادت سواداً.

تمتصّ سيجارتها بشرهٍ ظاهر. تعود إلى مكانها. تمدّ يدها إلى وجهي.

تصوّر!! داخل هذا البؤس كلّه أشعر بالرأفة على نفسي. أشياء كثيرة تنقصني. تصوّر هذا الشيء المذهل الّذي يشبه حكاية خرافيّة أو قصّة! طفلة لا تعرف حقيقة أبيها. أب يموت قبل أيّام من الاستقلال. هل استشهد أم انتحر كمداً على سرقة زوجته. لو يعود سنقول له، لم نكن نعرف، قدر عجيب، هذا الّذي يحدث وسط هذا الفراغ الممتلئ الّذي اسمه المدينة. النّاس طيّبون. مساكين يظنّونني مهمّة جدّاً، أو مسؤولة في جهاز الدولة! عندما أمرّ على الحيّ في

باب الوادي، بعضهم ينظر إلى وجهي بفرح الاكتشاف. يتساءل لحظة مع نفسه. هاهاه هي!؟ رأيت هذا الوجه في مكان ما! هاه!! في التلفزيون عندما عرض باليه زواج الفيغارو الفاشل! ثمَّ البربريّة!! بعضهم يحيّيني بالبربريّة بنوع من الكبرياء وتعاطفاً معي:

«الله يعطيك الصحّة!!».

بعضهم الآخر بالفرنسيّة. «mes respects madame la berbère».

أردّ بابتسامة سعيدة.

ـ «الله يْعَيْشَك خويا».

ـ «Vous étiez formidable...».

يحاول أن يفتح نقاشاً. أنظر إلى الساعة. يفهم الإشارة. يحني رأسه.

«A la prochaine. Un de ces beaux jours.» (وإلى المرّة القادمة...).

وأنزلق داخل الزّقاق الضيّق ممتلئة بالكلمات الجميلة. ما تزال في البلاد أناس يتذوّقون. القيامة لم تقم بعد. لكن من حين لآخر، يحدث معي العكس تماماً. أسمع من الكلمات البذيئة ما ييئسني. هاهي عطّاية المسؤولين. قحبة التليفزيون ـ الزانية!! يومك قادم لاريب فيه.

أتأمّل الوجوه بكآبتها الكبيرة وبؤسها. أملأ فمي بالبصاق والكلمات الّتي تخرج من القلب. أتراجع عن رأيي وأواصل عبوري للشّارع متفادية المسجد والتجمّعات الكبيرة، ثمَّ أنزل إلى البيت. أطفال الجيران رايعين! أبوهم هاجر إلى أستراليا ولم يعد ولا أحد يعرف إذا كان حقيقة في أستراليا، أم مختبئاً في مدينة من المدن مع عشيقة من عشيقاته. ليست لنا عائلة كبيرة في هذه المدينة سوى خالتي الّتي يسمّونها الوهرانيّة وزوجها، أو عمّي البسكري وأولاده، الّذي باع لنا مفتاح السكن، تربطنا علاقة طيّبة مع

العائلة. ابنه يشتغل في البريد المركزي. أدخل التليفون إلى بيتنا بالرّغم من أنّنا لم نطلبه وساعدني على التسجيل للحصول على رخصة السياقة. خيْره سابق. حرفة زايدة خير من حرفة ناقصة. يوم تحصّلت على رخصة السياقة، أمّي ضحكت منّي طويلاً. حتّى انكفأت على ظهرها.

ـ الزلط والتفرعين[1].. سبع صَنايَعْ والرزق ضايَعْ!!..

ـ وشكون يعرف يا يمّا. الدّنيا سايْرَه، دايْرَه..

ـ بهذه الحالة؟!

ـ القنوط مش مليح.

لم أكن قد اشتريت بعد سيّارة بنت خالتي الوهرانيّة.. 205 الفضيّة! حمّوده ولد الجيران، ولد خالي البسكري، أعْجَبَتْني لغته البسيطة، كان يتحدّث كثيراً عن الظلم الاجتماعي، عن الإضرابات. عن ضرورة إيقاف المهزلة عند هذا الحدّ. كثرت زياراته إلى البيت. غمزتني أمّي، مرّة، ببعض الكلمات.

ـ واش رأيَكْ لو كان يخطبك حمّودَه؟

ـ هل يقبل براقصة يا أمّي؟ بلادنا صعبة والتخلّف أعْمى.

ـ قلتِ لي يفكّر مليح.

ـ كثير من الرّجال يفكِّرون مليح من بعيد، وعندما يتزوَّجون يعودون إلى الحقيقة الأولى.

في الحقيقة لم أكن أملك جواباً قطعيّاً. قلتُ، لِمَ لا؟؟ سأفكّر. كنت أتمنّى أن أخرج من هذا البؤس، بدون أن أفقد أمّي. أمّي هي كلّ شيء. ذات مساء كنت منهكة. عدت من صالة الباليه. وجدت عمّي البسكري وزوجته وخالتي الوهرانيّة، ونساء أخريات لا أعرفهنّ. خمنّت ما كان يدور في البيت.

---

(1) الفقر والأنف شامخ.

حيّيت الجميع ورحت أجلس بجانب أمّه الّتي ظلّت تلمسني طوال القعدة. تتحسّس جسدي حتّى بدون أن أنتبه. تتفحّصني بعمق شديد. الحكاية أعرفها جيّداً. المرأة لا تختلف عن البقرة أو النعجة!! الله غالب، هذه هي العقليّة. في الحمّام عندما عزمت كلّ العائلة، شعرت بها في لحظة من اللّحظات تتشهّاني وتتخيّل أنّي ابنها. في ذلك المساء عندما انكفأت على فمي، لم أتذكر أنّي رأيت أيّ حلم. كنت مسطّحة وذهني فارغ من هذا المحيط. كان قلبي ممتلئاً بالموسيقى والنّور والرقص والحركات ووجه أَنَاطُولْيَا الطّيب، وسماحتك الّتي لا تغادرني، وجسد إيكاترينا ماكسيموفا المصقول مثل التحفة اليونانيّة الرّخاميّة، ونجمة ما محروقة، تتلألأ بسوادها في ذاكرتي.

«وحياتك حتّى في هذا البلد توجد أشياء رائعة ولكنّها تزيّف يوميّاً. المساجد تتعدّد بعدد الأغنياء، الصالات الثقافيّة تقلّ وتنعدم شيئاً فشيئاً. أشعر أحياناً بحزن عميق، وأقول: الأوصياء الجدد عاجزون عن عشق هذه الحياة والسابقون تركوها للذئب».

خلّيك يا رجل، ماذا تريدني أن أقول!!. إنّها الحرب غير المعلنة. حرب صامتة قائمة ضدّ معالم المدينة. العفن صار قاعدة هذه البلاد.

مدّت يدها من جديد اتّجاه النّافذة بعد أن قامت بصعوبة. حاولت أن تغلقها. التفتت نحوي، ثمّ نحو المدينة والبحر، كانت الأنوار قد اشتعلت.

«شفت. نحبّ تأخذني هناك. في مطعم الميناء «Les sablettes». هذا المساء مدهش».

ثمّ سحبتني من يدي وغادرنا مدرج المعهد الكبير المطلّ على المدينة والبحر والأشواق، وبدأنا ننحدر باتّجاه زرقة البحر والمطعم الشرقيّ.

V

محنة الاغتصاب

يبدو لي أنَّ الزواج في هذه المدينة، هو إعلان مسبق عن حالة إفلاس باطنيّة، ومأساة جديدة تضاف إلى عمق الهزيمة الّتي تكبر معنا مثلما تكبر فضاءات عيوننا. كنت كغيري ـ تقول مريم ـ أريد أن أهرب من هذا البؤس الّذي يلاحقني. تصوّر معي هذه الحالة، رجل يدخل إلى البيت. ثمَّ ينزوي في حجرة نصف مضاءة. يضع نظّارته على وجهه ثمَّ يبدأ في تلاوة القرآن بشكل جنائزي. التليفزيون باعه. صندوق الفتنة كما كان يسمّيه. اشتريت جهازاً صغيراً وضعته في حجرتي. تأتي أمّي أحياناً. تجلس معي. الواحد صار يشتاق حتّى للتنفّس. تصوّر هذا المخلوق بكلِّ شروطه الحيويّة، يطلب الأكل والشرب، ثمَّ يتدشدش داخل فوقيّة بيضاء. يمطّط رجليه على الفراش. يشرب القهوة بعد أن يتلو تلاواته القرآنيّة المعتادة ثمَّ ينزل إلى المسجد حاملاً معه زاده من الكتب الصفراء. أهوال القيامة. أخبار الملوك والسلاطين. عالم الشياطين والجنّ. يأجوج ومأجوج. المرأة المسلمة. أوهام الماديّة الجدليّة... يبقى هناك حتّى اللّيل أحياناً، وفي أحيان أخرى لا يعود. عندما حدث زلزال العاصمة، كان أوّل من نزل يركض. لم أكن في البيت. كنت عند أَنَاطُولْيَا. طلب من أمّي أن تبقى في البيت، خوفاً من أن يراها الضّائعون في

الشّوارع. جارنا الّذي يسكن في الطّوابق العليا، أنزل معه ابنه، وليّ العهد كما كان يسمّيه وأبقى الأمّ وبناتها الخمس في البيت داخل موجة الذعر خوفاً من سقوط الأسقف والحيطان. عندما أطلّوا عليه من علوّ البناية الشّاهق. لوّح بيديه من تحت، بعيداً عن البناية:

- «ما تخافوش. هذه زلزلة فايْتَةْ».

تصوّر!! رجل يهرب وينصح النّاس بضرورة البقاء! وحريم يلتصق الموت في حلوقهنّ. أليس الزواج في هذا الوطن السعيد، شكلاً من أشكال إفلاس الذات؟ الأشياء تتعفّن، مولّدة إجابات غير مقنعة. الرّجل يركض وراء أنثاه في أغلب الأحيان ليس حبّاً، ولكن ليفرغ فيها جحيمه وكبته. بعد سنة يعطيها ظهره في الفراش. وتموت الحميميّة تحت همجيّة اللّحظة المقهورة. وبعد سنة أخرى يبدأ بحثه المحموم عن امرأة أخرى تكمل دينه وشهوته الّتي لاتكتمل إلا بالنّساء اللّواتي تصدر يوميّاً ضدّهنّ الفتاوى في المساجد والسّاحات العموميّة. هي الشيطان الرّجيم وهو ملاك الرّحمن الرّحيم. كلّ هذا كنت أعرفه. لم يكن جديداً عليّ، الّذي لم أعرفه، هو أنّي وجدت نفسي في لحظة من اللّحظات مجبرة على ارتكاب الحماقة الّتي لم أصنعها أنا. شيء ما كان يقودني نحو هذا الرّجل ليس عمله ولا علمه. فقد كان موظفاً بسيطاً في البريد بالرّغم من أنّه متحصّل على شهادة اللّيسانس في الحقوق. يشكو بشكل دائم سوء حظّه والبؤس وقلّة السّعد. ولا لحظة واحدة أجبرني على ترك العمل أو لمحّ إلى ذلك. وعندما تشجّع وقالها، قلتُ له أمام أمّي، لأنَّ عمّي كان يتلو قيامته في أحد مساجد المدينة:

- اسمع يا خويا، تعرفني مجنونة على الموسيقى والرّقص.
- بالعكس الباليه شيء عظيم وصافٍ. في سينما الأطلس والأوبرا كنتِ مدهشة.
- وتقاوم هدرة[1] النّاس القاسيّة.

(1) كلام النّاس.

- اللّي يدير على النّاس يبات بلا عشاء.
- مع ذلك. فكّر قليلاً. أعطني مهلة. أنا قلقة جدّاً هذه الأيّام.
- راحتك. كلّ الوقت معك للتفكير.

كان وقته واسعاً وقلبه فضفاضاً. أو هكذا بدا لي على الأقلّ. أمّي ألحّت عليّ في حجرتي. يا بنتي، حياتنا صعبة. أنت قلبك حارّ، ما تحبّيش الذلّ. الرّجل رجل. عمّك العبّاس صار مقلقاً وعقله يزداد تدهوراً. نزع كلّ شيء من حجرته. اللّوحات الّتي على الحائط. السدَّاريات. اشترى حصيراً من أحد الباعة الجوّالين. حيطان الصالون صارت مثل الهيكل الميّت. وعندما حاولت أن أنزع عشّ العنكبوت الّذي ملأ الزوايا قال لي، تقول أمّي، هذه مخلوقات الله. لها حقّها في الحياة مثلما لنا هذه الحقّ. وضعت يدي على يده وقلت له، الله يهديك يا رجل. احمرّ وجهه من المفاجأة. يدي على يده؟ القيامة! كلّ شيء مرّ بسرعة.

تصوّر حتّى هذا الزواج، لم يجد وقته ليتنفّس هواءً بعيداً عن كآبة الحاضر. تقول مريم. هو بدوره مرَّ بسرعة مذهلة. كنت حزينة وأشعر بالغثيان والقلق، عندما اقترب منّي ليلة الزّفاف. شعرت برائحة كريهة. قمت من مكاني. توجّعت بقوّة وقاومت بعناد. قلت له وكان قد حضّر نفسه للحظة الاغتصاب:

- أرجوك ليس الآن. لا أستطيع.
- ما تخافيش. عندنا وقتنا.

ولكن وقته طال كثيراً. وكلّ مرّة تُدقّ الأبواب على رأسه. وعندما أخفق، سحب سكيناً ووضعه على الطاولة وهدّدني إذا لم أنصع لأمره، سيقطع أصبعه. وعندما واصلت تعنّتي جلس على ركبتيه على طريقة الساموراي، ثمَّ فتح أصبعه بهدوء عجيب وبدون ألم. شعرت أنَّ في عينيه رغبة كبيرة للقتل. سال الدّم بقوّة. ثمَّ مسحه بقطعة بيضاء من الكتّان الخاصّة بالزفّة. فتح الباب. رمى الخرقة

في وجه الجموع المكتظّة عند الباب. تخاطفوها. لم أسمع إلا صوت الأقدام وهي تضرب الأرض بقوّة في رقصة المجاذيب، والزغاريد تتعالى بكلّ عنفوان. آه لو يعلمون الخديعة! حتماً سيعرفون. هناك نساء يعرفن كلّ شيء من خلال لون الدّم. من حاسّة الشمّ، من لمس البقعة الحمراء. طزّ فيهم. أَغْلَقَ الباب من جديد ثمّ التفت إليّ:

– ما يهمشّ، هكذا يعفّونا. انتهينا من زعيقهم.

– لكنّك أَذّيت نفسك مجّاناً.

– من أجلك!

وبعد لحظات محسوسة، توقّفت الزغاريد والرّقص وكل شيء. شعر بمغصٍ في بطنه. شعرت بشيء ما يشبه الخيبة يستقرّ في بؤبؤ عينيه. كانَ منكسراً.

– أولاد الحرام فاقوا (اكتشفوا الخديعة).

– خايف منهم؟

– والله لا أدري!! معضلة!

– لهذه الدرجة؟!

– ... ...

صمت أو ابتلع كلامه الّذي كان يسدّ حلقه كالغصّة.

بعد الحادثة الشنيعة الّتي سرقت منّي بكارتي بقوّة حيوانيّة طاغية، عرفت أنَّ الجارات الخبيرات، عرفن بأنَّ الدّم، ليس دم الزّفاف والبكارة، ولكنّه دم أصبع رجل أخفق في ثَقْبِ زوجته. تذكّرت كلام فقيه قريتنا وهو يصرخ في وجهي وفي قفاي. روحي. الله يلقّيها لك. روحي راح يجي اللّي يثقبك كي الشكارة. الله لا يردّك.

ألحّ عليَّ حمّودة مرّة أخرى ولكن بفشل. شيء ما منعني من كلّ شيء.

انكفأ على وجهه ونام وهو يخَبّئ عاصفة هوجاء في عمق عينيه.

ونمت أنا غير مقتنعة بأنّي صرت حقيقة زوجة لرجل بهذه السرعة المذهلة. حاولت في اللّيل أن أقنع نفسي ولكن عبثاً. قلت في نفسي، الكلمة ما تزال في يدي. لم أصبح بعد زوجته.

وظلّ طوال اللّيالي المتعاقبة يحلم ويستحضرني وينتهي إلى الحمّام لممارسة عادته السرّيّة. ندمت على كلّ شيء، لأنّي صرت أكرهه. وحتّى عندما أعذره يزداد كرهي له. ليس لديّ ما أعطيه له على الإطلاق. حتّى أمّه وأبوه، كلّ صباح ينظران إلى تقاطيع وجهي، ثمّ ينفصلان. هو ينزل إلى محلّه التجاري وهي تختبئ في المطبخ وأنا أنزل إلى معهد الفنون الجميلة. في الحقيقة عندما أصل إلى الباب الخارجي أتنفّس بعمق هواء المدينة. حتّى ولو كان مؤكسداً. فهو أفضل من البيت الّذي يتحوّل، حين تعمّه موجة الصمت، إلى قبر كبير واسع. جنازة يوميّة، لست أدري، إذا كنت حقيقة مسؤولة عنها أم أنَّ هناك مسؤوليّة ما لهذا الفراغ المتعدّد والقاتل. أحاول جاهدة تجاوز هذه المعضلة. أمضي معظم وقتي بالدروس. أشرد قليلاً، ثمّ أنزلق إلى صالة الرّقص عند أَنَاطولْيَا، أنزع ثيابي بتثاقل كبير، أحاول أن أتجاوز حزني، لكن عينيّ تفضحانني. تقترب أَنَاطُولْيَا منّي، يبدو أنَّ هذا اليوم ليس لك.

vous n'etes pas dans votre assiette. Allez, vous finissez par oublier.

بمجرّد ما تبدأ المقطوعة، أبدأ في الانحدار في أعماق الكلمات والأصوات والأنغام، ثمّ أغيب لأجد نفسي داخل غابة واسعة في مواجهة الوحش على نعومة تشايكوفسكي. حتّى في لحظات الارتياح أتمنّى أن لا أتوقّف..

أرى أمّي وهي تواجه معي بعضاً من الحزن. الرّجل رجل يا بنتي. أنتِ زوجته وحقّه عليك كبير. حتّى الدّمعات الّتي توقّفت عند المحجرين كانت حارقة احتفظت بها لأيّام أخرى. لم أملك أعصابي. يا يمّا الله غالب!! الفراش الّذي يجمعني به، امتلأ بالمسامير. سأفكّر، وإذا لم أستطع سأتركه والسّلام. لم تقل شيئاً ولكن الدّم هرب من على وجهها. ثمّ غيّرت الموضوع. سألتها عن عمّي.. قالت.

هو، هو، لم يتغيّر. حجرتك ما تزال مغلقة، لن أسمح لأيّ واحد بمداهمتها أو لمسها. هو كذلك لا يهتّم إلا بالكتب والمسجد. الحضرات والتجمّعات لم يعد يحضرها. يقول دائماً هذه الأيّام، الحضرة فسدت والجامع راه لاحِق، ثمَّ ينكفئ على نفسه. كبر بسرعة كبيرة. لحيته ابيضّت أكثر ووجهه يزداد حزناً. أحياناً أقترب منه ولكنّي في النّهاية أجد نفسي مجبرة على الصّمت. لا يهمّ. أخذنا حقّنا من الحياة.

- واش من حقّ يا يمّا؟!

- الحمد لله.

- البؤس والزلط، لا دار ولا دوّار.

- خير ربّي كبير. يقولون إنّهم سيعطوننا منحة الشّهيد، كبيرة. إذا جاءت هي لك. اشتري بها سيّارة إذا جابوا لك. تتهناي[1] من وهيص السيّارة والكار[2].

- يا من عاش!

كلّ هذه الهموم المتواترة، تدفعني إلى إطالة الرّقصة حتّى حدودها القصوى. إلى تكرارها. حتّى تأتيني أَنَاطُولْيَا فتوقفني. خلاص اليوم يا مريم. البقيّة اتركيها للغد.

وأعود.. أتدحرج باتّجاه حافلات باب الوادي. أَنَاطُولْيَا لا أريد إزعاجها. أحياناً تأخذني في سيّارتها ومنذ أن تزوّجتُ، فهي لا تتدخّل في خصُوصيّاتي. تتركني مع وحدتي وصمتي، يحدث معي أن أتمنّى من قلبي، أن أبقى معها لحظة، وأبكي بين ذراعيها وأصرخ. أصرخ. أصرخ. ولكن سرعان ما أحرق هذه الفكرة، وأقفز فوقها:

«أوف واش ذنبها؟ أعطت لنا الكثير من حياتها. ليست مجبرة على تحمّل بؤسنا».

---

(1) ترتاحين.
(2) الحافلة.

نفس اليوم يتكرّر بشكل مبتذل.

وهو.. حمّودة المغبون.. أراه من خلال عينيّ نصف المغمضتين، يحاول أن يقاوم، أن يتدبّر أموره كيفما اتّفق. ذات ليلة وأنا أحاول أن أفتح كتاب السّرير، قالها بحنق كبير، وبأعلى صوته:

- يا بنت النّاس قالوا عنّي مربوط[1]، قلت معليهش، قالوا طحّان قلت طزّ. قالوا حاوي، قلت كلمة وتفوت. قالوا دم الزفاف مشكوك فيه، قلت يدزُّوا معهم. أنا أعرفها أفضل منهم وأحبّها. ذبحت أصبعي من أجلك. قلت جميلة وتستاهل، وسأنتظر أيّاماً أخرى إن دعت الضّرورة. وأنتِ هي أنتِ. مصرّة أن تبقي مقفولة كالزّجاجة المسحورة. صبري نفذ وأنا تعبت.

لست أدري ماذا أخذني. دوّخني بكلماته. مددت يدي نحوه. لامستُ وجهه. شعرت بقساوة الزّغب الّذي بدأ يشوّك يدي. لكنّه، أوّل ما مدّ يده إليّ شعرت بقشعريرة تمتدّ من أخمص القدم حتّى شعرة الرّأس. هل سأصير مثل أمّي؟ بدا لي كأنّني بصدد القيام بتمثيل دور سخيف في مسرحيّة رديئة جدّاً. هو نفسه يقول الآن. هذه القحبة الرقّاصة. شايفة روحها بِرجيتْ بَارْدُو!! جسد معروض لكلّ النّاس وأنا الرّجل الحقوقي الّذي وقف الزّهر في حلقه كالشوكة، فرماه في البريد. حلمت بالماجستير في الحقوق ولكنّي لم أفلح. أبي مستعدّ أن يموّلني من أجل إنجاز مشروع تجاري مربح شرط مغادرة هذا البريد اللّي بلا معنى. أكيد أنّه يقول أكثر من هذا كلّه.

حاول من جديد أن يضع يده على يدي، سحبتها بهدوء ووضعتها في الفراغ. شعرت بأشياء كثيرة تتساقط في عينيه. قام من مكانه. دار بقوّة. سدّت الكلمات المحرجة حلقه قبل أن تنطلق مثل السّيل، حتّى خرج لسانه الطّويل، وتدلّى كلسان دمية بلاستيكيّة.

- يرحم ربّك، قولي لي واش تكوني؟ قتلتيني. بهدلتيني. أنا

---

(1) عاجز جنسيّاً.

طحّان[1]. وأنت واش تكوني؟! مجرّد راقصة، اللّي يسبق يركب فوقك. تملئين سهرات المسؤولين. تشربين الويسكي والريكار، وترقصين لهم.

وضعت رأسي بين يدي. شيء فيّ بدأ يغلي كالحمم. لم يكن ممكناً أن أسيطر عليه.

ـ حيوان أنت وإلا بني آدم؟ قحبة وإلا عذراء نقيّة؟

ـ شوف يا ولد النّاس! عندما أفكّر أن يركبني رجل غيرك. سأتركك، مرتاحة البال وبدون أدنى ندم.

ـ القحبة ما عندها إلا لسانها.

ـ زد. هل بقيت صفة أخرى لم تقلها؟!

كان وجهه قد تفحّم. وقبل أن أنهي جملتي الأخيرة، نزل بيده الثّقيلة على خدّي الأيسر. شعرت بأصابعه ترتسم الواحد بعد الآخر. رأيت النّجم القطبي في وضح النّهار. لابدّ أن تكون وراء تلك الضّربة تراكمات خمسة عشر قرناً. ولابدّ أن تكون وراء تلك البذاءة مدافن للرّغبات المذبوحة. ثمّ أخذني من شعري وضرب رأسي على الحائط. الغريب في الأمر، أنّي لم أشعر مطلقاً بألم ما. ولكن عندما تركني، جلست على السرير ولم أتفطّن لهول الضربة إلا عندما ملأت ملوحة الدّم فمي. مسحت شفتي برأس لساني، وعندما انتبهت إلى ملامحه من وراء عيوني المنكسرة، شعرت بخوف. كان مسعوراً. الزّبد الذي تطاير على طرفي شفتيه، عمّق لدي هذه الحالة القاسية.

ـ شفتِ اللّي يخبّي الأفعى واش يصير له؟! مادمت مثقوبة وتخافين من الفضيحة لماذا تزوّجتني؟؟

ـ كنت حمارة، طزّ في البكارة. ومادمت بهذا الثمن، لن أعطيها إلا لمن أحبّ.

رغم صراخي، لم أشعر براحة ما. خفت أن أنام، فيغتصبني

(1) قوّاد.

بشكل مشروع. فقد اعتاد أن يذهب إلى الحمّام كلّما اختلفنا فلا أسمع إلا شقشقة الصّابون المُرغوي في كفّه المطويّ على عضوه المنتصب. ثمّ أسمع شخيره مثل الخنزير، فأرتاح. لكن هذه المرّة لم أسمع شيئاً ولم أره يدخل الحمّام. جلس بقربي وبدأ يتأمّلني من رأسي حتّى قدميّ، بكره شديد. فتحت حقيبتي الخاصّة، وأخرجت كلّ تبابيني، لا أتذكّر العدد، ولكنّي لبستها كلّها في الحمّام بسرعة كبيرة، الواحد تلو الآخر. فوق الكلّ لبست سروالاً صوفيّاً غليظاً. الحرارة ولا الاغتصاب. أهله أصبحوا ينظرون إليّ بعين الريبة، لاسيّما بعد شيوع خبر الأصبع المذبوح. كان عندما يعود من الحمّام بعد الشقشقة، يكون صافي العينين، يرتاح بهدوء. أشعر به وهو يحاول أن يغطّيني بنعومته. يضع يده على خصري. الله غالب! أشعر بالدود يأكل جسدي. أحاول أن أصبر، أن أكابر. لا أتكلّم، أو أبذل مجهوداً لكي لا أتكلّم. لا أستطيع، خوفاً من شيء أكثر فظاعة. أتظاهر بالنّوم حتّى أغرق فعلاً في كابوسي اليوميّ. هذه المرّة عندما عدت من الحمّام بعد أن لبست كل تبابيني، كان مايزال يتأمّلني من أخمص القدم حتّى شعرة الرّأس. حاول مرّة أخرى أن يكابر هزيمته ويمدّ يده.

ـ اتركني!

قلتها، حتّى بدون أن أفكّر. نشأت في قلبي عدوانيّة لا تضاهى.

ـ اليوم نَفْرِيوْها!! يا أنا. يا أنتِ.

ـ تتعب نفسك في الفراغ.

ـ مرّضتني، شوّهتني، بهدلتني. التّقَجيج أنتاعك أنْزَعه لك اليوم.

ـ هه!! روُح يا ولد النّاس. مارس جنازتك وعادتك السّريّة. أنت متعوّد.

لأوّل مرّة، يدرك قسوة كلامي. كان يظنّ أنّي مغفّلة. أساساً لم يكن يهمّني لا من قريب ولا من بعيد، بل كرَّهَني في الرِّجال. لا أعرف ما الّذي قادني إليه.

ازدادت الكآبة في وجهه وامتلأت قسماته بالفراغ والقطران.

ـ يا الكلبة بنت الكلبة.

ـ وَحْد الرخيص[1]!

ـ بلا ربّي، اليوم لن تفلتي منّي.

ـ هكذا ببساطة؟!

أهله كانوا يشعرون بإهانة كبيرة من قضيّة الأصبع المذبوح. نظرتهم تغيّرت. أبوه، كلّ صباح عندما يواجهه في بهو البيت، يتأمّله لحظة ثمّ ينزل إلى أسفل البناية، كما يفعل معي دائماً. يحمّلني مأساة الخليقة. لم أكن أعرف أنّ في داخلي الكثير من القبح.

ـ سترين من هو الرّجل في هذا البيت يا لاله مولاتي.

تلمّست رأسي، شعرت به ثقيلاً وغير طبيعي.

ـ طزّ فيك أنت ورجولتك.

صعدت على السّرير. قبضته من شعره مثلما قبضني. ها أنذي. أطول منك. يا ولد النّاس.. حتّى القطّ عنده شلاغم[2]! حتّى الحمار يقوم بنفس الدّور وبوظيفته البيولوجيّة أحسن منك، خلّني في حالي. أطلق سراحي وسراحك. أنا متعبة وأنت متعب أكثر منّي.

وبدل أن يحاول أن يفكّر، كان قد سافر داخل الغيمة المظلمة. صفعني مرّة أخرى بكلّ قوّة حتّى تدحرجت من أعلى السّرير. صفعته أنا بدوري. احمرّت عيني. ومن لحظتها كرهته نهائيّاً. كلّ شيء انكسر. صفعته بكلّ قوّة نبشت خديه. لكمني على وجهي حتّى شعرت بعينيّ تنتفخان. في اللّحظة نفسها جرجرني من شعري مثلما يجرّ كيس زبالة، يُرمى من الطّوابق العليا كما جرت العادة في مدينتنا. انفلتُّ منه بعد ما عضضته من يده. صرخ بأعلى صوته. سارعت إلى

(1) التّأفه.
(2) شنبات.

النّافذة. كانت التبابين تضايقني. فتحت لوحاتها، فاندفعت إلى أنفي رائحة اللّيل والبحر وصرخت بأعلى صوتي:

ـ وحقّ ربّي إذا لمستني سألقي بنفسي من هذا الشبّاك. ورأس يمّا العزيزة نديرها ونباصيك[1].

جمد في مكانه. التصق بالأرض التّي كان يقف فوقها، كان يعرف أنّي مجنونة، شعرت في لحظة من اللّحظات بعينيّ تثقلان ورأسي يدور من اللّكمة القويّة. ولد الحرام. بدأ يتنفّس من مناخيره كالثّور، بشكل متسارع. وضعت يدي على رأسي حتّى لا أسقط. شعرت به يتلوّى مثل الثعبان. دخلت نسمة أخرى، باردة، من النّافذة المشرعة، فيها رائحة التّراب والمطر والموج. وقبل أن أرفع عيني وأعود للتّهديد من جديد كان قد انقضّ عليّ مثل الوحش وجرّني إلى الفراش. رأسي يدور والأرض تدور، ووجهه يتلوّن بالدّكنة. مقاومتي كانت ضعيفة ومع ذلك كنت واعية عندما ربطني من يديّ على طرفيْ السرير ثمّ فتح ساقيّ عن آخرهما، وربطهما. شعرت بالألم الكبير، وبتمزّق التبابين وهو يوسّع بين فجوة فخذيّ. قلت له في لحظة اليأس وعيناي نصف مغمّضتين.

ـ لو كان ما تطلقنيش[2] سأصرخ بأعلى صوتي.

وصرخت. لم يسمعني أحد. وضع قطعة كتّان بيضاء في فمي. شعرت بالاختناق. رأسي يدور. الأرض تدور. وهو يتعدّد كالوباء، كالطّاعون ثمّ بدأت الإغفاءة تأتي مع الكابوس اليومي. رأيت وجهه يكبر ويصغر. الألم يمزّق بطني. كان النّهش قد بدأ. ثمّ غبت نهائيّاً داخل سواد، ضيّعت فيه أشكال الأشياء المحيطة بي، لم أكن أعلم ماذا فعل بي بالضّبط قبل أن استيقظ على الألم وهول الكارثة. كنت مرهقة. ذاكرتي مثقلة بالفراغ. في الصباح الباكر، عندما حاولت أن أفتح عينيّ بتثاقل وخيبة، جلس بجانبي على السّرير. قال: أعتذر.

(1) أورّطك.
(2) إذا لم تطلق سراحي.

ضحكت بمرارة.

قال: يا مريم، الرّجل رجل وأنت رأسك قَاصَحْ كالحجر. حماقة ليلة البارحة، عندك مسؤوليّة في حدوثها. أمّه لأوّل مرّة تسلِّم على رأسي. تَمْتَمَتْ بصوت شبه مسموع: الآن يا بنتي الحمد لله، لقد صِرْتِ امرأة.

عندما خرجت من الحجرة، عاود حديثه الّذي بدا كالأسطوانة المجروحة المكرورة:

ـ كنت أظن أنّك لست عذراء. أعترف أنّي كنت أحمق.

ليته صمت. كنت ربّما عذرته ووجدت مبرّراً لتوحّشه فيما بعد. زاد سقوطُه من عينيّ. فجأة تذكّرت بعض تفاصيل ليلة البارحة. السّرير والرّبط وتوسيع فتحة الفخذين. شعرت بالمغص ينزل من بطني الأصغر إلى تحت، برائحة جسده تلتصق بجسدي. ماذا جرى. انتابتني رغبة في التقيؤ.

ـ ارتحتَ الآن؟!

قلتها وأنا أنتبه للتبابين الممزّقة تملأ الحجرة. العطور الرديئة وصابون الرّيحة تملأ المكان. لم أجرؤ أبداً على رؤية وجهي في المرآة. وعندما تشجّعت ورأيته كان مكندراً مثل البطاطا. تحسّست جسدي. رأيت بقع الدم واللّزوجة اليابسة تلتصق بفخذيّ. أغلقت باب الحمّام وبكيت بصمت، طويلاً وبدون دموع. لم أبك على البكارة لأنّها لم تكن شيئاً خارقاً في حياتي، ولا على بقع الدّم واللزوجة اليابسة والافتراس. بكيت لشيء غامض، لكن في عمقي المنهك والمنتهك. وبقدر ما كنت أشعر بالكراهية تزداد، كان ضوءٌ ما يملأ قلبي. لست أدري، كيف يتوحّش امرؤ إلى هذه الدّرجة؟ أيّة لذّة تغمره وهو يغتصب كائناً ميتاً. لا أعرف. ولا أريد أن أعرف أبداً.

منذ تلك الحادثة لم يَمَسَّني. وإذا أراد أن ينام معي أصبح من الضروري عليه قتلي أوّلاً. هو نفسه اكتأب وعاد إلى عادته القديمة.

يتركني أنام، ثمَّ يدخل الحمّام، يشقشق قليلاً، بعادته الّتي لم تعد سرّيّة ثمَّ يأتي لينام قرير العين. ملء حياته. وتكرّرت الأيّام بسوادها.

ذات صباح فاجأني:

ـ أعتقد أنّي لا أصلح لك ولا تصلحين لي.

العجيب أنَّ أمّه منذ الفاجعة، تغيّرت معاملتها معي. أصبحت رقيقة لدرجة المبالغة. تمسح على شعري في المطبخ، لا تأكل إلا إذا كنت حاضرة، تلمسني على جسدي لدرجة القرف. لم تستطع أن تزمّ فمها. قالت ذات يوم، وهي تحاول أن تصطنع ابتسامة مشرقة وخجُولة: الشيخ نهاني. قال لي عيب!! قلتُ له، يجب أن أعرف. حمّودة ولدي مش ولد النّاس. أنا أمّه. واللّي تشوفُه أمّه يبقى في القلب. في البداية لم أفهم قصدها بدقّة. ولكنها سرعان ما سحبتني إلى زاوية البيت شبه المظلمة. قالت: من هناك رأيتك. كنت تتنتّرين[1] وتتخبّطين في مكانك. كان المنظر من عين المفتاح مدهشاً. رأيته وهو يكتّفك وعرفت أنَّه كان عازماً تلك اللّيلة على أن يكون رجلاً وعلى تحويلك إلى امرأة. كنت تتحرّكين بعنف. ثمَّ رأيته وهو يقطّع سراويلك الواحد تلو الآخر. اللّي يخاف يا بنتي ما يجيبش الأولاد. استحيت عندما رأيته عارياً ثمَّ قلت: ليكن! هو ابني. ربّيته وغسلت له عارياً وهو كبير. واش راح نشوف أكثر مما رأيت. عندما انحنى على ركبتيه، رأيته يفتح ساقيك ويضعهما على كتفيه ثمَّ يسحبك بقوّة، باتّجاهه. ساقاك كانتا مثل الشّمعتين، مضيئتين. بعدما صرخْتِ صرخة جافّة ثمَّ صمَتٌّ، عرفت أنّ ابني كان رجلاً ولم يكن مريضاً وأنّك منذ تلك اللّحظة صرت امرأة. الحقّ، الحقّ لولا أنّ الشيخ نهرني مرّة أخرى، كنت مصمّمة على رؤية المشهد بكامله. الرّجل يا بنتي يحتاج إلى من يسايسه. إذا راح مع امرأة أخرى، العيب ليس فيه ولكن في زوجته. لو كان ما دارهاش معك، كان

(1) تحاولين الانفلات منه.

يديرها مع غيرك. فرحْت، وشيخك[1] فرح معي. لا تعرفين قيمة أن يصير الإنسان جَدّاً.

رمقتها بانزعاج كبير. تدحرجت البذاءة في أعماقي. شعرت بالسّخف والكراهيّة. هاه، لو يأتي الطّفل سأخنقه في الفراش. سأقتل نفسي إذا لم يمت. طفل غير شرعي. وحياتك يا لاله حفيدك إذا جاء فلن يكون شرعيا.

تنبّه حموده إلى شرودي. ظلّ يتكلّم ويعتذر. في الأخير قالها بحسرة تجمّدت في حلقه:

- دبّري راسك، أنت هي أنت. إذا كان الطّلاق يريحك فأنت طالق. طالق. طالق.

شعرت بشيء يشبه العذوبة والخوف. لم أكن مستعدّة للبقاء لحظة واحدة في هذه الأجواء. فتحت حقيبتي وبدأت ألمّ أغراضي وألبستي. في ذلك الصّباح كنت مصمّمة على إنهاء هذه المهزلة. سأعود إلى أمّي. شعرت بنفسي في لحظة من اللّحظات، طفلة صغيرة. لم آخذ شيئاً مهمّاً، سوى كتاب دون كيشوت الّذي كان يدلّي لسانه الأحمر ويسخر منّي. ياخي مجنونة!، كنت أظنك دولثينايا وإذا بك تنكسرين أمام شبه رجل أخرق؟ ثمّ رواية مدام بوفاري، كانت إيما صامتة وهي تتأمّلني، وأنا أعبر المكتبة، بعينين ذابلتين، قبل أن تموت بهدوء كورقة التوت. «جرمنال»[2]. ملحمة الحرافيش، الشّمس في يوم غائم لحنّا مينة، الّذي ظلّ ينظر إليّ بكبريائه المعتاد وسط بحر فقد زرقته وألوانه وأحلامه. البحر بدون ملح لا قيمة له. آنا كارنين، مدن الملح لعبد الرحمن منيف الذي انكفأ على وجهه منكسرا، مدارات الشّرق لنبيل سليمان الذي لم أسمع إلا أصداء سخريته المنبعثة من الصالة المجاورة: يا شيخة، شو خسرت؟ حمار لا يتقن حتى دوره البيولوجي، بعض كتب فولكنير، في البحث عن

(1) أبو الزوج.
(2) جرمنال (Germinal) لإميل زولا.

الزمن الضائع لمارسيل بروست، ودواوين عديدة لشعراء مغمورين، وكتاب مصوَّر عن الباليه في العالم ومجلّد آخر عن الموسيقى الكلاسيكيّة، وأسطوانات وأشرطة كثيرة للموسيقى الكلاسيكيّة، وصورة حائطيّة كبيرة للرّاقصة إيكاترينا ماكسيموفا، أُهديت لي في موسكو عندما سافرت مع أَنَاطُولْيَا لأوّل مرّة ضمن عرض الفرقة. وكتاب جميل عن الجزائر العاصمة ورساميها في القرن التاسع عشر.

كان زوجي يدقّق في كلّ حركاتي، وكلّما سحبت شيئاً، اختطفه بعينيه، لم يجد ممّا أخذت شيئاً من أملاكه. يهزّ رأسه بسخرية ثمّ يتبعني. الورق، دائماً الورق. مددت يدي إلى مجسّم صغير عن بيت المقدس وخارطة نحاسيّة لفلسطين. تمتم بسخرية. تحيا فلسطين!! يا عيني على القدس!! لم أقل شيئاً، لأنّ المجسّم مرتبط عندي بذكرى عزيزة من سفارة دولة فلسطين، وقبل أن أغادر المكتبة، سحبت الدّفتر العائلي من أحد الأدراج. كان قد علاه الغبار. كنت أنتظر أن ينتزعه منّي. الفرصة مناسبة، ولكنّه لم يفعل. غير إنّه قال، وأنا عند المخرج، بالضّبط عند عتبة الباب:

- هذا ليس لك، الدّفتر العائلي لصاحب البيت. اتركيه، الله يسهّل عليك.

كان قلبي ممتلئاً. لم أناقش. لم أناوش. لم أتحدّث. كانت أمّه تتأمّل المشهد في الزاوية الخلفيّة وتؤشّر بيدها من ورائه، أن أداريه ولا أركب رأسي. بدت مثل قردة سيرك عمّار. الله غالب. أنبت نفسي فيما بعد، ولكن هذا إحساسي. النّاس تعوّدوا على النّفاق الاجتماعي للحفاظ على توازنهم. العجيب أنَّ أمّه أشعر بوجودها حتّى ولو كانت بعيدة. أشمّ رائحتها الّتي تشبه رائحة الخميرة والحلازين. تأمّلت الدّفتر العائلي، قبل أن يصفع الباب في وجهي. مزّقته إلى ألف قطعة وقطعة. فكّرت أن أرميها على وجهه ولكنّي عدلت عن الفكرة وضربت الوريقات على بلاط الأرض. ليكن يا سيِّدي حمّودة! لم يعد هناك ما يجمع بيننا. انتهتْ هذه القصّة الرّديئة عند هذا الحدّ..

ظلّ جَامداً مثل الحديد، وصبوراً مثل أحجار الوديان. ولكنّه فجأة انطلق كالرّعد بصوت يحاول أن يحقّق توازناً مستحيلاً:

ـ لن تأخذي قطعة واحدة من ذهبك.

لم أقل شيئاً ولكنّه، كلّما تكلّم، ازداد صغراً في عيني. لم يكن في نيّتي مطلقاً أن آخذ شيئاً له يذكّرني به. السلسة الذّهبيّة الوحيدة الّتي أهدتها لي أمّي، كانت في عنقي. ضحكت بمرارة. يبدو أنّي محقّة أكثر ممّا أتصوّر لأوّل مرّة في حياتي المليئة بالحماقات، يسكنني اليقين بأنّي لم أكن مخطئة في موقفي منه. اندهش لحظة لردّ فعلي السلبي. لست أدري ماذا وقع بعدها. سمعت الباب، وهو يصفق بقوّة. كنت قد بدأت أنحدر عبر سلّم الطّابق الأرضي.

خرجت من بيت نسيته عند العتبة بالضّبط، بعد أيّام وصلتني دعوة من الشرّطة. قالوا لي، زوجك قدّم شكوى ضدّك بتكسير باب بيته الخارجي وسرقة حوائجه الخاصّة. قلت الباب من حديد، ويوم خرجت أقسمت أن لا أعود. لم آخذ إلا كتبي الخاصّة. قالوا: هكذا قال لنا. سجّلت احتجاجي ورفضي للادّعاء. بعدها بمدّة، استدعاني قاضي التّحقيق، قال زوجك يريد سجنك. لم أتكلّم، ولكن عندما فاتحت محاميتي، ضحكت بسخرية، وقالت، طزّ، يدزّ معهم[1]. يضرب رأسه مع حَيْط. كنت مرهقة. رأيته بالمحكمة. لم تكن لي رغبة لرؤيته أبداً. لحيته انْسدلت، كانت سوداء مثل القطران، يختبئ داخل فوقيّة (جلابيّة) بيضاء، وقبّعة أفغانيّة متّسخة. العجيب في الأمر في هذا البلد، كلّما أخفق المرء في حياته، التجأ إلى ربّه، يتعشّقه بالكثير من النّفاق، لابدّ وأن يكون الله قد ملّ هذه الوجوه المكتئبة. قيل الكثير عنه، وأنّه سيقتلني إذا لقيني لوحدي. في البداية خفت، لأنّي شعرت به يتبعني، وبعدها نسيته. وها أنذي أقف أمامه. كم كان يبدو بعيداً. واجهه القاضي بسؤاله المعتاد.

ـ كيف كسَّرَتِ الباب يا بُني؟

(1) ليفعل ما يشاء.

ـ واش عرّفني.

قالها بدون تردّد. واصل:

ـ ربّما جاءت هي وأمّها وعمّها.

ـ متأكّد من أقوالك؟

ـ عظام جهنّم يا سيّدي القاضي.

ـ باب حديدي تكسره بيدها. الله يهديك.

ـ قادرة على تدمير حتّى بيوت الله.

ـ هذا كلام زائد، لا معنى له.

قالها قاضي التّحقيق بنوع من التململ والتأفّف. لست أدري، ما الّذي جعلني أبحث عن زاوية للتقيّؤ. لقد شعرت بخجل كبير في مكانه. العجيب أنّ هذه المخلوقات لا تستحي حتّى في أحلك المواقف وأكثرها قلقاً. شعر به القاضي وهو يبتلع كلماته، ويبحث عن ريقه الّذي جفّ في الحلق ويتأمّل عيون الحاضرين المائلة باتّجاهه. وعندما انغلق كلّ شيء في وجهه، بدأ في تمثيل موقف درامي ببكائيّة مبالغ فيها.

ـ يا سيّدي القاضي هذه زانية وتستاهل الرّجم، أنت تعرف بللّي[1] رقاصة.

في اللّحظة نفسها صرخ مجموعة من أصدقائه الذين كانوا يملؤون الجزء الأمامي من القاعة:

ـ الله أكبر، الله أكبر. ظهر الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً.

كان الإمام الناتئ يتقدّمهم. القاضي لم يتأثّر، بل كان صارماً.

ـ اسمع. أوّلاً هذا يسمّى قذفاً. وعليك أن تجيب في حدود السّؤال.

(1) بأنّها راقصة.

- أنا مصرّ أنّها هي الّتي كسّرت الباب.

- لجنة التّحقيق أكّدت أنّ الباب لم يُمسّ. مرّة أخرى عندما تريد أن تكذب ابحث عن تهم أكثر قبولاً.

عندما سألت محاميتي فيما بعد، قالت إنّ الملف قد أغلق ولم يعد هناك شيء يستحقّ القلق. أتذكّر جيّداً، أنّه عند باب المحكمة، مسح لحيته هو وجماعته، سمعت قاموس الشتائم ينزل على رأسي. فاجرة. عاهرة. خبيثة. عظام جهنّم. الدولة الإسلاميّة تفلع لك أمّك. في لحظة من اللّحظات، فكّرت أن أعرّيهم وأن أخرج عقدهم من عيونهم مع صفرة القيح الّذي يملأ داخلهم. لكنّي شعرت بضياع الوقت، وبعبثيّة لا معنى لها مطلقاً، حتّى الكلام استرخصته فيهم، كان هواء المدينة رائعاً. ومطرها مدهشاً. أوقفت سيّارة أجرة وطلبت من سائقها أن يأخذني إلى واجهة البحر. تذكّرت عمّي موح الصيّاد والمحلات الرّائعة. لم أنزل. ثمّ أعادني إلى بيتنا الّذي شعرت بشوق خاصّ تجاهه. أمّي عندما رأتني لم تقل شيئاً ولكنّي شعرت في عينيها كأنّها تراني للمرّة الأولى بعد غياب طويل. لم أخبرها بشيء، قرأت في ملامحي هول الفرحة الّتي كنت أحسّ بها وضخامة الحماقة الّتي ارتكبها.

- ليس هو الرّجل الوحيد في الدنيا.

قالتها، ثمّ ضمّتني إلى صدرها، شعرت بحرارة كبيرة، كبيرة وبزرقة مذهلة تملأ جسدي. أعادتني إلى قريتي وإلى أحياء سيدي بلعبّاس الواسعة وإلى الوجوه الأليفة الّتي فقدتها، إلى الأحجيات، والحلّ والرّبط في الأعراس، والجداول الفقهيّة وماء الزّهر والبرتقال والأولياء الصّالحين وإلى شجرة الخرّوب اليتيمة الّتي يقال إنّ جدّ أبي علّق نفسه على أحد فروعها احتجاجاً على سرقة زوجته ووجهه مايزال ممتلئاً بمسحوق البارود.

VI

الجمعة الحزينة

لست أدري كم كانت المسافة الّتي قطعتها والشّوارع الّتي عبرتها. «الجمعة الحزينة، صوت يملأ القلب والذاكرة. حكاية الدّهشة والخوف».

هذه المدينة كانت رائعة. لم تبقَ منها إلا هذه الأصداء الّتي تملأ أحزان المعابر القديمة.

عندما قطعت الزّقاق الضيّق، كانت مجموعة الكلاب، تتناهش وتتنابح، وتبوّل.

خلت نفسي في قرية كبيرة. المدينة صارت ريفاً. كم كنت أودّ أن أنزلق إلى حانة Les Desirs. لكنّها كانت موصدة. عند بابها كومة من الأزبال. ورجل يبحث بين أكياس الزبالة عن دفءٍ ما. عندما رفعت رأسي، كان البحر قد اختفى ولم تبقَ إلا الأنوار الملوّنة للسفن الراسية في زوايا بعيدة. ماذا يفعلون الآن يا ترى؟ يفرحون؟ مؤكّد أنّهم يفرحون ويرقصون. يقطعون اللّيالي ثمّ يرسون، وبعدها يقطعون الزّرقة العظيمة باتّجاه نقطة ما داخل هذا الفراغ المذهل. إنّهم يشعرون ببعض السّعادة وهم يفاجؤون برؤوس البنايات العليا وهي تطلّ عليهم في الآفاق. عمّي موح الصيّاد كان مثلهم اشتغل

كثيراً على ظهر السّفن، ثمَّ استقرّ على أطراف المدينة واشتغل صيّاداً. كم كان طيّباً وممتلئاً بالموج.

أشعر الآن بالتعب الّذي بدأ يرهق مفاصلي. ضيّعت عناوين شوارع المدينة. أعرف أنّي انتقلت من مستشفى مصطفى باشا مروراً بشارع حسيبة بنت بو علي، ثمَّ صعدت باتّجاه ديدوش مراد ولا أعلم بعدها الأزقّة الّتي قطعتها، كلّها كانت تحمل أسماء الشّهداء الرّائعين وبعضها لكتّاب فرنسيّين معروفين. كلّهم كانوا يقفون وراء البنايات العالية. الكتب المدرسيّة ألغتهم من برامجها، وعوّضت الكلّ بحصص في التربية الدينيّة على حساب تاريخ المدينة. حتّى الحكومة تلعب نفس اللّعبة. انتقلت من عقم الخطاب الوطني، إلى فجاجة الخطاب الدّيني. في كلّ حيّ ينهض مسجد، تنقص مدرسة. لعبوا اللّعبة فوجدوا أنفسهم في ميدان خسروه منذ البداية. أوف! خلّينا من الفستي[1] يا رجل. بنو كلبون داروها وحرّاس النوايا كمّلوها عليها. يأكلون الزّبل الّذي زرعوه. بلاد رأسماليّة يسيّرها طفيليّون بمواثيق اشتراكيّة، الفستي. بربّك وين صارت هذه المهزلة؟ يقولها العابرون، ثمَّ ينطفئون بين البنايات الواطئة أو في المرتفعات، أوْ وراء كومة من الأوساخ.

كانت الرّياح قد تفاقمت. وحبّات المطر أصبحت غليظة وباردة. أشعر بها وهي تنزل بانتظام وتتتابع على رأسي. كنت أمشي. أمشي. المطر رائع في هذه البلاد ونادر. اركب، المطر عليك. مريم، أحبّ المشي في الطّريق. المطر شحيح في هذه المدينة البحريّة. اركب وإلا أنزل معك. لماذا لم أقل لها انزلي؟ وهي ممتلئة بالبربريّة حتّى القلب. لابدّ أنّي كنت غبيّاً في تلك اللّحظة وأنا أخرج مندهشاً من الأوبرا بعد عرض مريم. الزّمن قصير، وللمشي في هذه الشّوارع طقوسه. كلّ شيء صار مبهماً وبعيداً. والوصول إلى جسر

(1) الكذب.

«تليملي»[1] يحتّم عليّ مقاومة عنيدة لهذه المياه المتدفّقة بكثافة من سماء تسطّحت وشحّت قبل هذا الزّمن. مريم. يا مريم. الطّريق الّذي يؤدّي إليك صار قيامة والوحشة في غيابك تزداد ضراوة. أيّتها الجمعة الحزينة! ما أوحش فراغاتك وخوفك. من يتذكّر الجمعة الحزينة. بل مَنْ مِنّا لا يتذكّره؟

من يَرَ يحزن! هذا القلب، من يسافر داخله غير الوجوه الأليفة المملوءة بالخوف والتّسامح؟ غير أصوات القطارات الّتي تروح وتجيء بهدوء، في نظام رتيب، مقلق أحياناً، غير أحذية الراقصات المولعات، في البيوتات الضيّقة وهنّ يدقّقْنَ على الأرض بعنف للخروج من بين الجدران الأسمنتيّة. يستأذن القلب من القلب للبحث عن شهدائه الضائعين الّذين لا يعرف وجوههم، عن أحلامه الّتي فقدت ملامحها، عن وجهه الّذي ضاع وسط الحرائق والفراغ المهول. لست أدري لماذا تغزوني الآن أشواقك وأحزانك بكلّ هذه الكثافة. ذات مرّة كنت متعباً، وتناوشنا في بيتي. كنت قد خرجت من خرابات الزواج الفاشل. يوم أتذكّره طويلاً، قبل أن يأكلني التراب. كان دماغي مليئاً بالسحب الجافّة. شيءٌ ما في القلب لا يريد الخروج. يستعصي على اللحظة. تعبت من تخبئة أشيائي المهيمنة عنك. أتساءل في خفاء الخوف، هل أنت طالبتي المستمعة أم أكْثر؟ وأقنع نفسي، لمريم أشواقها وعالمها، وحميميّتها الّتي ليست مجبرة على الإفصاح عنها لك أنْتَ بالذات. كان القلق قد بدأ يتآكل في داخلي كليلة حشرٍ ما. قلتُ تعبت يا بنت النّاس. لتخرجي من قلبي وذاكرتي. لا أستطيع التحمّل، تحمّل هذا السديم الّذي يتوالد بعنف شديد. صفقت بعينيك وأنت بعيدة، على الكرسي المقابل. أنا كذلك منهكة. قلتِ، صمّمتُ وعزمت على ارتكاب الحماقة الكبرى في حقّ نفسي، وجدتك أمامي تنظرين إليّ. عيناك مرتشقتان في وجهي، وابتسامتك تحاول أن ترتسم على شفتيك بمشقّة. أحْنيتِ رأسك،

(1) جسرٌ عالٍ داخل العاصمة.

هززتِه للحظات ثمَّ قلت: أحمق! أنت تحبّني وخلاص! لست أدري هل قلتِها أم تخيّلتُها. الأفضل أن نصمت. مددت يدك. شعرت بها ساخنة. قلبي كان يعذّبني. كلّ شيء فيك كان يفضحك. قرأت ذلك في عينيك المفتوحتين على سعتهما. هاه! وأنتِ!! عيناك بحر تتمدّد عليه ظلال الذاكرة بسحب ملوّنة. شعرت بيدك تضغط على يدي، سحبتها بهدوء. انزلقتُ باتّجاه وجهك. وضعته بين يدي. كان صافياً مثل البلُّور. تأمّلتك. هل أنا حقيقة مقدم على ارتكاب الحماقة العظمى في حقّ نفسي أو في حقّك؟ تأمّلتك. ما أنْعَم هدوءك! تزحلقت أصابعي نحو شفتيك. شعرت بارتعاشتك الأولى. هل أختلف عن غيري؟ قلبك مجروح، وعنادي معك يزداد ضراوة!

بياض عينيك، يتعمّق صفاؤه أكثر فأكثر.

ـ أحمق! أنت تحبّني، أخرجها من قلبك! أنا كذلك أحبّك.

دارت الأرض في عينيّ عكس دوراتها. وبدأت التربة تنساب من تحت أقدامي. ما أوحش وأفظع هذه الكلمة وسط هذا الفراغ!

ـ كرهت لك حياتك بقصصي الخائبة عن زواجي التعس!

ـ ... ...

لم أتكلّم. كانت قداسة الصمت أعظم. شيء من النّور كان قد بدأ يملأ القلب والذاكرة. ازدادت أنفاسُكِ دفئاً. خصلة شعرك الّتي كانت تنسدل على جبهتك بدأت تتبعثر فاتحة طريقاً من النعومة لأصابعي الضّائعة. كنتِ مدهشة.

هذا الصباح لم يكن كغيره من الأصباح. جئتِني بضفيرتين طفوليّتين. كنت مصمّماً على تصفية حسابي مع قلبي وقلقي. لكنّي ماذا فعلت؟ شعلة الحرائق هدأت، والعيون الّتي كانت ترمش بدأت تنطفئ على دفء اللّحظة المسحورة. التصقت شعرات الخصلة الرقيقة على شفتيّ. شعرت مرّة أخرى بالدّوخة تصعد إلى قلبي. شفتاك مليئتان بالرغبة والغواية. الله يخرب بيت أبينا آدم. بدل أن

يطرد من أجل معصية حبّ، طُرِد من أجل بطنه! التصقتِ بجسدي. شعرتُ بك متعبة ومنهكة في وقفتك. هل أنا شفّافة؟! لم أعد أراك!! لأوّل مرّة تصمتين. ثمَّ تتكلمين عن أمّك الّتي تملأ حضورك. عن خالتك في «باش جراح»(1) الّتي ساعدكم زوجها في الاستقرار في العاصمة. تقولين، هي الّتي استقبلتنا أيّام الشدّة الكبرى عندما دخلنا مدينة لم نكن نعرف فيها إلا أَنَاطُولْيَا. زوج خالتي السائق في الحكومة هو الّذي ساعدنا مع عمّي البسكري، يوم تركتُ بيت الرّجل الّذي اغتصبني، كانت خالتي هي ثالث امرأة بعد أمّي وأَنَاطُولْيَا، ترفع معنوياتي الّتي لم تكن هابطة مطلقاً. لأوّل مرّة أشعر أنّي لم أكن مخطئة رغم ضخامة الحماقات الّتي أحملها على ظهري. قالت، يطيح في البحر. لا هو الأوّل، ولا هو الأخير. يلعبون ببنات النّاس ويُخسّرونهنّ. الله يجازيهم. ثمَّ تدخل في نوبة من العويل. وأقنعتها بصعوبة بأنّي لست نادمة على ما فعلت، وأنّي لم أُضَيّعْ سوى قيد وضعته على عنقي باختياري المحض. قالت وهي تمسح خدّها من الدّمعات الّتي انحدرت تضامناً معي: حتّى عمّك رزيّة!! ما يقتل ما يحيي. لو كان رجلاً، لذهب وأخرج له عينيه. وأعيد الكرّة. لا. لا. يا خالتي. حياتي وأنا مولاتها(2). تعبت. ما قدرتش. الله غالب. مشينا. الطّريق كان قصيراً. هذه نهايته. الميت عندما يموت لا نحييه يا خالتي من جديد. أحياناً عندما أواجه المرآة ألعنها بقوّة. ولا شيء يمشي بشكل مستقيم في هذا البلد وفي ذواتنا. الأب مات ميتة غامضة. الأمّ فرضت عليها علاقة من السماء وهي لا تعرف هل استشهد زوجها أم شنق نفسه. وحياتك، أنا مقتنعة حتّى العمق، أنَّه شنق نفسه بالرّغم من أنّي لا أملك أيّ دليل. حتّى ابتئاس عمّي فيه شيء من هذا، من ذلك الشيء الحارّ، الّذي يسدّ الحلق. سألته أكثر من مرّة عن السّي لحْسَنْ. يوم كان في صحة جيّدة، وفي لحظات رشوقه، يتمتم: السي لحسن. الله يغفر لنا. ثمَّ يشيح بوجهه بعيداً

(1) حي شعبي بالجزائر العاصمة.
(2) صاحبتها.

عنّي. يبسمل ويحوقل، ثمّ يدخل في إغفاءة المتصوّف الولهان، ثمّ يقوم، يتوضّأ. يصلّي ركعتين، يفتح المصحف. يُرَكّب النّظارتين ويذهب داخل المقدّس بمذاق المرارة والملوحَة. شيءٌ ما في أعماقه يتآكل بصعوبة. أمّي لا تطرح أيّ سؤال. أقنعت نفسها باستشهاد زوجها والسلام. هل أنا ابنة أبي أم ابنة عمّي؟! أيّ عمّ وأيّ أب. عالم مجنون، دخله الوباء إلى عمقه، حتّى أصبح نعمة. لولا أَنَاطُولْيَا. لولاكَ لانْتَحرتُ.

«عليك أن تبكي لتخفّفي من الألم».

تقولها لي!! وأنتَ محزون ومجروح ومليء قلبك بالأسرار. ماذا تريدني أن أفعل؟ لقد بكيت كثيراً. في الصمت وعلانية. وجفّ الدّمع في هذه المدينة الّتي ضاق نفسها وصار فيها كلّ شيء رخيصاً. كلّ شيء، إلا الرداءة الّتي صارت هي قانون المدينة السائد بالرّغم من الأفواه الّتي تصرخ دائماً. هل بقي شيء آخر من حماقاتي لأقولها لك، لأنّك أحمق مثلي، فأنا أحبّك.

«يا أحمق!! تحبّني وتخبّئ؟؟».

قلتِها وأنتِ تبحثين عن ملامحي وسط هذه العذوبة المؤلمة. كانت شفتاي قد التصقتا بشفتيك. أدخلت رأسك من جديد في صدري. ثمّ ابتعدت قليلاً عنّي. وبدأت تتأمّليني من أخمص القدم، حتّى شعرة الرأس. لماذا صَمَتَّ كلّ هذا الزمن؟؟ قلتِها بدون تردّد. أَكُنْتَ تنتظر منّي أن أكون أنا البادئة؟ ألست الأستاذ وأنا الطالبة، المستمعة الحرّة الّتي تتعشّق صوتك، وتصمت، وراقصة الباليه الوطني الفاشلة في كلّ شيء إلا في حبّها للرقص والموسيقى والكتب المليئة بصدقها؟ أنا كذلك أحبّك، لكنّ شيئاً ما في قلبي يعذّبني. لست أدري أيّ سهم أدخلني إلى عينيك لأنام حزينة في أعماقك. للحبّ رائحة. للخوف رائحة. للمأساة رائحة.

تصوّري يا مريم. يا شوق المحزون، ويُتم الوحيد. كلّ شيء

يسحبني تجاه قلبك وسط هذا الخواء. الساعات الممتدّة بتثاقل على هذه الظلمة المفرطة. العطور المعشقة بالألوان. دقّات القلب المجدوبة، والأحذية الهبيلة والأصوات المجنونة. كلّ شيء يذكّرني بك.

عندما دخلتِ، كان الباب نصف مفتوح. ليلة قبلها، قلتِ سأمرّ عليكَ غداً. قلتُ يجبُ أن تمرّي. أنا في حاجة إليك. في حاجة إلى نفسي فيك. وجِئتِ. عندما دخلتِ، تركتِ الباب وراءك نصف مفتوح. عادتك. على العالم أن يسمع النشيد العذب الّذي يموت الآن داخل البيوت. في الدّم شيء يشبه الهواء المؤكسد. سمعت وقع خطواتك. وحياتك سمعت وقع خطواتك. لست أدري لماذا تذكّرتُ رقم 375، رقم صالة الرقص. صوتك يأتي زاحفاً بين شقوق الأبواب والحيطان. صوت يقتلع الأشياء من جذورها. يبحث عن مرساه داخل أشواق فقدت الكثير من اتّزانها. داخل الكلمات والمفردات. لماذا يا مريم، تلومين هذا المنهك وسط هذا الخلاء المقرف؟ عليك أن تعلمي، يا ابنة أُمّي وأبي وبلادي، أنَّ ما في القلب صعب وحارّ مثل الأنجم الّتي ذهبت ولم تعد. يعود المشهد إلى بداياته الأولى. يفتح الباب. يُشرَّع. ثمَّ.. الباب الآن نصف مغلق. أهذه أنت؟! مريم تأتي!! تأخَّرتِ كثيراً أيّتها المرأة المشهودة.

ـ صباح الخير.

ـ صباح الودّ والحنين والطفولة. ادخُلي.

ـ كلّ هذا الشعر!

كلّ يوم، أقول إنّك أجمل من البارحة. قداسة الكلمات والرقص، لا تؤدّى إلا داخل عنفوان العشق والجسد الّذي لا ينهك. أنتِ. أنتَ. أين أنتِ. انْظُرْ لقَدْ صرت شفّافة!! وهل تموت الكلمات، وهل تضمحلّ أصداء تنهيدات العشق، وشهقة اللّحظة الحميميّة؟ في فمك دهشة. تتطلّعين إلى اللّباس. إلى الشَّعرِ الملفلف. إلى الأنف، ثمّ تسترقّين

السمع إلى أجراس الكنائس القليلة الّتي تقرع بوجل في الزوايا الخلفيّة البعيدة من المدينة. بعضها سكت نهائياً، بعد أن حوّلت الكنائس إلى مساجد لا يقرأ فيها القرآن إلا نادراً، ولا تمتلئ بالمصلّين إلا أيّام الأعياد والجمعة.

ـ استريحي.

لقد استرحتِ في هذا القلب المتعب منذ زمن بعيد. لكن السرّ ظلّ يُعذّبني. استريحي. لا شيء يوازي لحظة انتظار تُكَلَّلُ بالوجه القدسيّ الّذي يملأنا من القدم حتّى الرأس. نزعتُ من على ظهرك الرّداء الصوفيّ الخشن. وقبل أن تجلسي وتقفي وجهاً لوجه مع تردّدي، تناهت إلى مسمعك موسيقى فوستو بابيتي[1]. قلتِ مع ابتسامة عذبة، أنت مصرّ على تعذيبي. تعرف مقتلي. دبرّ راسك إذا متّ، الجريمة وقعت في بيتك! أيّ صوت يأتي الآن من الذاكرة؟ أيّ مخلوق يولد الآن بين الأنين والشهقة والخوف؟ ما أحوجني إلى وجودك. أحتاجك، في حاجة ماسّة إليك. من يقولها للآخر؟ قلتُ لك ما كان في القلب خرج دفعة واحدة ولم يعد سرّاً. يا أحمق أريد أن أتمدّد على صدرك. أن لا أتذكّر شيئاً غير وجهك. أن أنفذ داخل حزنك كالإبرة.

أيّ شوق يأتي؟! أيّ حنين يبقى عندما يغادرك بلا وداع، بلا ذنب مسبق، بلا هوادة، من تحبّ في مدينة محزونة لا تملك إلا فجرها وبعضاً من بدايات ليلها، أيّ ذاكرة تستطيع التذكّر أيّها الرّجل الصغير، عندما يغزوه جسد أنثويّ ممتلئ بخفائه وتجلّياته وإبهاماته، بطوله وكماله ليتحوّل إلى قطرة ندى بلّوريّة من المطر، أو ثلج المغاور العجيبة، داخل مقام موسيقي مذهل؟

«هذا أنت؟! لماذا تأخّرت كلّ هذا الزمن؟».

قلتِها بخجل المحبّ. هل كان من الضروري أن تحتفظ بسرّك داخل سرّك المستباح أيّها الرّجل الصغير. كما كانت تسمّيك أمّك؟

---

(1) Fausto papetti.

ـ أعطني كأساً. أريد أن أشرب على ذهولك وصبرك.

الكأس الأولى والثانية. لا ثانية بلا ثالثة، قالها لك صاحب حانة في باريس في «لِكوَبْلان Les gobelins» وهو يداعبك أنت وأَنَاطُولْيَا. غمغمتِ تبحثين عن جسدي. أحبّك. ها هي المسافة صارت قريبة. ها هي لحظة الاغتصاب تذبل وها هو وجهك يعود إلى صباحاته. أحبّك. أحمق وحمقاء في فضاء لا يستوى إلا لحظة جنونه. تمدّدت على الصدر المثقل بالأسئلة الّتي تعقّدت إجاباتها. لأوّل مرّة أشعر بنهم الممارسة لطقوس الفرح والعنفوان. تنتابني الآن، وسط هذا الفيض وهذه الدهشة، رغبة الكتابة على صدرك. اليد في اليد. نغيب داخل أفق أرضه بحر وسماؤه غيمة. آه!! مريم، يا سحر الغواية وصمت العاشق ولغة القدّيس... الّذين اغتصبوك كانوا قتلة... قتلة... قتلة... تزحلقت يدي إلى صدرك. نهديك. كنتِ طريّة مثل غيمة. غيمتي البنفسجيّة، وعالية مثل الوهم. يسرح صوت «فوستو» داخل خلايا الدّم محمولاً داخل قطرة نبيذ أو ويسكي أو ريكار تتشهّينه أكثر من أيّ مشروب آخر. يخترق الأفق. أمدّ شفتي إلى الحلمتين. حارّة مثل هذه الوحدة. كنتِ مريم!!

كنتِ حقيقتي الوحيدة.

قبّلتُ جسدك من شعرة الرأس إلى القدم المتقن والصغير الّذي يحمل جسدك. كنتِ تغيمين مثل المسحور المجنون بذهول اللّحظة الّتي لا تصدّق إلا بصعوبة. وظللت تغيبين داخل جسدي حتّى انتهت حرقتك في الأعماق. سمعتها تسقط شيئاً فشيئاً كالريشة، محدثة صوتاً سكونيّاً هامساً، حتّى انطفأت. هل تراني؟!

ـ هل تراني؟!

كانت الأشواق تندفع دفعة واحدة مثل الفرح الممزوج بخوف مزمن. انتابتني رغبة البكاء. اسكت. لا تبكِ، لستَ امرأة. النّساء فقط يبكين في بلدتنا. النّساء وحدهن يبكين. وهل هي شتيمة؟! إنهنّ نبيّات ملهمات، أكثر قدرة على ارتكاب حماقة الانتهاء والموت مقابل

لحظة فرح تقاس بالسنوات الضوئيّة. حوّاء لم تكن هزيمة آدم. كانت غوايته الكبيرة. رضي بالعيش القدسيّ، وفضّلت أن تكون بشراً تحيا وتموت. لهذا كانت أكثر إصراراً على الوجد وكان أكثر إصراراً على العودة إلى جنّته الأولى. كشَفَتْ عورته. ولو كان هناك رجل آخر غير آدم، كانت قد عشقته بكلِّ عنفوان. خَلاصْ، أنتِ صرتِ مجنونة!! واش راك تقول يا هذا الرّجل؟ يا هذا البشري المسكون بحبّة بلّور. أريد أن أبكي، أن أسترجع صمت الطفّولة. هول شوق السنين الّتي مضت بلا نشوة.

آه يا مريم.

- حبيبي.

غواية الكلمات ونعيمها. يا مريم! لو حدث الّذي كان يجب أن يحدث لاختصرت عليَّ صمتَ الأزمنة القاسية وعذابات الوحدة. تأمّلتكِ مأخوذاً داخل غيمة اللّحظة. كنت تشهقين في أفق ضيّع ألوانه المعهودة. كالغريب كنت. أبحث عن مأوى داخل عينيك. داخل بحر الأشواق المخبوءة في الصدر. لقد سرق المعتوه تلك اللّيلة فرحك. لم يحصل على دفئك إلا باغتصابك. أيّة لذّة ينجبها الاغتصاب؟ أبحث عنك داخل لؤلؤة صغيرة من دموعك الّتي بكيتها تلك اللّيلة وأنت تتأمّلين وجهك المجروح في المرآة وتتلمّسين بقايا اللّزوجة وبقع الدّم. قلتِ. لابدّ أن يكون العالم مصاغاً بشكل رديء. تحوّل كلّ شيء في يدك إلى نقيضه. كأس القهوة فقدت متعتها، فصارت قطراناً أسود. دخل الدّم بقوّة إلى عينيك الهادئتين. شعرتُ بالحزن يملؤك وبقلبك يتدحرج في فمك، وبجسدك تثقل ظلاله ويخفّ، يخفّ حتّى تسقطي. لم تصدقّي عينيك. ماذا حدث؟ كانت المرآة شاهدك الكبير.

حين خرجت، لأوّل مرّة تشعرين بمتعة تنفّس هواء الشّوارع. الدروب الّتي كانت تضيق صارت فجأة واسعة واسعة، نفذ إلى رئتيك الهواء البارد القادم من البحر. كانت الأمطار قد بدأت تتساقط. مجنونة المطر. قلتِ. من السخرية حمل المظلّات في فصل كهذا. إنّه

الغباء نفسُه. ما أدهش العاشق وهو يُعمَّد بمياه المطر! فتحتِ فمك على سعته، وتركتِ قطرات المطر، تنسحب الواحدة تلو الأخرى باردة إلى أعماقك. تذكّرتِ طفولتك، قلتِ وأنتِ تبحثين عن شوقك بين تقاطيع الجسد. تعرف!! كنّا مثل المجنونات الهَبِيلات. نملأ ورق البَرْوَاف بمياه الأمطار الصافية الّتي تملأ حفر الصخور، ونتسابق لشربها. كلّ واحد يصرخ. هذه لي. هذه صخرتي. هذه بروافتي. لم نمرض، لأنَّ المريض في ذلك الزمن الّذي صار بعيداً يعدّ ميتاً. نأكل الحشائش الّتي نعرف أنواعها من ألوانها ونوارها وشوكها، وشكل انحناءاتها. دقّ المراس، التافغة. العسلوج. الحميّضة. اللّوز المرّ الّذي يثير شهوة الأشياء. ونتمرّغ داخل فضاءات النوار وبنَعَّمان، والجرجير الأبيض والأصفر. ونشوي أرانب الخلاء. والقنافذ الّتي يتزيّت جلدها المشوّك بسرعة. والجراد. والبلالة. والطّيور البريّة والبحريّة. والببُّوش والعصافير وحليب الأشجار والنباتات الصغيرة والكبيرة. كانت أيّاماً طفولية بألوان كثيرة، انمحت بسرعة، آخذة معها فرحتنا وبراءتنا وأشياءنا الصغيرة. كانت رائحة جسدك الّذي بدأ ينكسر ويتعلّق بقوّة بمفاصلي. قلتِ وأنت تمسحين العرق من جبهتي: هل الخرفان تأكل الذئاب؟؟ يجب أن يكون هذا في هذا الفراغ الموحش وهذه الوحدة العازلة. عليك أن تصدّق قبل أن تضع الفراش على وجهك. لقد تغيّرت أشياء كثيرة، وبقينا نحن ها هنا في أماكننا الأولى، مرسّخين. يجب أن تصدّق قبل أن تسافر في الغمامة البيّضاء. قبل أن يمتلئ مخّك بالتراب. حدث هذا يوم الجمعة الحزينة.

ما أحزنك أيّها الجمعة الحزينة. أيّها العشاء الأخير!

عندما فتحتِ عينيك، من سحر الغيمة البنفسجيّة قلتِ: جئتك لأنّي أحبّك. لأنّي أعشق صمتك وهجرتك داخل مدينة بدأت تغادرك، أو بدأتَ تغادرها. لا يهمّ. المهمّ هو أنَّ المسافة تزداد بينكما اتّساعاً يوماً بعد يوم.

صمتُّ. خفت أن تكون كلّ كلماتي باردة. صمتُّ وامتلأتْ عيناي

بشيء يشبه الكلمات البلّوريّة الملوّنة. غطيّت جسدك الّذي كان يشعّ تحت الضوء الخافت. قلتِ بعد راحة:

ـ ناولني لباسي.

مَنْ يناول مَنْ؟

ثمَّ بدأنا نتأمّل الألبسة المنتشرة داخل الحجرة الضيّقة. سروالي عند النّافذة. لباس اللّيناج الأسود فوق الزربية المغربيّة مكوّماً بشكل فوضويّ. قميصي. مسحت الحجرة بعيني. لم أجده. ضحكتِ. قلتِ. قميصك بين «البافل» و«السترپو». تأمّلنا مليّاً هذا الفضاء بفوضاه الخاصّة وبشعريّته. تبّانك كان مستلقياً على الكتاب الأزرق الملوّن. نظرتِ بعينين عاشقتين.

ـ نحن أصحاب كلّ هذا الإنجاز العظيم؟!

ـ من تريدين؟ نقوم؟

ـ لا. رانا ملاح.

وحياتك ملاح. ملوك هذا الزمن الأغبر. سعداء اللّحظة الّتي تنقش في متاعب الذاكرة. لا أريد أن أفسد هذه اللّحظة العظيمة. الرأس يؤلمني. وحياتك، هذا الألم صار يزعجني هذه الأيّام بقوّة، لكنّي وجدتك ولن أضيّعك. لن أكسر رأسك بتخريفي. لكنّها الرصاصة بنت الكلب الّتي نامت في الدماغ. إنّها تستفزّني في لحظات عنفواني وفرحي. وضعتِ ظهرك على الحائط، بينما بقيتْ رجلاك داخل الفراش. وضعتِ رأسك بين يديك. آخ. قلتِ. أريد أن أبكي. ليس ألماً، ولكن لهذه الثّواني الّتي تسرقها الرصاصة من كياني. تصوّر. ندفع الثمن، ويتدمقرطُ القتلة فجأة، ينسحب بنو كلبون، ويأتي حرّاس النّوايا بفيضهم الكبير. الرصاصة الملعونة. عندما دخلتْ خلّفَتْ فراغاً كبيراً داخل الدماغ لا يسدّه إلا جلد رهيف يغطّيه شعر الرأس.

ـ تلمَّسْ. شفت؟

أخذتِ أصابعي، وأدخلتِها بين خصلات شعرك. كان المكان مغلقاً ولكن بدون عظام. سحبتِ قرصاً من حقيبتك الجلديّة الرّماديّة، ثمَّ هدأت لحظة بعد أن شربت كأس ماء جئتُ بها من المطبخ. قلتِ وأنتِ تضحكين. هاه. هكذا جعلتك تتجرّأ وتمشي أمام امرأة عارياً. لو كنتُ بمستوى صديقك الفنّان محمّد خدّة، كنت اخترتُ لك لوناً مميزاً أو أنحتك وسأختار لك بعضاً من المقاييس اليونانيّة وأخرى سورياليّة. ثمَّ بدأت تقهقهين. الآن نسيتُ ألمي. وهل يُنسى الألم يا ابنة النّاس؟ مددتِ يدَك إلى يدي. قلتِ. ضمّني بقوّة. إنّي خائفة. لم أسأل ممّن، ولكنّي رأيت في عينيك غزلاناً تتذابح على أطراف بحيرة، لون مائها أحمر. قلتُ نَقوم. تعبْتِ. قلتِ بتثاقل:

ـ هكذا، رَانَا مْلاحْ.

هذه الهرّة تجرّأت على السؤال.

ـ هل عُدْتِ إلى الطّبيب؟

ـ كلّ الأطبّاء يقولون الكلام نفسه. صديقك الفلسطيني ساعدني كثيراً. بالنّسبة للتحاليل، يقولون إنَّ الرصاصة ما تزال في مكانها لم تتحرّك إلا إنشاً واحداً. ينصحونني كالعادة بعدم التحرّك كثيراً، على الأقلّ بالتقليل من الانفعالات. وهل تتصوّر رقصاً بدون انفعالات؟ بدون تحريك للرأس؟ وحياتك أنتحر، إذا أصبح رأسي عائقاً. رغم خوف أَنَاطُولْيَا لم يحدث ما يخيف. الأطبّاء هذه المرّة لم يَصْدقوا في كلامهم. قدّمنا العرض الأخير للبربريّة. كان مدهشاً. كتبت عنه الصحافة بإعجاب متحدّثة عن إمكانيّة إحداث باليه وطني متطوّر. صحيح أنّي شعرت بدوار خفيف، ولكن بمجرّد شرب الأقراص، كلّ شيء هدأ. دفعنا الثمن، من حقّنا أن نرقص، ونصرخ. منذ أحداث 5 أكتوبر 1988، أصبح بإمكان الإنسان أن يفتح فمه قليلاً للهواء، لكن الكثير من المحسوبين على البشر، أصبحوا يفتحونه على سعته، ليتحوّل الحديث اليومي المكتوب والمرئي، والشفهي، إلى نباح وإلى إصرار مستميت لإعادة البلاد إلى أهوال قيامة القرون الوسطى.

حرّاس النّوايا بدؤوا يتحوّلون إلى جيش منظّم يتحكّم في عنفوان المدينة. تعرف؟! لم أعد أشعر في هذه المدينة بأيّ أمن أبداً. بإمكانهم أن يخرجوا من كأس قهوتك المسائيّة، أو من فجوات حيطان حجرة النّوم، وينصبون مشانقهم ويجهّزون النطع لقطع رأس يرى أكثر ممّا ينبغي.

كنت صامتاً، مأزوماً بإحساساتها، بإمكاني الآن أن أستعيدك. وأستعيد كلّ القصاصات التّي كنتِ تتركينها تحت الباب، عندما لا تجدينني. أقرأ الخيبة بين سطور الوريقات المليئة بالبياض. «كنت أودّ أن أراك ولو للحظة. لكن حظّي... أرجو أن أراك غداً صباحاً انتظرني. في شوق كبير. أحبّك. Je t'aime très fort. صديقتك في هذه المدينة الموحشة...».

وريقات كثيرة، وقصاصات لا تُعدّ تملأ دماغي.

تململتِ مرّة أخرى في الفراش، بعد أن شربت أقراصاً ملوّنة.

ـ أوف علينا أن نأكل هذا السمّ لكي نعيش.

ـ ... ...

ـ أوف. لا تخف. لن أموت بسهولة كما يتصوّر الأطبّاء. أحاول قدر المستطاع أن أتفادى ما يحرّكها، ولكنّي لا أستطيع أن أتفاداك. أن أتفادى لحظة الشوق معك. مجنونة بك وبالرّقص والموسيقى، ومع ذلك لن تقتلني رصاصة أكتوبر العظيم، والبئيس في الآن نفسه. سأعشقك كلّ يوم أكثر. سأحارب الموت الرخيص ولتأتِ القيامة بعدها إذا شاءت. خلّها على الله يا رَجُلْ!

كان وجهها قد بدأ يحمرُّ من جديد ويستعيد صفاءه المعهود بعد الدوخة.

ـ حماقة أن يعشق المرء وجسده مليء بالموانع.

يا سيدي خلّها على الله. لست الأولى التّي يقال لها: حافظي على حياتك ولا ترقصي. حكت لي أَنَاطُولْيَا قصصاً كثيرة عن راقصة

الباليه العظيمة. أعرفها. بل رأيتها، إيكاترينا ماكسيموفا، ولدت لتكون راقصة. الفتاة المغناج، الساذجة، النزويّة، الرقيقة، الطيّبة القلب. طفلة مسرح البولشوي كما وصفها النقّاد الأجانب. ظنّوها لعوباً. أخرج لها أستاذ الرقص «كاسيان كوليزوفسكي» خصّيصاً «مازوركا» على موسيقى «سكريابين» باستخدام الغنج الماكر. لكن غريغوريفيتش هو الّذي أعطاها دور الفتاة الروسيّة التّي ينقذ حبّها المعلّم دانيال من سحر صاحبة حبل النحاس في عرض «زهرة من حجر» وأثبتت أنّها ملكة الأدوار الدراميّة والنفسيّة المعقّدة. عاشت مع حبيبها وزوجها «فلادمير فلاسيلييف» المشهور وصنفّت ضمن أفضل خمس راقصات في البولشوي. إنّها، هي وزوجها، ثنائي مدهش. وفجأة حدث ذلك في أحد التمارين. الّذي كان يراقصها أمسكها مسكة غير محترفة. فاستدارت استدارة غير موفّقة. أحسّت بألم شديد. بعدها قال لها الأطبّاء عندما عادت إلى البيت بصعوبة كبيرة: «احمدي ربّك أنّكِ وصلتِ إلى بيتك!» قالت: لكنّني راقصة باليه. أموت ولا أركن في البيت. لم أخلق للموت بين الحيطان. قالوا لها: انسي يا كاتيا مسألة الباليه. الإصابة كانت قاسية. في الفقرات وبعض الأعصاب. واضطرّت إلى النوم في وضعيّة غير مألوفة. استمرّت عامين بالتعاون مع طبيبها فلاديمير لوتشكوف. وعندما قامت، ظلّت تتمرّن بلا رأفة بنفسها. كانت تبكي من شدّة الألم ولكنّها تفرح لهول المقاومة. استعادت حركاتها وعادت إلى الجمهور. اليوم، عندما تطلّ ماكسيموفا في مسرح البولشوي تضُجُّ بالتصفيق القاعة الحمراء الذهبيّة ذات الأدوار الخمسة.

ـ عادت بإرادتها. لماذا لا أكون مثلها؟

ـ ولكنّها رصاصة يا مريم!

ـ ليكن! أنا أكبر من بؤس هذه الرصاصة!

تصوّر! خرجت من بؤس زوج أنهكته العقد، لأسقط في فم رصاصة ساخنة. إنّي أحملها معي، مثل سائح مولع بتذكارٍ ما. لكنّها

في الدماغ وإلى الأبد، وكان يمكن أن تصيبني في القلب ولكنّها لم تفعل وأنا سعيدة أنّها لم تفعل. أَنَاطُولْيَا بكت كثيراً في ذلك اليوم وأنت لم تصدّق الحكاية إلا بصعوبة. حاولَتْ أن تقنعني وهي غير مقتنعة بأنَّ الرقص سيؤذيني. وعندما سألتها بشكل فجائيّ:

- أنتِ مقتنعة بقولك يا أَنَاطُولْيَا؟!

ابتسمت، ودفنت رأسها في صدري، ثمَّ عانقتني وقالت بنوع من الخجل البادي من خلال شقرتها:

- أخاف عليك يا مريم. لا أريد أن أفقدك.

مع أنَّ المسألة صارت عاديّة، ولكن حتّى اليوم، عندما أتذكّر أنَّ في رأسي رصاصة، أذهب إلى صديقك الطّبيب الفلسطيني. آخذ موعداً معه من أجل فحص «السكانير»، وفي أغلب الأوقات يضبط المسكين كلّ شيء من تلقاء نفسه. أملأ حقيبتي اليدويّة بالأدوية النادرة والأوراق والنصائح، وأخرج. وعندما أصل صالة الرقص أنسى كلّ شيء ولا أتذكّر إلا دهشة اللّحظة الّتي أقف فيها باستقامة في مواجهة الأضواء ومجاهيل الخشبة، والوجوه الّتي لا شغل لها سوى التمتّع بروعة هذه الدهشة. من حقّهم. إنّهم يدفعون ثمن هذه اللّحظة. حتّى البربريّة أدّيتها في العروض الّتي تلت إصابتي بشكل مذهل. هكذا يقول النّقاد. أنتَ حضرت العرض الأوّل وكنت في صحّة جيّدة، لكن الّذين حضروا عروضي بعد الإصابة، خارج العاصمة كانوا مطمئنّين جدّاً. لم تكن رديئة مطلقاً. يبدو أنّه Il y'a plus de peur que de mal. سكيكدة. عنّابة. تيزي وزو. تلمسان، سيدي بلعباس. وهران. البجاية... كلّها اهتزّت للبربريّة ولا أحد يعلم أنَّ البربريّة كانت تحمل في دماغها رصاصة الموت. هذا فرحي. وبعدها فلتأت النهاية العظيمة على الخشبة. هذه الخرجات، كلّفتنا الكثير من راقصات الباليه في الفرقة الوطنيّة. سرقهنّ الرّاي(1).

---

(1) نوع من الغناء الراقص.

«أَنَاطُولْيَا تُكوّن... والرّاي يَجِدُها طايْبَه.»

مسكينة أَنَاطُولْيَا، التجّار في هذه البلاد لا يرحمون. الشّاب حكيم، كوّن فرقته على ظهرها. طاكفا ريناس سرق ما تبقّى. الدراهم يَغْيمِوا لَبصَارْ! حتّى أَنَاطُولْيَا بدأت تيأس من كلّ ما يحيط بها، ومع ذلك فهي تقاوم. وتبرِّر يأسها دائماً بما يحدث في العالم كلّه، في بلدها، في بلدنا، بالعمر الّذي يزحف بقوّة. يا الله!! كلّه محصّل بعضه، كما يقول صديقك الطّبيب الفلسطيني.

عندما انتبهتْ أنّها ما تزال عارية، ضحكتْ، مع ابتسامة عريضة.

- «أوف!! أنت الواحد ما يحكمك في هذا البيت إلا بصعوبة. وإذا حكمك ما يطّلَقْكْشِ».

ارتدتْ ألبستها. تبّانها البحري الّذي يمنح خصرها استدارة متقنة. بدت مستقيمة كعود النوار متألّقة ورقيقة بنعومة. ثمَّ انحنت لتأخذ الحمّالتين، بلون التبّان، وضعتهما برهافة على صدرها. كان اللّون الأزرق شارداً، هارباً داخل أفق مسروق باتّجاه فراغ كبير وواسع. حملتْ نهديها قليلاً، لتسوية الحمّالتين. شعرت بشعلات كبيرة تنشأ في داخلي. بلهيبها، ونيرانها المقدّسة. شيء ما في الدّاخل يميل نحو القداسة، يفوق الرغبة اليوميّة.

انتهت من ارتداء ألبستها، تمدّدت من جديد على السرير، وبدأت تتأمّل حيطان حجرة النوم. كانت بيضاء كلّها، لا توجد بها إلا صورة كبيرة لها، وهي منكفئة على قدميها، بلباس حريري أبيض خفيف. يداها ممتدّتان إلى الوراء ورأسها نصف منحنٍ ومندفع إلى الأمام وسط منصّة واسعة. كتب تحت الصورة «الجمعة الحزينة. مريم البربريّة». بجانبها صورة كاتيا ماكسيموفا بالمقاس نفسه تقريباً. قامت من مكانها. مسّدت على الصورة بأصابعها الرقيقة، ثمَّ ابتعدت قليلاً وبدأت تتأمّلها بحزن وباندهاش وبحبّ كبير.

ـ تعرف!! هذه هي المرّة الأولى الّتي أعرف فيها أنّي بهذا الحجم في عينيك.

ـ أنت لست سهلة يا مريم. راقصة باليه كاملة.

هزّت رأسها مرّة أخرى:

ـ رائعة، مدهشة هذه الحركة.

ـ أخذها لك مصوّر صديق في عرض البربريّة. عندما رأيتها أعجبتني فقلت له كبِّرها.

ـ يا ترى ماذا تفعل عندما أموت؟

ـ يكفي من الكلام الفارغ.

ـ أفهم من كلمة «الجمعة الحزينة» يوم إصابتي.

ـ طبعاً.

ـ إنّي أحمل رصاصة في هذا الدماغ المتعب. ومع ذلك، كم أريد أن أعيش معك. لماذا صمَتَّ كلّ هذا الزمن؟

ـ أنْتِ أخرستني.

أحنت رأسها. اتّكأت على الأريكة بعد أن تدحرجت قليلاً في مشيتها باتّجاه الصالون. فتَّشَتْ عن «شهرزاد». وضعتها في الستريو، ثمّ انكفأت قليلاً وعادت تتأمّل من جديد في فراغ غير واضح المعالم. الجمعة الحزينة!! قالتها بهدوء. لو أجد فقط متّسعاً لأحبّك أكثر. لأعبدك ولتتحمّل حماقاتي. لو أنتهي فقط من تجسيد «شهرزاد». إنّها في دمي. أتمنّى أن أؤدّيها لصالح الباليه الوطني. وبعدها أهلاً بالموت العظيم. أريدك أن تكون حاضراً. أن تكون أوّل من يهديني ورداً. وعندما أموت أريدك أن تكون آخر من أسبل على صورته أجفاني.

ـ لماذا تضخّمين المأساة؟ سأهديك ورداً. وسأقبّلك على

المنصّة بقوّة. وأوّل من يدعوك إلى الحياة لا إلى الموت. الجمعة الحزينة صار في الذّاكرة والرصاصة الّتي في دماغك هي جزء من هذه الذاكرة المجروحة.

ماذا تريدين يا مريم؟ قلتُها قبل هذا الزمن. خلّها على الله. كلّنا يحمل في الدماغ رصاصات، بل عيارات مدفعيّة. نحمل حزناً بثقل القرون الّتي مرّت بجفاف مدقع، لم نرث منها إلا كيف نموت ووضعنا كلّ شيء له علاقة بالحياة في المزابل ومسحنا به وسخ الشّوارع. نحْمل معك حتماً أهوال الجمعة الحزينة وجنازاته السرّية وأشلاء أناسه. الفارق الوحيد أنَّ الرصاصة حقيقيّة في دماغك تذكّرك بوجودها كلّما نسيتها، بينما يحدث أن ننسى ذاكرتنا وننغمس في أحزان التفاهات اليوميّة.

ـ هل يجب أن نموت قبل الأوان؟

ملعونة الجمعة الحزينة!! ملعون ذلك اليوم، لأنّه في لحظة من اللّحظات سيحرمني منك بفظاعة. كان مؤذياً ذلك الخريف الغاضب. ابتدأتِ الوقائع يوم الثلاثاء ليلاً في الأزقّة الضيّقة في باب الوادي. مراكز الفقر والجوع. المشادّات كانت عنيفة جدّاً. بدأت بالرشق ثمّ انتهت إلى الحرق. وعندما بدأت خيوط النّار تشقّ سماء الخريف والعواصف، بدأت المزهريّات والزيت الساخن والحجارة، والأواني المطبخيّة تتساقط من شرفات الطوابق العالية والزغاريد تستعيد أمجادها القديمة. تحوّلت تلك اللّيلة إلى عواء للذئاب الضّالّة. حاولتُ أن أنزل ـ قلتِ وأنت تمسحين العرق الّذي ينضح ويتحوّل إلى كويرات صغيرة وناعمة ـ لكنَّ أمّي منعتني. عمّي انزوى كعادته وظلّ يبسمل ويحوقل ويفكّ الحروف القرآنيّة بعَدَسَات القراءة. ثمَّ قام من مكانه ووقف عند جدار سميك داخل البيت وبدأ يُشَهّد ويُشهّد ويتمتم. الله أكبر. الله أكبر. النّفير الكبير. لقد نُفِخَ في الصور. يأجوج ومأجوج يملؤون البلاد. ارحمنا يا ربّنا. القاتل والمقتول في جهنّم وبئس المصير. ثمَّ لم أعد أفهم ما يقوله. في الصباح الباكر أصبح

بُوشْكَارة[1] يدور، يدخل البيوت. ينظر من وراء عينيه المكشوفتين. يتأمّل المشهد. يهزّ رأسه ثمَّ يخرج. لا أعرف مَنْ بوشكارة الّذي دخل إلى بيتنا في باب الوادي ولكنّه عندما التفت لينزل، شعرت بأنّي أعرفه، وأنّي رأيته وحتى الآن لا أعرف بالضبط من كان ذلك المخلوق. في اليوم نفسه التقيت معك بالمعهد الأعلى للفنون الجميلة. حدّثتك عن تلك اللّيلة البيضاء، وفجأة سمعنا دويّاً مثل البحر، ينزل من فوق على رأس المدينة. كانت الموجة البشريّة كبيرة، حطّموا كلّ شيء في طريقهم، لم تنجُ منهم السّيارات الّتي تحمل أرقاماً حمراء أو مؤشّرات حكوميّة، والهوندات، سيّارة مدير المعهد لم يتركوا فيها شيئاً أبداً. عجنوها. قلتَ لي، الأفضل أن لا ترجعي إلى البيت أو لا تبقي فيه. اطلعي عند خالتك. زيارة بوشكارة غير مطمئنة. ما بقي في ذهني من ذلك اليوم هو ملاحظتك وأنت تتأمّلين الباب الحديديّ للجامعة وقد تحوّل مثل اللّعبة الرديئة. يامحمد الإنسان عندما يُظلم يتوحّش. أعمدة حديديّة، بقطر كبير، ضُغطت وعُوّجتْ مثل اللّعبة المكسورة. دخلوا إلى السَّاحة وظلّوا يصرخون. الطلبة الشمايت[2]! الطلبة الطحانين! كانوا أطفالاً صغاراً. من الثانويات، في رؤوسهم أحلام كثيرة دفنت حيّة قبل الأوان. قلتِ لي. المظلوم مجنون والجوع كافر. المظلوم مثل العاشق لا يعرف العاقبة ولا يحسب حسابها مطلقاً. قلتِ، لنمشِ. سرنا في وسط الجموع الملتهبة. كانت الشّوارع مغلقة، والمحلات نصف موصدة. قبل فترة وجيزة. وُزِّعت وثائق سرّية تدعو إلى الإضراب العامّ يوم 5 أكتوبر 1988. حضارة النفط يا حبيبتي. قلتها لي وأنت تفرك يديك في ذلك الصباح الخريفيّ. نزل سعر البرميل، عادت البلاد إلى بدائيّتها الأولى. حتّى رئيس هذه البلاد جمد الكلام في حلقه وامتلأت قسماته بالشكوك ولم يعرف من أين يبدأ. في المرّة الأولى، بعد خطاب

(1) المخْبِر (كان في فترة الاستعمار يُسمّى هكذا).
(2) الجبناء.

محشوّ بالوطنيّات، قال بلادنا قويّة واقتصادنا متين. في المرّة الثانية، قال بدأنا نتعرَّض لمضايقات بسبب مواقفنا الوطنيّة. في المرّة الأخيرة كان صوته على الشاشة مختلطاً ووجهه غير واضح. بقي أن يقول إنّنا سنتعرَّض للمجاعة بعد زمن قصير. بينما كانت الفِلات، والبنايات المرمريّة ذات الطوابق المتعدِّدة تأكل ما تبقّى من خضرة هذه الأرض. والسيّارات الفارهة تعلم عن وجودها المسبق في هذه البلاد الفقيرة بخيراتها، وأخبار سرقة البنك الوطني وسرقة كتلته الذهبيّة تملأ آذان الغادي والرّائح. البلاد صارت لهم ولم تعد لنا. «حُوتْ يَأكُلْ حُوتْ». الدّنيا خْلاثْ على المسكين. كنّا مأخوذين بما حدث ويحدث. حتّى القبّعات الزرقاء كما يسمّونهم عندنا Les casques bleus كان الخوف يقرأ في عيونهم بقوّة. الشرطة الّتي تعودّت على تطويق المدينة بشكلٍ دائم، لم نرَ لها أثراً. شيءٌ ما كان غامضاً ولم يكن مفهوماً على الإطلاق. وسط كلّ هذا الفضاء الموبوء لا نجد شرطيّاً واحداً، ما عدا قوّات التدخّل السريع الّتي أغلقت السّاحات في وسط المدينة، والنّفق الجامعي، ومدخل ديدوش مراد وشاراش وطوّقت الساحات الكبرى. ساحة أوّل ماي. ساحة الشهداء. وبوّابات البحر... وفتحت على الجموع الممتدّة القنابل المسيلة للدموع. لم تكن المعركة كبيرة ولا طويلة. فقد اندفع السيل البشري باتّجاه شارع باستور ليندفع نحو مقرّ الحاكم العام الّذي حوّل إلى مقرّ مركزي للحزب. البناية كانت كبيرة. لابدَّ وأن تكون قد حيكت فيها الدسائس المناهضة لأفراح البلاد والعباد. وعند افتراقنا في المساء، لم نكن نظنّ أنَّ الدنيا ستزداد احتراقاً، وستتحوّل إلى جحيم في الأيّام الموالية، وأنَّ الجيش الوطني في لحظة من اللّحظات يصبح غير وطني. الجيش، جيش وكفى. عندما يؤمَر، ينفّذ. العالم يتغيّر. ونظرتنا ما تزال في أفقها المغلق. في المساء نفسه، قالت لي أمّي، فكرتك جيّدة ولخالتك حقّ علينا. يا بنتي خالتك خيرها سابق وبوشكارة قد يفاجئنا. كانت تقصد بالخير السابق، سيّارة 205 الفضيّة الّتي باعتها لي بنت خالتي بنصف ثمنها بعد أن ضربت

جانبها الأيسر شاحنة، وهي تعبر منعرج بني مسوس[1]. كانت قادمة من المستشفى. هذه السيّارة هي الّتي أخرجتني من فراغات الموت الّتي قذفني إليها هذا الزواج المبكّر. هي الّتي ملأت حزني. البحر صار في جيبي وفي قلبي. بيتك وبيت أَنَاطُولْيَا صار سهلاً عليّ زيارتهما، لاسيّما في مدينة تصرّ دائماً على تعذيبنا بقوّة. أمّي الّتي سخرت منّي يوم حصلت على رخصة السياقة: ورقة بِلا لُوطو[2]، هي نفسها الّتي أخذتني معها إلى البريد. لتسلّم منحة الشهيد الخاصّة في إطار سياسة إعادة الاعتبار. في هذه السيّارة شيء من دم أبي السيّ لحسن. كلّما ركبتها خلته بجانبي، يحدّثني، يفرح معي، ويتألّم عندما يراني حزينة. كانت الفرصة مناسبة. صلّحت السيّارة، حتّى صار كلّ ما يلقاني يكرّر كلمته المعتادة Ta 205. C'est une bonne affaire. الله. الله...

كانت خالتي الوهرانيّة صفراء مثل قشرة ليمون. و«باش جراح» مطوّقة. وجهها شاخ كثيراً في الأيّام الأخيرة. زوجها كان على علم بالكثير ممّا كان يحدث في هذا البلد. مهنته كسائق في جهاز الدولة عرّفته على الكثير من الخرائب. قالت خالتي وهي تمسح وجهها الّذي اصفرّ، بحثاً عن قطرة دم، إنّهم يهرِّبون أبناءهم خارج البلاد. يبدو أنّ المسألة كبيرة. الأموات والدّم. أجبروه مسكين على العمل والمداومة حتّى في اللّيل. مسكين. مهنة السائق مهنة مكشوفة[3]. يبات يوصّل ويجيب!؟ خايفة تصيبه رصاصة طايشة. عاش ما كسب. مات ما خلّى[4] كروشهم تكبر، وهو كلّ يوم يصغر وعمره ينقص. حتّى الآن لم يأتِ. الله يجيبها في الخير. قضينا اللّيلة عند خالتي الوهرانيّة الّتي نامت وهي تتحدّث عمّا سمعته من زوجها

(1) منطقة في مرتفعات الجزائر العاصمة.
(2) بلا سيّارة.
(3) مرهقة.
(4) ما ترك شيئاً.

ومن النّساء. في آخر اللّيل، سمعت صوت تكسّر الماء. عرفت أنّ زوج خالتي قد عاد وهو يتوضّأ ليصلّي اليوم المتأخّر بكامل أوقاته. في الصباح سمعت البحر يرحل، والطيور تحترق في الفضاءات الخانقة. فكّرت أن أنزل عندك، لكن الأدخنة والحرائق منعتني. نزلت أنا وبنت خالتي، في «باش جراح» على الرّغم من إلحاحات أمّي بعدم النّزول. كانت الجموع تزحف باتّجاه الكوميساريّة. في لحظةٍ ما، بدا لي كأنّهم يحملونها من جذورها على ظهورهم ويرمونها في الفراغ. كانوا يصرخون بشكل يشبه الهدير، الّذي مايزال يملأ أذنيّ. أطلقت النّار عليهم ولكنّهم لم يتوقّفوا. قبضوا على مسؤول الشرطة. وضعوه داخل إطارات السيّارات، ثمّ أشعلوا النّار فيها بعد أن كبّوا عليها البنزين. كان عارياً مثل الفأر. ماعدا الصرخات الأولى، فقد صمت تحت الأدخنة الكثيفة ولم يعد يظهر شيء. فقد غطّت السماءَ سحابة كثيفة سوداء. التأمت المجموعة البشريّة من جديد، بصعوبة كبيرة، لتبدأ زحفها باتّجاه الثكنة للاستيلاء على الأسلحة. لا يمكن أن نفهم كلمة واحدة من هذا الهدير المخيف، الّذي يُشوِّكُ اللّحم. كان من الصعب علينا العودة إلى الوراء، وشيء ما في داخلي كان يعذّبني ويدفعني باتّجاه التهلّكة. لم أنتبه إلا متأخّرة لضجيج الشاحنة الّتي كادت أن تدوسنا، وللشّاب الّذي كان على متنها وهو يصرخ، متوجِّهاً باتّجاه حائط الثكنة الّتي كانت محوطة بالجيش.

«خلّوني نموت، ونفلع لهم والديهم».

كان الرصاص يملأ السماء بالألوان الحمراء. الأطفال يلتصقون بالشاحنة ويتضاحكون وكأنّهم يمارسون ألعاباً خاصّة. سرعة الشاحنة تزداد أكثر فأكثر، الرصاص بدأ يصلها، يثقبها من كلّ جانِب. لم تتوقّف، حتّى اصطدمت بالحائط الأصفر القديم، محدثة ثقباً كبيراً. الكثير من المشايخ تذكّروا أيّام الثورة الوطنيّة ولم يفرقّوا، هل هم في هذا العصر أم في العصر الّذي انقرض. وأنا

أركض باتّجاه الشاحنة الّتي كانت النيران قد بدأت تشتعل في محرّكها، كان أنين السائق يزداد أكثر فأكثر والدماء تخرج من أبواب الشاحنة. شممت حتّى رائحة اللّحم البشريّ المشويّ. كانت بنت خالتي ورائي. تصرخ، يا مجنونة!! ارْجعي. وين رايْحَة. الرصاص. راهم يقتلوك! المجموعات بدأت تتراجع بفوضى كبيرة. وقبل أن أضغط على أسناني وأفتح الباب، شعرت بحرارة مفاجئة مصحوبة بألم شديد، تملأ داخل دماغي. تلمّست رأسي. كان خيط من الدّم ينزل بشكل مستقيم على خدّي. شعرت بدوار كبير. بدأ الدّم ينزل إلى رقبتي، ثمّ ألبستي الخريفيّة. حاولت أن أفتح الباب. كانت النّار تشتعل في مقصورة السياقة. حاولت أن أقبض على مقبض الباب الّذي كنت أريد أن أفتحه، ولكنّها ذهبت في الفراغ. تهاويت على جثّة كانت عند قدميّ. وجدت نفسي في الأرض، وجهاً لوجه مع الجثّة. كان فمه مفتوحاً والدّم يملأ عينيه. حاولت أن أغلقهما. خفت منهما وعندما لمستهما ارتفع الرأس قليلاً، تأمّلني جيّداً ثمّ صرخ: أبناء الكلاب. أبناء الكلاب. ثمّ امتلأ فمه بالدّم وسقط في ظلمة لا نهاية لها. حاولت أن أصرخ أنا كذلك. أن أقوم. أن أهرب من هذه العيون الّتي انغلقت على الدهشة لكن الظلام كان قد ملأني عن آخري ولم أعد أرى إلا الوجوه الكئيبة والقوافل العسكريّة وهي تغيب تحت خيط مكثّف ومرتجف من السراب الّذي غطّته الأدخنة المتصاعدة وروائح الجثث المحروقة. غزاني فجأة في اللّحظات الأخيرة، وجه أمّي، وَجْهُكَ. قسمات أَنَاطُولْيَا الهادئة وجه السيّ لَحْسَنْ الّذي صَنَعْتُهُ بدون أن أعرفه... ثمّ غبت داخل موجة سوداء ولم أستيقظ إلا في ساعة متأخّرة في مستشفى «مصطفى باشا»، على وجه صديقك الطّبيب الفلسطيني، ثمّ عرفت وجْهَكَ. أَنَاطُولْيَا. أمّي. عمّي الّذي كان شبه غائب وهو يقْبِضُ على يدي. سمعت الأطباء يحكون عن الرصاص الانفجاري الّذي مزّق الأجساد حتّى صار من العسير تخييطها ومسكها قال لي أحدهم مازحاً، وأنا في فراش الموت: احمدي الله أنّك مازلت حيّة. لو أصابتك رصاصة انفجاريّة، في

الرأس، لا ترحم!! يقولون إنّهم كانوا يضربون للأرجل والعجيب أنّ كثيراً من الصدور كانت ممزّقة والأدمغة منفجرة. شيءٌ ما غامضٌ كان يحدث في الخفاء. صديقتك الشاعرة تقول إنّها أُخِذَتْ من بيتها في ساعة متقدّمة من الفجر، قبل بداية الأحداث بيومين. كانوا مؤدَّبين معها. قالوا لها: البلاد تمرّ بلحظات حرجة. الحيطة واجبة. ضحكتْ في وجه الضابط. وهل أنا خطيرة إلى هذه الدرجة على أمن البلاد؟ هل صارت الكلمات تهدّد راحة الحكّام؟ تقول: أخذوني في سيّارة إسعاف، معصوبة العينين، لم أتذكّر إلا زمّورها وعدد الدرجات الّتي نزلتها والدورات الّتي درتها، لأنّي في لحظة من اللّحظات شعرت بنفسي أدور في المكان نفسه.

أوف. لقد صار بعيداً ذلك اليوم. الدّنيا تغيّرت كثيراً منذ تلك الرصاصة الطائشة الّتي ما تزال في رأسي. عندما غادرت المستشفى أفهموني بأنّ لمسها كثيراً سيؤدِّي إلى موتي والإكثار من الأدوية قد لا يكون أقلّ خطورة.

اليوم تآلفت مع الموت، أو هو تآلف معي، لا أدري؟

هي ذي اللّحظة الّتي توالدت بشقاء تعود إلى بداياتها الأولى. مريم انطفأت.

سرق قط كان يجري وراء فأر، منّي غفوتي. أساساً لا أدري إذا كان القطّ يجري وراء الفأر، أم الفأر هو الّذي كان يركض وراء القطّ. عندما وصلتُ إلى الشّارع المضاء بأضواء متّسخة حاولت أن أتذكّر اسمه. لا أعلم بالضبط إذا كان لهذا الشّارع اسم، ولكنّي بدأت أشعر بأنّ قلبي أصبح في فمي، وعينيَّ بدأتا تتحجّران.

وقَفَتْ مريم مرّة أخرى وبشكل فجائي في وجهي مثل النّور، عارية من كلّ لباس. مددتُ يديَّ إليها.. إلى الفراغ المهول.. كدت أضرب رأسي على أحد الحيطان الهرمة. كانت البيوتات والمدينة صامتة، بعدما نزلت كلّ الظلال على الوجوه وعلى الأشياء الّتي كانت تتحرّك بعنف وسط هذا الظلام.

ظلام يشبه ظلام الجمعة الحزينة.

من يدري؟؟ ربّما الشاحنات العسكريّة الآن في طريق العودة إلى المنعطفات القديمة والساحات. فالصيف بدأ يعلن عن حرارته قبل الأوان والوجوه سكنها ذعر خائف من ظلّه. ظلام يشبه... بل أكثر قساوة من ظلام الجمعة الحزينة.. قادمٌ...

قادمٌ...

قادمٌ...

قادمٌ...

VII

الجنون العظيم

1

من أين تنفذ كلّ هذه الكآبة الباردة؟

قالت مريم.

ـ تعال.. انظر!! بربّك. ألا يدعو الأمر إلى الجنون؟ إنّنا نرجع إلى الوراء.

أخذتني وسحبتني باتّجاه الأُوبرا القديمة أو المسرح الوطني حاليّاً.

لا بحر فيك يا مدن الريح! حتّى بحرك يسرق يوميّاً في السفن الوافدة. لا بحر فيك سوى هذه الريح الساخنة الّتي تهبّ من كلّ الجهات.

لتخرجي من قلبي أيّتها الأشياء الغامضة. فأنا مفعم بارتكاب المعصية. الكلمات صارت مليئة بأشواقها. عليّ أن أصرخ وسط هذا الفراغ بأعلى صوتي حتّى لا أجنّ. حتّى لا أضيّع هذه الذاكرة المثقلة بالظلام والأضواء القليلة والألم الكثير. عليّ أن أُجنّ لأصرخ بأعلى صوتي، بأقصى جنوني، ليسمعني الّذين ينامون قريري العيون في أحضان نسائهم، بعد أن باعوا البلاد والعباد.

لتخرجي من قلبي، فأنا مفعم بارتكاب المعصية.

كانت مريم بجانبي عندما فتحنا «ربرتْوَار» أُوبْرا العاصمة. قالتْ، لاحظ. أُنظر هذه القطاعات الّتي وصلنا إليها في هذا القرن الّذي يعيشنا ولا نعيشه. باليه شهرزاد يا عزيزي قُدِّم في هذا البلد سنة 1954. لم أَكن قد وُلدت بعد. «الرِّبرتْوَار» يقول إنّها فرقة البروفيسور Jules guillaume وقدّمته الراقصة جوليا ذات الأصل الإسباني. لكن جوليا لا تستطيع أن تكون شهرزاد رغم أنّها كانت رائعة كما يقول الّذين حضروا العرض، وصحافة تلك الفترة. جوليا تحتاج إلى كمٍّ كبير من الحزن وإلى رصاصة في الدماغ لتكون كذلك. قُلْتِهَا مع ابتسامة قبل أن تتركي الأوراق والوثائق، وحارس الأرشيف وتأخذيني من يدي. صرخْتِ: لا يعقل. بلادُنا مليئة بالحبّ والغناء والموسيقى ، وتموت كمجنون معزول في قاعة خاصّة. لا يعقل!! وحياتك سأقدّم حياتي من أجلها. إنّي أحبّ هذا الرّجل. رمسكي كورساكوف. رجل مذهل. يكفي أن تعرف قدرته العظيمة لتحبّه. يكفي أن يكون هو مؤلّف «شهرزاد» لكي يدخل قلبي ويحتجز جزءاً مهمّاً من ذاكرتي. أنجز، تمجيداً لمقاومة مدينة «بسكوف» الّتي أبادها إيفان الرهيب «La pskovitaine». يا حبيبي، عالمه مليء بالحبّ والشعر والأنوار والصلوات. ولذوقه الّذي لا يُقَاوم، مذاق الأشواق الّتي لا توقظها إلا الموسيقى المجنونة الّتي لا تعرف الموت. من يديه تصعد النّار القدسيّة الّتي تعيد الأشياء إلى طفولتها الأولى والنّوايا إلى صدقها الأصلي. إلى الحنين البعيد. البعيد جداً. «ليلة ماي» الّتي أنهاها في 1879، قريبة من قلبي. عبادة الصفاء الّذي لا يموت امتداده «سيْكُونوتشكا»، «ساكو»، «الدّيك الذهبي» كلّها تملؤني مثل هذا اليوم العنيد، الّذي دفعَني إلى مقاومة هذه السفالة الّتي صارت جزءاً من يوميّاتنا الاعتياديّة. المسكين ركبَ رأسه عندما أَنجز «ليلة رأس السنة»، لم يكن يفكّر سوى في كاترينا الثانية، لكنّه سرعان ما مارس الرقابة الذاتيّة ضدّ نفسه. كان يعرف تبعات الكلمات الّتي تخرج من القلب وإليه تعود، أو من تشظّيات

المقطوعة الموسيقيّة. رجل لم يكن واقعياً، هكذا لامه نُقَّادُ زمانه. لكنّه، هو الممحون بارتعاشات النّوتة، لم يندم لحظة واحدة على سخريته الّتي تسحبه باتّجاه جنون فاكْنْر وموزارت وبرليوز وسترافانسكي، كان مولعاً بأصدائه، وعندما أراد أن يكتب طائر النّار وضع أمام عينيه «الدّيك الذهبي» وبدأ يتلوّى في مكانه كمن أصيب بسهم في قلبه.

ـ العظيم عظيم. والبلاد العظيمة عظيمة!! طلعت وإلا نزلت فيها شيء يبقى عظيماً أبداً.

أشعر في هذه المدينة بالتصحُّر السريع. ولا تحتاج إلا إلى القليل من الفرح لكي تحبّ. وتحبّ بعنف وعنفوان. تصوّر! كان النّحاتون والرّسامون، والموسيقيّون يفدون إلى هذه البلاد من بُعْدٍ سحيق. وعندما لا يفلحون في الوصول إليها يتخيّلون دفئها ووجدها الّذي لا يقاوم. دولاكروا. بيكاسو. ميغال دي سرفانتيس، هل تعرف أنّه سجن مدّة من الزمن في هذه المدينة؟ ولم يُعرف إلا بالمصادفة. كان له مزار في مرتفعات المدينة يؤمّه الفنّانون. لم يبق شيء من ذلك. الدنيا تبدّلت، وغزاها الجراد الأعمى يأكل الأخضر واليابس. البارحة رَمَوْا تمثال الأمير عبد القادر في المزبلة القريبة من البلديّة في الحراش[1]. وهجموا على قاعة كانت تقدّم حفلاً موسيقياً شعبيّاً. عجيب منذ مدّة والبلاد تعيش حالة طوارئ ثقافيّة. إنّه الريف الّذي بدأ يزحف بكلّ أشيائه وغموضه وحقده وفرحه المحدود. إنّنا نعود إلى الموت، مثل ميت يبعث ثمَّ يعود إلى مدافنه الأولى. لا يحتجّ على دفنه. ولكنّه يحتجّ بصرامة على دفنه في مقبرة غير مقبرته الأولى. «حرّاس النّوايا». عندما يأتون، يأتون بكلّ شيء. بالريح الساخنة والشموس الحارقة والجفاف الصحراوي والعيون البغيضة والخيل المترهِّلة والسيوف المعقوفة والرِّمال الآتية من تاريخ العواصف المتكرّرة. «حرّاس النّوايا». القادمون

(1) حيّ شعبيّ في ضواحي الجزائر العاصمة.

الجدد. عندما يأتون تسبقهم القيامة الّتي يصنعها فقر النّاس وبؤسهم. يجيؤون زرافات ووحداناً، ليستمعوا إلى دقّات قلوب النّاس، ليقتنعوا في النهاية، أنّها دقّات مستوردة من الخارج البغيض!! ويصرخون بأصوات بحّت من كثرة النداءات في أعالي الصوامع. إنّه التّغريب أيّها السادة. التّغريب. التّغريب! رِمسكي كورساكوف، كان يقرأ هذا في عيون العصر الميت، ليبعث بعصر حيّ منْ جلد الآفلين الغرباء. آه!! ما أحزنكم أيّها الغرباء في بلادكم! مَنْ يتذكّر حنينكم ووحدتكم؟!

ـ قَدَّمَها النّاس ونحن نستحي منها. «شهرزاد» من دمنا الميت ـ سأرقصها ولو قُطع رأسي. سأرقصها هنا. في هذه الأرض المحروقة بتصحرّها المزمن.

ـ وصِحَّتُك يا مريم؟!

ـ شهرزاد أوّلاً وصحّتي بعدها. التحضير لها متقدّم. سندخل بها موسم ربيع الجزائر الموسيقي.

ـ لقد حكت لي أَنَاطُولْيَا قليلاً عن المشروع.

ـ هي الآن تعدّ اللّوحات وتقوم بعمليّة قصّ للمناظر المهمّة. تعتمد دائماً على الفرق الموسيقيّة النمساويّة. تقول توزيعها جيّد ومتقن.

ـ ولكن احذري فقط. احذري!! صحّتك.

ـ أَنَاطُولْيَا لم تعد تقول مثل هذا الكلام. اقتنعت أخيراً أنّي هبيلةْ[1]. ويجب عليّ أن أقنعك بنفس الكلام.

ـ هل يجب أن أذكّرِك أنّ في رأسك رصاصة نحاسيّة؟

ـ قلت لك سأرقصها ولو أرقصها لك وحدك.

قالتها ومضت بعد أن سدّت وراءها باب الأوبرا الواسع

(1) مجنونة.

والزجاجيّ. زُجاجه تكَسَّر منذ مدّة ولم يُصلَّح أبداً. الأرضيّة مملوءة بالأوساخ وقشور الكاوكاو والشمَّة وأعقاب السجائر. كلّ شيء كان يدعو إلى حالة يأس مطلقة. قالتها ومَضَتْ ولم تكن تعلم في أيّ يوم من الأيّام ولا حتّى في تلك اللّحظة، أنّه سيأتي زمن وتصبح مفرداتها الشّاردة في أدغال المدينة حقيقة مؤذية لقلبها ولقلب عشّاقها الذين يملؤون حيطان بيوتهم بصورها الكبيرة باللّونين الأسود والأبيض أو الملوّنة.

مرّت أيّام على تلك الحادثة. وجدت وريقة تحت الباب «أحتاجك أرجو أن تمرّ على الصّالة. أنتظرك اليوم. مجنونتك». مررت على صالة الرّقص الواسعة. رحبة الخيالة. يسهر على تنظيفها وتنظيمها طلبة المعهد بالرّغم من أنّ كلّ شيء فيهم صار ضيّقاً، لا يتنفّسون إلا داخل هذه الصّالة في لحظات التدريب. حتّى عيوننا المسكينة أصبحت لا ترى إلا في حدود المجالات الضيّقة. إنّنا لا نرى الشيء نفسه، في اللّحظة نفسها. مريم كانت دائماً تقول، البيت ضيّق مثل الحبس وأنا مجنونة، قلبي وذاكرتي وجسدي مليئة بالرّقص. يملأني من رأسي حتّى أخمص القدم، بل حتّى التربة الّتي أطأ عليها. هَاهْ!! وَجَدْتَ الورقة؟! لو لم تأتِ كنت انزعجت مِنْكَ. حسنٌ أَنَّكَ جئتَ. أنا اليوم في حاجةٍ ماسّة إليك.

تمطرني بأسئلتها الطّفوليّة المتعاقبة الّتي لا تنتظر لأغلبها جواباً مهمّاً أو مقنعاً، ثمَّ تعود لتواجه المرآة الكبيرة في الصّالة الّتي توهم بوجود مجالات أخرى أكثر اتّساعاً. تتأمّل نفسها. تمسح على شفتيها المتقنتين بهدوء وبنوع من اللّذة، تمسّد على جسدها الصّغير الّذي كان ينام داخل لباس اللّيناج الأسود الّذي يلتصق في مجمله بمفاصلها. تغيب داخل عطر «الأكروبات» و«البْوَازُون». تمدّد رجليها، طويلاً طويلاً حتّى تحدث زاوية منفرجة مع الأرض. تنحني قليلاً، ثمَّ تعود إلى الوراء، تحرّك يديها ورأسها. تنزل الستائر. تضغط على زرّ الموسيقى . تغمرني. تفاجئها ابتسامة طفوليّة. تبدأ موسيقى رمسكي كورساكوف. «شهرزاد». الموسيقى عبادة. ولهذا

يجب أن نَصْمُتَ لسماعها. تدور في مكانها. تدور مرّة أخرى بعنف. تقف قليلاً، ثمَّ تنسحب إلى الوراء بذعر كبير. تركض داخل الاتّساع ثمَّ تقف مرّة أخرى وهي نصف منحنية. يداها ممدودتان إلى الوراء في وضعٍ يُوحي بأنّها مُقدمة على الطيران. تكرّر الحركات نفسها الّتي كانت تزداد سرعتها كلّما صارت الموسيقى أكثر حدّة.

ـ هاي؟! هل أعجبتك؟

ـ وهل هذا سؤال؟ طبعاً أعجبتني.

ـ التدريبات بدأت وربيع الجزائر صار قريباً. لكن البلاد تموت كلّ يوم أكثر. وقد لا يجيء هذا الرّبيع أبداً. التّهديدات تتكاثر، وأَنَاطُولْيَا قد تعود إلى بلدها.

ـ هل صارت الدنيا رخيصة إلى هذا الحدّ؟

ـ الرّقص يجب أن يظلّ رقصاً. كلّما سُيِّسَتْ الأشياء ابتُذِلَتْ، لكن الله غالب! عندما يدخل عليك أُمِّيٌّ ويهيّئ لك حبلاً بحجّة المسّ بالأخلاق العامّة، سيتحوّل كلّ شيء إلى سياسة.

ـ هذا هو عينه الحكم على النوايا.

ـ أنا اليوم حزينة رغم أنّي أريد أن أفرح. أن أنسى لحظة المأساة ولهذا قلتُ، ربّما حضورك يواسِيني قليلاً. «شهرزاد» الآن شبه جاهزة، ولا تنتظر إلا التدريب الجماعي الأخير.

ـ ربيع الجزائر قريب. وسأهديك ورداً مع قبلة.

قلتُها وأنا أحاول أن أُزِيحَ عنها هذه الكآبة الّتي نزلت فجأة على عينيها.

ـ أريدك أنْتَ. وهذه اللّيلة!

لست أدري هل فهمت حقيقة أم لا. ولكن خفت أن أقول لها، لم أفهم. أحياناً تقول كلاماً، وتفترض منك أن تكون معها في الأفق المجنون نفسه الّذي لا تضبطه لغة، لاسيّما في هذه الأيّام. غزتها

حالة اكتئاب مقلقة، منذ أن سمعت بتهديدات البلديّة بغلق صالة الرّقص. التّهديدات الّتي صحبتها إجراءات مخيفة. أَنَاطُولْيَا هُدِّدَتْ بالقتل. كُسِّرَتْ سيّارتها. وعندما قدّمت شكوى للشرطة، سجّلوها ثمَّ قيّدوها ضدّ مجهول. قالت للّذي كان مكلّفاً بأخذ إفادتها، أعرفهم ياسيّدي. أعرفهم إنّهم يدورون حول بيتي. وهناك شهود عيان. قال لها: هذا عملنا يا مَدَامْ!! وسنعرف ماذا نفعل. أرجوك أن لا تعلّمينا. ثمَّ قتلوا كَلْبتها «نُورُوشْكَا» الّتي أتت بها من موسكو. وجدتها معلّقة في حديقة البيت. الجيران أعطوها مواصفات الأشخاص أنفسهم الذين تراهم يوميّاً. قالوا لها: كانوا ثلاثة. في مركز الشّرطة قالوا لها نعرفهم وسنستدعيكِ ونستدعيهم. لكن مرّ على الحادث أكثر من شهر ولم تتلقَّ شيئاً والأشخاص مازالوا في الحيّ. قالت أَنَاطُولْيَا بعد أن ابتلعت ريقها بصعوبة كبيرة:

ـ هذا إرهاب. أيّ مصير ينتظر الرّقص، بل الحياة، في هذا الوطن؟

ـ حرب معلنة ضدّ الفن. حالة طوارئ نعيشها بخوف.

ـ والدّولة؟

ـ غائبة دائماً وقت الحاجة. يتمّ تدميرها بشكلٍ مقنّن.

ـ وحياتك هذا الوضع خطير. وقد يقود البلاد إلى الهاوية.

وسمعت كلاماً مخيفاً من أَنَاطُولْيَا في ذلك اليوم الّذي جعله التعاقب المذهل بعيداً، بعيداً، بأنّ ما يحدث مخيف جدّاً. بل هي نفسها لم تعد في مأمن. أصبحت مهدّدة في شخصها. رجال الأَمْنِ طمأنوها، وقالوا لها مجرّد تهديدات لتوقيفها عن عملها. قال لها ضابط الشّرطة شخصيّاً: واصلي عملك ونحن معك. ولكن هل يجب الصّمت؟! صحيح أنّ البؤس يقود النّاس إلى ارتكاب الحماقات. عالمهم مغلق وكلّ يوم يموت فيه جزء. قلتُ. يا مدام أَنَاطُولْيَا هؤلاء النّاس مظهر فقط، الوضع مزرٍ في العمق. السّؤال يبدأ من هنا. ربّما كنت أكثر تَشَاؤماً منك، إذا بقي الوضع هكذا. سيعمّ الظّلام هذا

الوطن مدّة من الزّمن، قد تستمرّ قروناً طويلة لتظهر بؤرة نور. السّلطة تتخلّى عن كلّ شيء لفقهاء الظّلام. بالأساس، لا يختلفان في الجوهر. بَنَوْا الفيلات. سرقوا خزائن الوطن. فتحوا حسابات بنكيّة في البلدان البعيدة. الشّمس لا تغطّى بالغربال. العداوة ازدادت والسّلطة لو تُغسل بالجافيل، لن تستعيد جزءاً صغيراً من مصداقيّتها. هي الّتي خلقت حرّاس النوايا، وهم الذين يأكلون رأسها، أو تأكل رأسهم.

ـ والديمقراطيّون؟

ـ لا أدري إذا كنت سأضحك أم أحزن؟!

يتلذّذون بمتعة الاعتراف بهم. أغلبهم دخل السّياسة من الباب الضيّق. بعضهم جاء وهو يَبْرُدُ أسنانه للانتقام من الذين بهدلوه. بعض القادة التّاريخيّين فقدوا الهالة! أيُّ ديمقراطيّين؟! عندما ينزل الظّلام سينكفئون على أنفسهم. يصدرون بعض البيانات ثمَّ يصمتون. الدنيا تغيّرت والبلد يحتاج إلى شيء آخر، لا أحد يملكه.

أيقظتني مريم من حالة الانغماس.

ـ السّياسة.. السّياسة.. السّياسة دائماً.

كانت أَنَاطُولْيَا قد خرجت بعد أن وضعت المفاتِيح في كفّ مريم.

ـ هكذا.. كلّ الأشياء ابتُذِلَتْ.

ـ خلّينا من ربّ السّياسة. أريدك أَنْتَ. هذه اللّيلة. لا أريد أن أنغِّص عليك ولا عَلَيَّ.

ـ سعيد بك. أنت رائعة.

ـ أريد أن أرقص لك اللّيلة. لك ولي فقط. أَنَاطُولْيَا سلّمتني المفاتيح. ووعدتني بالمجِيء.

بدأ ولع مريم يصلني وسط هذه القتامة المفرطة. لم أتكلّم،

ولكنّي ظللت أتأمّل ملامحها الّتي بدا عليها نوع من الارتباك. أشياء كثيرة تتذابح في قلبها، أشياء فقدت أوجهها وملامحها وتواريخها.

ـ رقصتي تحتاجك أنْتَ بالذّات.

ـ سأَكُون في الموعد.

ـ لا أعلم ما إذا كان عرض «شهرزاد» سيقدّم أم ستُلغيه البلديّة كما تفعل دائماً منذ أن خَرَجَ حرّاس النوايا من تحت التراب.

ـ لكن يجب مقاومة هذا البؤس الّذي يتحوّل إلى سرطان. إلى قَدَرٍ من الأقدار!

ـ الصّالات تَقلُّ. بعضها أُعطي إلى جمعيّات خيريّة، وبعضها الآخر مُجمّد. المسرح الوطني. الموفار. ابن خلدون. حرشة. لاكُوبُول...

ـ الحكومة ساكتة، صامتة، إمّا أنّها تُعِدّ لردّة فعل كبيرة أو أنّها بدأت تتحسّس أعناقها.

ـ ما يهمّش. متأكّدة من هذا المساء فقط. البقيّة لا تهمّني كثيراً. أصلاً لا أعرفها. هذه اللّيلة لي. أسرقها. أريدك أن ترقص معي قبل أن يُسدَّ حلقي وأُخنق.

ـ بدأنا نُخرِّف. لماذا يحضر الموت، كلّما تعلّق الأمر بالحياة؟

ـ أُريدك. أنا وأنت وربّما أَنَاطُولْيَا.

قالت. المقطع الأخير هادئ. يمتصّ حالة التّعب بكاملها. عندما أَفْتح عينيّ، وقتها أريدك أن تكون أمامي، ومُتَّكئي في هذه اللّحظة. وأعتقد أنّي لن أندم إذا مِتُّ مطلقاً. وظلّت تنبّهني إلى دقائق مقطوعة «رمسكي كورساكوف»، واللّحظات الّتي تصعد فيها تجلّيات الرّقصة، واللحظة الّتي يجب فيها على الإنسان أن ينكسر إلى الوراء. ولهذا فوجُودُكَ ضروري. ثمَّ أشعر بأنّي وحيدة في هذه المدينة، بل في هذا الكون. عليك أن تملأ هذه اللّحظة الّتي يجبُ أن لا تموت. لو فقط كنت مُتَيقِّنَة من عرض ربيع الجزائر القادم!! لكن لا يهُمّ. سأقدّمها وحدي، لك وحدك.

كنت أريد أن أقول لها، في الرّقصة بعض الحركات العنيفة. تحَاوْلي(1) على روحك قليلاً على الأقلّ. لكنّي أصِلُ دائماً متأخّراً وأخاف أن أكسر فرحتها. هي بالأساس هكذا. لا تريد من ينصحها. جوابها التّقليدي معروف. يا أخِي حَياتي وأنا حرّة فيها!! أرفض هذه الوصاية.

وأنا أغادرها. تأمَّلْتُ وجهها للمرّة الأَخيرة. نزلت الأدراج. سمعت صوتها وأنَا أُوصد باب الصّالة الخارجي بهدوء حتّى لاأعكّر صفو تدريباتها.

ـ ما تنساش!! العاشرة ليلاً. أنتظرك.

ـ سأكون في الموعد.

قلتُ بصوت مرتفع قليلاً. سمعتها مرّة أُخرى ترفع صوتها أكثر حتّى تحوّل إلى صدى داخل القاعة الّتي بدت هذا اليوم واسعة أكثر من العادة.

ـ ما تنساش معطفك الطّويل!! الْبِسْه من أجلي.

ـ سأفعل. (مجنونة! قلتها في خاطري).

كانت تقصد المعطف القديم الّذي كان يرتديه والدي الله يرحمه، قبل أن تأخذه هذه البلاد نحو ذاكرتها. ثمَّ خرجت بسرعة. بدا لي الشّارع بدوره واسعاً على غير عادته. ورغم اكتظاظه، كانت به بعض الشّاعريّة، ولا سيَّما باتجاه الطّريق المؤدّي إلى جهة البحر.

كانت المدينة غارقة في شؤونها اليوميّة.

2

عندما وصلت إلى ساحة البلديّة كانت السّاعة تُشير إلى العاشرة إلا ربعاً. حسبت الوقت بدقّة. لا أريد أن أصل متأخّراً. عندما وصلت

---

(1) حافظي على نفسك.

إلى الصّالة، كان بابها مفتوحاً. دخلت على رؤوس أصابعي حتّى لاأحدث أيّ ضجيج، ولاسيَّما أنَّ هذه الأخيرة كانت نصف مضاءة. رفعت رأسها مثل النّمرة الشّرسة. شعرتْ بدخولي، وهي واقفة على المنصّة. عرفتُ ذلك من عينيها اللّتين كانتا تتحسَّسان كلّ الأصوات. ناولتني أَنَاطُولْيَا كأس قهوة، وهي تُؤشِّر لي بالجلوس على الكرسي المحاذي لها، وتضع أصبعها على فمها، لا تُزْعِجْها!! كان الأمر مدهشاً وساحراً. الأضواء الملوّنة والظّلال الكثيرة، وانعكاسات المَرَايَا. كلّ شيء حضّرته أَنَاطُولْيَا والعمّال. هي تريد أن تُسعد مريم وأن تتأكّد من إتقاناتها. «شهرزاد» صعبة ولا أحد يعلم إذا كانت ستُعرض. قالت لي في أُذني. هذا هو التّدريب الأوّل والجدّي لـ «شهرزاد». مريم كانت مذهلة. لأوّل مرّة أراها في هذا اللّباس الحريري المغموس داخل زرقة هادئة مائلة نحو البنفسج، لا تستقرّ على لون خاصّ، تتغيّر كلّما تغيَّرت الأضواء. تحني مريم رأسها بهدوء. يداها منسدلتان عبر استقامة جسدها مثل رياضيّة جمباز محترفة. تركّز قليلاً. تحرّك رجلها اليمنى ترفعها بهدوء ثمَّ تعود إلى وضعها البدئي. تغمض عينيها. تدخل في حالة صمت وجدانيّة. يرتفع صدرها ويهبط. إثر التنهيدات المتقطّعة. يا الله!! ما أجملها! تريد أن تكون «شهرزاد»، لا كما قرأتْهَا في الكتب، ولكن كما تشعر بها. كما تحياها، لحماً ودماً وعنفواناً. ترفع رجلها من جديد. يرتفع اللّباس قليلاً، تنكسر إلى الوراء. تتغيّر الأضواء. تظهر ساقاها المضيئتان كشمعتين. مريم عندما تتأمّل تصبح تمثالاً. أدارت رأسها باتّجاهنا، في كبرياء. كانت سماؤها مليئة بالزّرقة وألوان قوس قزح. كدت أصرخ بأعلى صوتي وآلامي.. أيّتها الشُّعلة الزّرقاء ما أشدَّ وهجك! أيّها الجسد المملوء بالنّور، ما أقدسك! أيّتها الآتية من حنين الذّاكرة ما أقربك إلى القلب! نظرت أَنَاطُولْيَا إلى السّاعة. احترام الوقت ضرورة مقدّسة، لأنّ نجاح حركات راقص الباليه مرتبط بمدى هيمنته على الوقت بالضّبط المعطى لكلّ حركة. أيّ إسفاف يوقع الحالة الشّعريّة في الحضيض ويبتذلها، فتسقط في

الرّتابة... ثمَّ قامت من مكانها تجّاه الأجهزة الإلكترونيّة. تأمّلتني مريم من تحت أهدابها. أشرقت ابتسامة من بين شفتيها المضيئتين، الممتلئتين. عيناها كانتا مليئتين بالألوان. وضعت تاجاً صغيراً على رأسها كان موضوعاً على قطعة مرمريّة في المكان الّذي كانت تقف فيه. تلألأت ألوانه البلّوريّة الّتي كانت تتكسّر على وجهها. رفعت أَنَاطُولْيَا يدها اليمنى.

لقد بدأت طقوس الصلوات الّتي تشبه الرّقص.

استقامت مريم للمرّة الأخيرة.

ضغطت أَنَاطُولْيَا على زرّ جهاز الستريو الضّخم.

صمت خفيف. ثمَّ بدأ خيط من الأنين، ينسحب من مكبّرات الصّوت. كان الألم قد بدأ يصعد من قلب شهرزاد. البربريّة. الأعماق تتدفّق كدم الجرح المفتوح. لم يكن ممكناً أن تصمت. كانت القساوة محرجة والحنين يتعشّق الزجاج والسكاكين المؤذية. تتصاعد أصوات الآلات الموسيقيّة. يصدح المكان بحبّ وأنين أكثر فأكثر، مع نعومة في الخلف، في خفاء بعيد، ومبعد، يُسمع صوت الكونترباس كطام طام إفريقي، يحضر بأصواته الجافّة الّتي تسمع من بعيد، لرقصة الموت الأخيرة، مصحوباً بنداءات وصرخات جنائزيّة. كانت مريم قد تداخلت مع إحساسات شهرزاد. تدور حول نفسها في نوع من الفوضى. تقف قليلاً، ثمَّ فجأة تبدأ في التّراجع بهدوء والصّعود إلى الوراء. تبدأ الرّخاوة تدور حول عينيها. هل تشعر بي؟! لقد صرت شفّافة!! تشعر بنفسها قد صارت شفّافة حقيقة مثل خرقة زفاف العاشقة. ترفع رأسها بكبرياء باتّجاه صفاء تتخيّله في نقطة ما، مجلّلة بالبياض. تصعد في اتّساعات الفضاء. هل صرت شفّافة؟! لابدّ أن أكُون قد صرت كذلك. ينكسر على ركبتيها لباسُها الشفّاف الأزرق الّذي يعكس صورة جسدها الّذي يريد مغادرة الألبسة الّتي كانت تعيق حركته. تذوب الزّرقة لتصبح قريبة من أفق ينكّس ألوانه على بحرٍ مسائيٍّ دافئ، هادئ.

تتذابح الأصوات المتردّدة داخل هذه الصّالة، ليتحوّل الكلّ إلى لحظة مليئة بالطّقوس السّحرية.

تتضخّم الموسيقى أكثر. تدمع العيون اليتيمة الّتي تودِّع أفراحها القليلة بِأَلَم لا يُحدُّ. وتتكسر الخيول الجامحة عند حَافّات الوديان الرّيفيّة البعيدة. تضع شهرزاد شعرها في النّار. يصعد اللّهب إلى أنفها وتقسم لشهريار أنّه لم يلمسها. لم يحرق جسدها بأصابعه. يعاود شهريار الكرّة. يمدّ يده إلى صدرها المجروح. يحاول أن يلمسها. أن يحكم قلبها. لكنّها تصرّ على الحكاية. وتتوارى مريم كالغيمة، داخل الأدخنة الملوّنة. تصرخ شهرزاد بأعلى صوتها. اسمع يا سيّدي! للحكاية سحر كبير. والبقيّة ما تزال في القلب. تضع يدها على صدرها. تنفتح عيناها أكثر. تبدو مريم مثل دمية صينيّة. مشهد الحرملك والدّم مريع. مريع جدّاً. الدّم يسيل بغزارة. لقد ذبحهنّ بلا هوادة. بلا سؤال. الأسئلة عند شهريار، هي الوجه الآخر للإحراج. أرادت المحظية الأولى أن تستفسر، قال لها، رأيتك يا بنت الحرام!! رَجَتْهُ الثانية قال لها: عبدك جامعك. رأسه ورأسُكِ للكلاب. الثّالثة.. الرّابعة.. الخامسة.. يغيب العدّ بين تجاويف اللّحظة الحرجة. كان العصر العبّاسي يتبجّج بعنفوانه. يزداد تأنّقاً وكآبة. تنكسر مريم بحزن. تضع رأسها بين يديها. تُنكّس الأعلام البيضاء وتعوّض بأعلام خضراء داكنة، قادمة من أعماق الظّلام. يزداد الأنين. الكمان يتلوّى. يتلوّن المشهد بالرّعب والحزن. تفتح عينيها. أينكِ أيّتها الخيول الجامحة؟ لقد توزّعتْ في كلّ الاتّجاهات. أين الخيّالة؟ كلّهم سقطوا في منتصف الطّريق، في منتصف الموت ولم تبقَ إلا النيران والأجساد المبعثرة ودم النساء الّذي يملأ الأرجاء وبقايا الحرائق هنا وهناك. يندفع المقطع الموسيقيّ الحزين مضمّخاً برائحة البحر الّذي صار بعيداً أو بنسمة هوائيّة شعبيّة كانت تئن من تأثير وطأة الخيّالة. تحاول أن ترتفع أكثر في الفضاءات. لا وجود لها سوى الفراغات. سوى الفراغات. تنظر مريم إلى المرآة. تتجوّف. تتقعّر أكثر. يرتفع لباسها فوق الرّكبتين،

ويتلوّن وجهها بألوان لهب نيران الصنوبر. تبدو جليّاً عظمة اليد الّتي صقلت جسدها بإتقان مثل التمثال المرمريّ. تتأوّه بقوّة ويمتدّ خيط الأنين عبر صوت الكمان الّذي أصبح خلفيّاً. تبحث عن الشّوق المسروق. عن اللّحن الّذي ينام داخل الأوردة ويُسافر مع الدّم في رحلته الّتي لا تتوقّف. صارت نسمة. تأمّلْ! لقد صرت شفّافة! كم أريد أن أَطير في الفضاءات، أن لا تحكمني الأرض عندما أرقص. تلك هي مريم، وتلك هي كلماتها، كلّما خرجت من مشهد باليه. تتحوّل إلى نار. إلى شعلة ملوّنة. انتظر يا سيّدي شهريار. الحكاية ما تزال في بداياتها. انتظر النهاية قبل أن تفتح باب سريرك الّذي يشبه التابوت، وقبل أن تتحسَّس حدّة السّكاكين القادمة من مَنَافي الخوف. قبل أن تنشب أظافرك في عنق شهرزاد. قبل أن... تتوقّف حركة الدّم في جسدها. اسمع يا سيّدي. اسمع نهاية الحكاية. لماذا تصرّ دائماً على السّكاكين لحلّ مشكلة شبقك الميت في حجرك؟! للبحر عنفوانه ياسيّدي. للموج منفاه، ولك يا سيّدي ما تبقّى من الجسد إذ ينطفئ داخل انعكاسات الضّوء وجنون الرّقصة الأخيرة. مازلنا في البحر الأوّل يا صاحب المقام العالي. وعلى الحكاية أن تقطع بحورها السّبعة. عن أيّ بحر تتحدّثين أيّتها العاشقة الموهومة؟ أنت جميلة. إذ تدخلين الفراش. يغفر لك من بيده الحكم وتدبير شؤون الرّعية، ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر. افتحي فقط أبوابك لهذا البحر الّذي يتّسع كلّما فتحتِ يديك واستقبلتِ رياحه وفجره. تتأوّه مريم. ترتدّ إلى عمق الصّالة. تحني شهرزاد رأسها. آه يا سيّدي، أنت تطلب منّي قلبي، وقلبي ليس ملكي. ملك الّذي يملك حوّاسي ومشاعري وعينيّ. قلبي ليس لحدّ السكّين يا سيّدي العظيم. للنّور. للشجر. للشّمس. للذاكرة الّتي لا تنسى حزنها. الحكاية الّتي كان يجب أن تُسمع، نهايتها صعبة وقاسية. هل أنتِ شهرزاد يا ابنة النّاس؟ كلّ ما فيك يثير هول المدافن. هول الخوف الّذي استقرّ في الأعماق منذ الطّفولة. شهرزاد! أين وجهك إذ تقوم القيامة؟ بآلامها وكآباتها ودمها وألوانها؟ وجهك يتداخل مع لون وجه زوجي الأوّل يا سيّد

الحكّام! وحياتك إذا لم تبتعد سأنتحر. سأُلقي بنفسي من الطّابق الخامس. اعتقني يا سيّدي قبل أن تأكل جسدي. اعتقني للكلام.

ينتحر الصّوت، داخل ضخامة الكونترباس والآلات المتعدّدة ومضخِّمَات الأنين. تبتعد مريم قليلاً، تقف لحظة عند حدود الحائط الوهميّ. تحني رأسها. تفتح يديها عن آخرهما بشكل صليبي. تتدحرج. أضع يدي على قلبي. هل هي ترقص أم تموت؟ لا قلب لي وسط هذا الفراغ. الحكاية يا سيّدي! يُصمُّ أُذنيه. ينزل صوتها كالصاعقة. لا يريد أن يسمع شيئاً آخر سوى الموت والدّم. ولكنّها تصرّ. يسحب سكّينه وهو ينظر إليها بعينين حمراوين. يهدّدها قبل أن يلمّ برنوسه المذهَّب ويأفل مثل النجمة السّوداء. سأعود لك يا ابنة الموت والوأْدِ الرّهيب.

تلتفت مريم إليّ. تراني أم لا تراني؟! عيناها مرتعشتان في سماء مذهلة استرجعت ألقها ونجومها. يرتسم الرّبيع على وجهها. يتسابق النّوار إلى الظّهور بين تقاسيمها. ينهار التخوّف والتقعّر والتجوّف. يصبح الجسد مصقولاً والوجه أكثر وضوحاً. الضّباب الّذي كان يملأ الشواطئ المهجورة أصبح أزرق. الأشجار العملاقة تتمايل وتنحني عند أرجل النّاس الرّائعين الذين لم يعودوا موجودين. الوافدون من البلاد البعيدة تضاعفت أعدادهم، على ظهورهم زوّاداتهم الّتي ملأوها بالأشياء الّتي تشبه الألم والعرق بعد أتعاب أيّام عديدة. الرّبيع، نوّار اللوز، وَرْدُ البنفسج العملاق، تنسحب الأمطار...

تتمايل مريم مثل ورقة البَلاطَان. تدور. تدور كالنّحلة. شعرها الآسيوي الميّال نحو زرقة مشعّة، الطّويل، ينحلّ. يتبعثر في الفضاءات مشكّلاً ظلّ دائرة عملاقة، أصبح قزحيّاً تحت الأنوار المتكسّرة الّتي أعطته انعكاسات فوسفوريّة مدهشة، كلّ المخلوقات غادرت أماكنها. الأقوام. الرحّالون. الإبل. الحيوانات الّتي فقدت ألوانها. النّاس المجَلْبَبُون الذين كانوا قبل وقت قريب يملؤون الصّحاري والأنواء. مريم يا نوّارة العاشق الغريب! دنياك مليئة

بالحنين والحلم، ما أشدّ حزن الّذي يفتقدك في منتصف الطّريق. تأتي شهرزاد بلباسها الفضفاض، يتلألأ الصّفاء في عينيها. في كامل جسدها الممتشق كالرّمح. كريح سيدي بلعبّاس الّتي لا تخبر عندما تهبّ بعنف شديد حاملة معها الأتربة والأوراق والصّحف القديمة. يتلألأ الصّفاء في عينيها بكلّ العنفوان الّذي يكتشف ذاته بعنف وقوّة.

يزداد تألّق الرّبيع في عيني شهرزاد. تنكفئ على رجلها اليمنى. تحني رأسها بفرح. يتصاعد كالبخار في عينيها. تنقطع الكلمات القرآنيّة في مسمعها بنغمة مليئة بالأفول. يتدحرج يوم الجمعة الحزين في أعماقها مثل الرّصاصة الباردة، وهي تبلغ منتهاها. تصعد إلى أنفها روائح الأسواق العبّاسيّة الكثيرة الّتي تمتلئ بسرعة بالفوّالين والجوّالين والحوانتيّة، والعطّارين، وباعة الحظّ واللّذة والشوق والعيساوي. الكمّون. سكّين جبير. الزعفران. عود القماري. العطور الهندي... هاهو ذا الخيط الرّفيع يصعد قويّاً منها ويمنح جسدها رائحة العنفوان الطّفولي. ثالوثها يملؤها. لَكْرُوبَات. بْوازُون. لباس اللّيناج الأسود الحريري الهندي الّذي تستعيرُه من أَنَاطُولْيَا العظيمة. العرق يتحوّل إلى حبيبات من البلّور الملوّن على جبهتها العريضة. يتعمّق اللّون الأزرق ليصير بنفسجيّاً تحت انعكاسات الأنوار البرتقاليّة المعلّقة في زوايا منصّةِ الرّقص الواسعة بنوافذها الكبيرة، المطلّة على البحر المنسي والشوارع المتجشّئة، وستائرها السمرقنديّة الرّقيقة الّتي جاءت بها أَنَاطُولْيَا من بلادها البعيدة إضافة إلى الستائر الغليظة الّتي تحجبُ مرور الضّوء وملوحة البحر.

كانت أَنَاطُولْيَا مأخوذة بالمشهد، تحاول عبثاً تخبئة فرحتها. عيناها المتراقصتان لا شعوريّاً، كانتا تميلان مع النّغمة والدقّة والميزان والرّعشة الّتي كانت تتضخّم وتخفّ وتتمدّد داخل الأعماق، كانت النّغمات تزداد شيئاً فشيئاً تلوّناً ثمّ قتامة. تتراجع مريم مرّة أخرى إلى الوراء وهي تنشد نشيدها الحزين، وتشدّ على قلبها

وصدرها. تلتفت يميناً وشمالاً. الرائحة كريهة. إنّها رائحة الكلب، لا رائحة الذئب، الّتي تملأ الأرجاء. من أين تأتي كلّ أصوات النّدب هذه؟ أمن السرداب أم من العمق السّحيق؟ تتوقّف الحكاية في منتصفها بأسئلتها المحرجة، وتعلو وجه شهرزاد كآبة بدون حدود. يمتلئ وجهها بالنّدب الّذي كان يزداد في كلّ لحظة وبشكل عميق. من قال إنّ الحكايات والأحزان لا تحبل؟ من قال إنّ لغة الحزن واحدة؟ من قال إنّ الجسد يستقيم بدون رقصة الموت الأخيرة؟ شهريار يلبس جلبابه المذهَّب. يتحسّس سكاكينه كمحارب يمني قديم، وحبله القصير الّذي في يده، يتحسّسه للخنق في لحظة الغفلة. إنّه يشبه القرصان. يُصفّق. هاه!! هذه بنت الكلب الّتي لا تريد أن تلين. الّتي تركب رأسها وجمال جسدها. سأبطحها على بطنها وأسفدها حتّى الصّباح، ثمّ أذبح رَبَّها مثلما يُذبح خروف الأعياد. يصفّق مرّة أخرى. يركض الخدم والحشم. يفتح الحرملك على مصراعيه. تشعر بالخطر. تشمُّه مثل الحيوان البرّي. يصرخ مَبحوحاً، أينك يا ابنة الوزير المجنون؟ هل بقي لك ما يُطوّل حياتك بعد نفاذ سحر الحكاية أو قطعها في منتصفها؟ شيء واحد، قد يُبقيك بعيدة عن حدّ السّكين الّذي لا يلين ولا يرحم. افتحي رجليك للقادم بجلابيته المذهّبة. لقد نزع سرواله مُنذ أن دخل الغزاة هذه البلاد. قال لا حاجة لنا بالّسروال نحن عرب البادية. وإنّه موضة مزعجة مضادّة لتقاليدنا وأخلاقيّاتنا العظيمة. مذعورة تلتفت شهرزاد. لا شيء سوى الفراغ الّذي كان يزداد اتّساعاً. تكبر مريم ومعها تكبر الهدايا والأحجام. يزداد قلبها نبضاً. تحاول أن تقفزَ، لكن الحيطان تنبت في وجهها مثل نباتات المقابر البرّية. تنغلق الوجوه، وينسحب البحر إلى جهة غير معلومة بعد أن أغلق كلّ شطآنه. أين المفرّ يا ابنة الوزير المجنون؟ تبحث بعينيها. بجسدها. بروحها المردومة تحت آلاف الأطنان من الخرافة وسيول الدّم. كلّ الزوايا مظلمة. تزداد قتامتها كلّما اقتربنا منها. تصبح الحركات أكثر عنفاً وشدّة وقساوة.

تناولت الكأس الموضوعة على الطاولة. الويسكي الرابع. شيءٌ ما كان يملؤني. مريم تقول.

ـ إذا ما عَمّرتْش راسي، ما نعرفش كيف نعوم على راسي!

لابدّ أن تكون قد شربت كأسين، أو ثلاثاً. وربّما أكثر. كانت هنا قبلي هي وأَنَاطُولْيَا. لا يعرف سحر الجنون إلا من جرّبه. رأسي كان قد بدأ في الغليان. كلّ المشاهد كانت تغلي وتضيّع أَمكنتها، لتعود لها بعد بحث هادئ ورزين، أو يحاول أن يكون رزيناً. وَيْنَكْ يا عود أبًا لخضر؟ قصبة فقط تُنزع من الوديان ثمّ توضع بين الرّجليْن. نركبها مثل جدّنا دون كيشوت ونبدأ في غزو القلوب المغلقة. ألم يكن فينا شيء من جنون دون كيشوت حتّى قبل أن نعرفه؟ احملها يا جدّي العظيم واهرب من العيون الّتي يملؤها الشوك. شهريار عندما ينتهي من شهرزاد، سيغتصب دولثينايا بأصبعه الوسطى لأنّه عاجز حتّى أن يفعلها كخلق الله. عَوْد أبًا لخضر والقصبة الخضراء الّتي تصفرُّ بسرعة. نستعملها كسلاح، نبحث عن بقايا الفلول الأجنبيّة داخل بيوتات الخالات الواطئة. كانش رجالة! هو أنت أيّها الرّجل الصغير الّذي يركب حصانه، ثمّ يتأبّطه كسلاح عند الضرورة. حتّى النسر الّذي حام على رأس شهرزاد وسط هذا القفر العطشان، غاب بسرعة وسط الأدخنة والعواصف الرمليّة. مدّتْ مريم يديها إلى السماء. مدّتهما أكثر إلى الأمام، لكن السماء كانت مغلقة مثل هذا اليوم. ازدادت قامة مريم طولاً وهي تقف على رؤوس أصابعها. حاولت أن تطير. أن تُحلّق. أن تتبعثر في الفضاءات، داخل الأشواق والألوان والأحزان، لكن النسر كان قد صار بعيداً. أحنت رأسها بانكسار لحظة اليأس العظيم. حاولت أن تفتح عينيها بصعوبة كبيرة جدّاً. كنت أتأمّل جسدها من وراء الكأس والانكسارات الضّوئيّة كانت عبارة عن شكل هلامي من النور المتعدّد الاستطالات والألوان.

صباح الخير أيّها الحزن المستعاد! صباح الخير أيّها السواد،

سيّد الأكوان والفلوات. صباح الخجل يا بلاداً تنسى أحبّتها وشهداءها، في الصباح تقرأ على أرواحهم الفاتحة وفي المساء تحاكمهم. صباح الموت أيّها القتلة الجدد! من أين يأتي إذن كلّ هذا الدّود الملوّن؟ ماذا حدث، النّسر الّذي ابتلعته السماء بسرعة، لم يخلّف وراءه إلا الفراغات ولحظات اليأس والاندثار، ليعود الأنين إلى بداياته الأولى. تأتي الشجرة المنسيّة، شجرة الخرّوب، في الخلاء المقفر، تبحث عن جذورها ومنابتها. المرأة الّتي شقّت صدرها وألبستها تغطّي نهدها المجذوع عند الحلمة. يأوي إلى الكلمات، وسط الكآبة والقلق، الخائف إلى خوفه والمجنون إلى جنونه. وتتمدّد مريم مثل النّوّارة، بيأس على الأرض لاستقبال السكّين. تتحرّك كالمصروع. هي شهرزاد في دمها. تئنّ في ذاكرتها وتتأوّه. يتحوّل خيط الكمان إلى موسى حادّة، إلى خيطٍ كبير للمذبحة العظمى. لا! لا! شهرزاد.. يا ابنة الجرح المقيّح في الصدر، يا ابنة القلب المدفون تحت ركام الخوف: هل يموت الإنسان باستسلام؟ لِيُلْقِ بنفسه من الطابق الخامس في باب الوادي! هذا أفضل من هذا الموت الرخيص، من أن يستسْلم لحدّ السكين المعقوف الرأس. الموت عظيم، عندما نختاره بعظمة، لا أن يختارنا لحظة الانهيار والانهزام. والمقاومة وسط كلّ هذا، أعظم. لتلبسي خمسة تبابين. عشرة، ولتأوي بعدها إلى فراغات البحر التحتيّة. تتكوّر مريم على الأرض. تدور. هل هي تردح الآن مثل الشاة الذّبيحة؟ يصعد لباسها إلى وجهها، يزداد جمالها في لحظة الموت.

يدي كانت على قلبي. كنت خائفاً من أن تموت حقيقة، أن يصير الموت ناراً تشتعل في حلقها بعيداً عن الموسيقى والعرض والباليه. يبدأ الأنين في عمليّة التحوّل إلى ألم ينشأ داخلها بكبرياء زائد. تتعمّق صرخات الكُونْترَبَاس الجافّة، لتقاوم هذا الموت الّذي يفقد العيون زرقتها ويحوّلها إلى بياض مفزع. تتعكّر بحيرة البجع، ويسقط طائر النّار وتنطفئ شعلته، ويتلوّث الدانوب الأزرق، ثمّ

يجفّ. أوف. كلّهم يسرقون من هذا النبيّ العظيم رمسكي كورساكوف! هو سيّد الأكوان حين يصدح بآلامه وأشواقه وسيّد الخلق والإبداع عندما يكتب جزءاً من نوتته المعقوفة. وحياتك، لقد سرقوا منه كلّ شيء. تقول. تصِرّ. تكزّ على أسنانها وكأنّ كورساكوف تحوّل إلى شعاع داخل قلبها. وهل هو يعرف أنّ في بلاد تؤخذ منها الحياة، هناك امرأة ما تزال مصرّة على الموسيقى وعليه؟ حتماً لا يعرف، ولكنّه يملك حساسية الأنبياء المفرطة. سألقاه في كون وظلال وزوايا شهرزاد وسأكلّمه طويلاً حتّى يملّ! لا، هو لا يملّ. الفنّان لا يملّ من الحياة. هو ممتلئ بها. مجنون بأعماقها. الظلام مايزال يلفّ المكان. تتضخّم النّوتات والألوان والوجوه، ثمّ تنزل، ثمّ تتضخّم. تفتح مريم كفّيها على سمعتها تبحث عن شيء غامض. تقوم بصعوبة. بحركة خفيفة يتجمّع شعرها عند وجهها. تصعد على رؤوس أصابعها ويداها ما تزالان تبحثان عن الشيء الّذي لا ملامح له أبداً ثمّ تنزل، تنزل مثل قطرات الحلم والمطر. قطرات ساخنة. باردة، ملوّنة، متوهّجة. يعوي صوت الكمان كذئب معزول في الأنواء. تتحرّك الأشجار والنخيل، والرّياح جزعاً. تتعانق. تلتصق مع بعضها البعض، لكن الخوف يظلّ سيّد الصمت والأكوان الّتي تموت في طمأنينة وسكينة. العيون الّتي تتلصّص على صمتنا صارت لا تُحْصَى. مثل النمل المجنّح. المتعبّدون في الفراغات الصحراويّة يدورون حول أنفسهم في كورس جنائزي لا تُرى بدايته ولا نهايته. الجمعة الحزين يعود بأصواته الّتي لا تموت. خلّوني نفلع لهم وَالدْيهُمْ(1). خلّوني نموت. تحيا الجزائر. وتصطدم الشاحنة بالحائط الأصفر المليء بالعسس والعسكر، مخلّفة ثقباً كبيراً في الأسمنت الصلب. ترتشق الدمعات المتأخّرة على خدّي مريم.

هي لا ترقص،

(1) اتركوني أنزع لهم أعمارهم.

هي تبكي..

هي تموت..

تمسح دمعتها برشاقة. تتحرّك على رؤوس أصابعها بسرعة، ثمّ تخفّ ثمّ تزداد السرعة، ثمّ تتراجع. تحاول أن تبتسم للأشياء المحيطة بها. للضّوء. للأنوار الّتي تملأ قلبها، لكن السيف البارد المخبّأ وراء الحائط القديم ينزل بارداً على جبهتها ووجهها. تصعد الرعشة من قدميها إلى رأسها. تبحث عن بقايا الوجوه الرائعة داخل الملامح الضّائعة. انتبهي. احذري يا ابنة النّاس! إنّه السيف يا شهرزاد الّذي يقطع الرأس، بانتهاء الحكاية أو بتوقيفها. مَوْلاكِ شهريار!! مولى الدنيا بأمصارها وأزقّتها ومساجدها وكنائسها، ينتظر لحظة الدّم، ليرفع يده المخضّبة مختضناً سيفه البُوسْعَادِي، مع الفجر الأوّل حين تموت الدّنيا داخل عينيه. هل انتهت الدّنيا يا سيّد الدّنيا؟! كيف حالك أيّتها الدّنيا؟! تحرّك مريم رأسها بتثاقل، كمن يقوم من نوم عميق. تفتح عينيها بهدوء. تستنشق النسائم الفجريّة الأولى. هو ذا البحر يأتيك. تملئين صدرك برائحته. بعمق. تلتفّين داخل جسدك. يحوّطك بزرقته. تنطلقين كالموجة المكسورة الّتي تقاوم موتها الحتميّ.

مريم! يا زرقة المدن الساحليّة المسروقة وبنفسجة ظلال حقول الجنّة وتفّاحة المجانين. أهذه أنتِ؟ العرق يملأ جسدك. يغسلك. يعطّرك. يكفّنك. يدخلك طقوس العبادة، لتبدأ الحكاية الجديدة، الّتي تولد من رحم الحكاية الميتة. كان الصّياد يا سيّدي يعشق النساء، مصاباً بوبائهنّ يا سيّدي. عاشقات حتّى الموت، وهو مثل قطعة نحاس خرساء. كان مخصيّاً. وربّما لم يكن كذلك، لكن المرأة الّتي أراد أن يكفأها على ظهرها ضربته في حجره بركلة حتّى طار إلى السماء ولم ينزل إلا بصعوبة. يستاهل الله يلعن والديه، ولد الكلب هم قالوا هذا. الّذين عاشوا مشهد الاغتصاب. هي تلك المجهولة من مدن الريف الّتي عرّته. وقلبته على ظهره، وسفدته أمام النّاس

جميعاً. ثمَّ وضعتِ يديها بين ساقيها الممتلئتين، وضغطت بقوّة، ظلّت تضغط. حتّى تحوّلت اللّذّة في جسدها إلى خيطٍ من نارٍ حارقة، وذابت داخل النّعومة مثل شمعة الأولياء. آه!! يا الشمعة يا الضّاوية وشكون على باله بيك!! شوف يَا وَلْدْ النّاس. إذا ما تبْعَدْشِ أرْمي نفسي من الطابق الخامس. الله يلعن بُوْك[1] وبُو والديك. يا ولد الحرام!! دَرْتْها يا وحد السّوفاج! Espèce de malsain! التبّان الأوّل. التبّان الثاني. التبّان الثالث. الرابع. الخامس.. العدّ يضيع. ولد الحرام. كيف دارْ باش. قطّعهمُ مثل الدّابّة! النّهش! أيّة لذّة كان يشعر بها مع امرأة ليست له، نائمة في عالمها المغلق. تتأوّه مريم. يتنابها مغص مؤلم جداً. تضع رَأسها بين يديها وتظلّ تدور في مكانها وتدور..

يكفي مريم! يكفي! كدت أصرخ مِنْ مكاني. ستقتلين نفسك. تدحرجتْ الكلمات في أعماقي من غير أن أفتح شفتي. تضع يديها بين فخذيها. يكفي. تضغط. تدور. تفتح فمها. تحاول أن تصرخ يسبقها الصّمت وموت الكلمات. بِلا رَبّي مَارَاكْ لامَسْني[2]. راح تشوفي يا القحبة بنت القحبة! تمتشق مثل الرمح. ترفع عنقهَا الطّويل عالياً. تتمدّد مثل الدّمية. تفتح رجليها. تفرجهما أكثر حتّى يستقيما مع أرضيّة منصّة الرقص بكامل طولهما. تتمايل كغصن مكسور. تلك أرضي الّتي أعشقها. لي دفؤها وحنينها وخوفها وحبّها.

يتصاعد أَلَقها باتّجاه صدري. لك الفرحة والحياة يا ابنة الحياة. يشمّر شهريار عن ساعديه. هذا الصامتة، لم توقّف الحكاية ولم تُنْهها. سأقبض عليها وآكلها نيّئة. تنفلت. يقبض. التبابين الكثيرة. واحد... اثنان... ثلاثة... خمسة... تتحرّك على رؤوس أصابعها داخل القطيفة الزرقاء. تظهر ساقاها المصقولتان مثل

(1) أبوك.
(2) والله، لن تلمسني.

تمثال يُوناني قديم. تقوم. يصرخ شهريار. هَاهْ أنتِ! هِيتِ لي!! لا يا سيّدي. أنا لنفسي. لنفسي وحدي. للحكاية المسحورة الّتي تقتل أكبر العتاة وأفظع الطغاة. آه!! يا لالة ما أعظم وجدك. افتحي قلبك يا ابنة الشهيد أو الرّجل الملتحي!! لا يهمّ. أنت لحظة التأزّم الّتي تعرف حلّها. الرقص يعذّب وأنت شابّة صغيرة لا تتوقّف. الذئب يعوي في صدر شهريار، يغادره بعنف، بعد أن مزّق صدره وجسده إلى ألف قطعة وقطعة. تركض. يحمل أثقاله وأمعاءه ودواخله، وجلده وذئبة ويركض وراءها. تسقط. تتعثّر ثمَّ تقوم من جديد وتركض. أيُّ عصر هذا هو عصر الحريم!! يجب أن تغسل إهانة الملك - الحاكم - الهمّام، بالدّم. أينه ملكك أيّها المسكين!! لا شيء. طائر الفينيق. طائر النّار. يقوم من أكوام رماده. لا ليست لسترافانسكي. كورْسَاكُوف أهمّ. كان محبّاً للشعر والنّور في زمن القتلة. La pskovitaine. وإيفان الرهيب. ليلة رأس السنة. كاترينا الثانية؟ غرائبي. سحري. مجنون بفاغنير وموزارت وبرليوز. اليوم. هل بقي لنا شيء اسمه اليوم؟ يضعون الرماد في الأغاني. هل جاء وطن الخوف؟ إنّه يتأسّس على أشلاء الأجساد الّتي ترى. سيغلقون كلّ الأبواب. النّوافذ. الأسطح. وتبدأ لحظة الأفول الرهيب. مع ذلك، سيحفر النّاس حفراً صغيرة وثقوباً داخل الحيطان ويخرجون إلى فسحة النّور. مريم رقصت مرّة على أنغام سمفونيّة «ليلة ماي». قالت هذه اللّيلة لنا. أَلَقها المجنون أيّام شبابه والتهاب عشقه للحياة. تتأوّه. يزداد أنينها الّذي كان يخرج بصعوبة مثل الحشرجة. تتكثّف رقّته داخل هذا الفراغ الواسع. لا يموت. تمتلئ الصالة، يهدّه الصّمت وأنفاس أَنَاطُولْيَا المتقطّعة وهي مشدوهة لا تصدّق ما كان يحدث أما عينيها، والأضواء الّتي لم تكن لتستقرّ على لون واحد بينما كان ألقها واشتعالها يزداد توهّجاً. ما أجبن هذا اللّيل الّذي يأخذ روحك. يجب أن لا تنام شهرزاد. فالنّوم أَخُو الموت. دُوري... يا مريم. دوري. الآلات تتذابح والأصوات تزداد جفافاً وحدّة والوجه الحزين يأتي. الوجه الأزرق يملأ العيون. يخرج من أعماق البحر، بين موجة

تأخذه وأخرى ترميه على حافّة الشّاطئ المسكون بصرخات العاشقين. تخفّ الموسيقى ويحلّ محل الصرخات، انجذابات الفالز الأوّل والثاني في حركات غير قارّة. الابتسامات الّتي تكسّرت على الوجوه اليابسة تعود إلى ملامحها الهادئة المليئة بالحنين والشوق. البحر الّذي انسحب فجأة، يعود حينما تمتدّ مريم وتمدّ يديها إلى عاشقها الولهان، إلى الجدار الّذي سقط ثمَّ قام من جديد، فيندى الرمل النّاشف وتتلوّن الصخور السوداء بخضرة الأعشاب البرّيّة والبحريّة. تدور مريم زهواً. تدور شهرزاد بنشوة الانتصار. انتصار الحكاية على الخطاب. يرفرف اللّباس الأزرق الشفّاف، الميّال نحو أفق بعيد، يفقد ألوانه الداكنة كلّما ابتعد، تدور مريم، تتلوّن حبيبات البلّور على جبهتها وجسدها. أخاف عليها من النسائم الأولى الآتية من البحر المجاور. الأطّباء قالوا. الرصاصة يجب أن تظلّ ثابتة!! يرحم والديك خلّيني من كلام الأطّباء. أريد أن أكون لك هذه اللّيلة وحدك. لك وحدك. تعود إلى الحركة الثالثة. وإلى الفالز الثالث. تتدحرج كوريقات «البلاطان» في فصلٍ خريفيٍّ جافّ. تمتلئ عيناها بالربيع والفراشات الملوّنة والطّيور الكثيرة والألوان الفضيّة العاصفة.

شهرزاد أنهت جزءاً من حكايتها يا سيّد الأكوان المهزومة والزوايا المسروقة. والصباح يجيء متأخّراً هذه المرّة.

تتلألأ الألوان في عينيها. يعود صوت الكمان شيئاً فشيئاً إلى لحظاته الأولى، إلى حركته الّتي أَفَلَتْ وسط ضخامة الأصداء الثقيلة، ليشقّ صمت هذه الصالة العظيم. ينفذ داخل المسامات كالأنين. كقطرات الندى الشتويّة. ترفع مريم رأسها عالياً. تهبّ نسمة دافئة. تستنشق رائحة البحر بكلّ امتلاء وطفولة. أينك أيّها الصامت؟ أيّها الرّجل الصغير! العصر ليس لك ولست له أبداً. ما أحزنك!! ما أوحدك يا ابن أمّي وسط هذا الجمال المريع. تفتح مريم يديها بشكل صليبيّ. تدور. تدور. يرتفع شعرها الأسود مكوّناً دائرة مضاءة بالألوان

القزحيّة وعندما تقف وسط الدائرة، لحظة، سرعان ما تنكسر إلى الوراء وتبدأ في التراجع عاكسة يديها إلى الوراء وجسدها كان يزداد ميلاناً إلى الأمام. يبدو البحر مغرياً والشمس تطلّ بخجل من وراء التلال. وتكتم شهرزاد سرّها المخبوء. وتصمت عن الكلام المباح. من العبث أن نقتل هذا اليوم أو نَرْمِي به للتهلكة. يخف صوت الكمان شيئاً فشيئاً وصوت الكونترباس تبتلعه الوديان الإفريقيّة والصحاري والقفار.

يموت الصوت.

يموت الصدى.

وتموت مريم على صدري.

لست أدري كيف نهضتُ من مكاني بسرعة رأسي كان مثقلاً بالكأس السادسة أو السابعة. كنت أعرف الفصل الأخير من القطعة بشكل جيّد. لقد رقصنا على هذه الحركة العديد من المرّات. الأشياء مرّتْ بسرعة مذهلة، رغم ثقلها أحياناً، أتذكّر أنّي سمعت الباب وهو يغلق، وصوت سيّارة أَنَاطُولْيَا وهو يتهادى إلى ذهني، وصوت البحر في تكسّراته العنيفة على صخور الشطّ البركانيّة. بدأت أشعر بتقطّع أنفاسها وهي تدخل إلى صدري بعنف شديد ثمَّ تنطفئ كالشعلة الزّرقاء رصاصة في الرأس، كانت تقاوم السقوط.

ما أروع صوتك أيّها الفارس الأزرق المنزلق من موجة متكسّرة داخل بحر مجنون! أيّها السانطور الفارسيّ والشجيّ البغداديّ والطّامْ طَامْ الإفريقي. أيّها اللّحن البربريّ المنزلق نحو الأعماق. ما أقدسك أيّتها الشعلة الّتي تنطفئ داخل الصدر المحروق ببطء شديد. لم أسمع إلا دقّات قلب مريم الّتي فقدت اتّزاناتها وهي تتوالى بدون انتظام وجسدها الّذي ينتفض كالمذبوح، وإشراقة ابتسامتها المتألّقة.

ـ هل تراني؟! لقد صرت شَفّافة!

نعم!! لقد صرتِ خيط الجثّة الرقيق والحادّ، مدَّتْ يديها من جديد. سحبتني إلى صدرها أكثر، مددت يدي إلى خصرها. كنت أخاف عليها من أن تسقط. أن تذوب مثل قطعة ثلج صافية كحبّة بلّور.

الصمت عاد من جديد، يلفُّ القاعة الواسعة. انطفأت كلّ الأضواء ولم تبق إلا نوّاسة حمراء في الزاوية وصوت تكسّرات الموجات الّتي شعرت بكثرتها. لست أدري كم كانت الساعة، شفتاها كانتا ساخنتين مثل جمرتين في فصل شتوي قارس، تتكسّران في داخلي كالشهب في شعلة عالية علوّ السماء. اندفعتْ في صدري، بينما يدي كانت تخطّ خطاً مستقيماً داخل فتحة اللّباس البحري الشفّاف. تأوّهت. كانت حارّة مثل الأشواق الّتي تندفع دفعة واحدة عندما يكتئب القلب. فَتَحَتِ القميص واندفنت أكثر حتّى غابت. قبل أن نتهالك على الصوفة المرميّة في الزاوية لاستراحة الرّاقصين، لم تبقَ إلا أصداء شهرزاد والصوت النّبوي الّذي لا يموت. حاولت أن أُتَمتِم. أن أتكلّم. أن أصرخ. أن أرفع صوتي عالياً وأنطق بكلّ الكلمات البذيئة ضدّ رعب الجمعة الحزين، وبكلّ المفردات المسحورة، أمام هذا الجمال الّذي بدأ يتحوّل إلى عبادة. تمنّيتُ في تلك اللحظة بالذات أن أقول لها:

ـ خِفْتُ عليكِ أيتُها المجنونة!

لكن لساني اندفن في حلقي مثل الحجرة الثّقيلة وبدا لي كلامي ضعيفاً أمام مشاهد الجنون والقيامة وأمام عينيها اللّتين كانتا تبحثان عن أجمل الألوان وأفضل الصفاء. يداها المنغرستان في عمق جسدي تبحثان عمّا تبقّى من هذا العمر المنهك. كانت الألبسة الرقيقة قد اندثرت وتحوّلَ جسدها إلى تمثال مليء بالألوان والحياة. تأوّهتْ حتّى انعكف جسدها وتداخل، أرجوك لا تتوقّف! أكثر! أكثر! أَنَا لَكَ وَحْدَك. أُحبّك. مجنونةٌ بِكَ. هكذا.. أُووُوهْ.. تَتَأَوَه. تَغيب زرقة عينيها، ثمَّ تَأْفُلُ داخل العنفوان مثل نجمة هاربة في سماء واسعة.. واسعة.. واسعة..

أردْتُ أن أفتح فَمِي. أن أقول، أُحِبّكِ مريم، يا حليب الطّفولة والحلوى والشَّبّاكيّة[1] وكرّاسات المدرسة المليئة بالألوان والأرقام. وَضَعَتْ أصَابِعَهَا على فمي بِحُنُوّ كَبير:

ـ أُشْشْتْ.. أُشْشْتْ.. أُشْشْتْ..

وتركتْ جسدها العاري ينساب داخل الموجة المتكسّرة على شطآن البحر المنسيّ. داخل الجنون الأخير. داخل القيامة المذهلة. لم أتذكّر شيئاً سوى باقة الورد الّتي كانت على الكرسي الّذي بجانبي ورصاصة الجمعة الحزينة، ولكن سرعان ما ضَيّعت الذاكرة وتَشَلأتْ دَاخِل الموجة الزّرقاء وداخل الشعلة الّتي كانت قد بدأت تجتاحني من صدري.

(1) حلوى شعبيّة تحبّها الصّبايا.

VIII

البحر المنسيّ

ما أوحدك أيّها البحر في عزلتك المفجعة!

ـ هاه. جاهز؟

قالتها وهي تعبر مدخل البيت كعادتها بسرعة، قبل أن تنزع معطفها كما اعتادت وقبل أن تتهالك على الصّوفة داخل الصّالون.

ـ طبعاً. جاهز كما ترين. التلفون يحلّ مشاكل كثيرة. لقد دخلنا العصر منذ أيّام فقط.

ـ نخرج. أَنَاطُولْيَا تنتظرنا لأخذها للمطار.

ـ من يدخلني لا يخرج بسهولة.

ـ أوف!! أنت نصّاب. الكلمات معك لا تمرُّ بسهولة!

تأمّلت وجهها وأنا أعبر الصّالة باتّجاه الحمّام. هي مريم تأتي محمّلة بكلّ طفولتها. بعينيها الشّرستين. منذ أكثر من أسبوع وأنا أعيش حالة المتوهّج، بين الواقع والإغفاء الّتي نتمنّاها أن تطول ولكن قِصرها يخادعنا فجأة. لم يكن ممكناً أن أنسى رقصة باليه شهرزاد الّتي أدّتها مريم وحيدة، بعيداً عن فرقتها. لقد صار مؤكّداً أنّ عرض شهرزاد، لن يؤدَّى، بعد التهديدات بِغلق الصّالة من طرف

رئيس البلديّة الإسلاميّة وطَرْد أَنَاطُولْيَا بشكلٍ مقرف بعد تلقّيها رسالة تنذرها بانتهاء العقد الّذي يربطها بالمعهد العالي للفنون الجميلة وأنَّ وجودها في البلد لم يعد مرغوباً فيه. لم تعلّق كثيراً، لأنّها كانت تعرف البقيّة منذ أن أصبحت كلّ المؤسّسات الثقافيّة محلّ صراع سياسي ثمَّ التهديدات، ثمَّ مقتل كلبتها «نوروشكا». عندما دخلتْ عليَّ مريم هذا الصّباح، كنت مازال دائخاً بها منذ أكثر من أسبوع، في عينيّ امتلاءٌ بدهشتها. في ذلك اليوم الّذي لم يكن بعيداً، عندما غادرنا الصّالة كان الفجر وكنّا مرهقين. ظللت استعيد بانتشاء وعياء جسدها وهي تندفع في داخلي مثل خائف من موت محتوم. وعندما شعرت بأنفاسها تعود، قبّلتها في عينيها. قالت مريم:

- هل تعرف كم أحبّك!؟

لم تكن لديّ إجابات مقنعة سوى استرجاع اللّحظات الّتي توالت حتّى صار من المستحيل تعدادها. لست أدري كم مرّ من الزّمان. الّذي أعرفه، هو أنّنا عندما استيقظنا كانت السّاعة الخامسة صباحاً. وكانت ملفوفة داخل معطفي الخشن القديم الّذي ورثته عن أبي الشّهيد، العامل في السكك الحديديّة بفرنسا. تقولها دائماً. أرجوك البسهُ من أجلي. أريد أن أراك به. ونبّهتني يومها إلى ارتدائه قبل حضور العرض الخاصّ جدّاً. كانت عارية داخل المعطف. أخرجت يديها، ثمَّ سحبتني من جديد باتّجاهها. أرجوك ابقَ لحظة أخرى. ابقَ قليلاً. هكذا.. هكذا أريدك. ضمّتني طويلاً ونامت قبل أن أنبّهها إلى ضرورة مغادرة الصّالة قبل السّاعة السّابعة. سرنا في ذلك الفجر البارد باتّجاه المدينة. لأوّل مرّة نكتشف بدهشة فجر هذه المدينة الرّائع، بعيداً عن أصوات الباعة والسيّارات والزحام. كم من الأشياء الجميلة تموت في هذه المدينة! أنهينا بقيّة الفجر في بيتي، كان الفجر رائعاً رغم الصداع والدّنيا خالية إلا من المصلّين الذين حرثوا طرقهم من كثرة تكرار فعلهم يوميّاً، وبعض القطط الّتي كانت تبحث وسط الحدائق الذابلة عن أمكنة للتدفّؤ. ملأنا صدرينا بالهواء

البارد. أوف! ما أروع هذه اللّحظة الّتي لا تتكرّر دائماً. هذه المدينة لا تنهض دهشتها إلا في الفجر أو في آخر اللّيل.

- هاه سيّدي جاهز!! أم مازلت غارقاً في سهوك؟ مؤكّد أنّك تفكّر في شيء أهمّ منّي.

- وهل هناك ما هو أهمّ من وجودك الآن؟

- السيّدة تنتظرنا في بيتها. وقتها محدود.

- أعرف أنّ طائرتها لن تقلع الآن.

انزلقتْ ورائي إلى الحمّام لغسل وجهي وهي تقبض على خصري بهدوء وحنان. انحنت برأسها على كتفي. شعرت بشعرها يدغدغ رقبتي وأنا أتأمّل المرآة، قالت وهي تبتسم بشكلٍ طفوليّ:

- ما شَمِّيْتْ وَالوُ؟

- لاكْرُوبَات. لالهْ مَجْنُونهْ.

- مجنونة بك.

ثمَّ أخذتني من يدي. وسحبتني باتّجاه الصّالة، أخذنا أشياءنا الصّغيرة ثمَّ انزلقنا داخل سيّارتها 205 الفضّية بعد أن سحبت باب السّكن وراءها. نزلنا إلى بيت أَنَاطُولْيَا الّتي وجدناها تنتظر عند باب سكنها، ثمَّ إلى المطار.

في الطّريق تساءلتْ أَنَاطُولْيَا. في عينيها بقايا حزن عميق لم تمحه ابتسامتها المنتشلة بصعوبة كبيرة:

- الغريب، الدّنيا تغرق والدولة صامتة.

- اللّي يُرْضي كلّ النّاس، لا يُرضي نفسَه. هذه فوضى وليست ديمقراطيّة.

- رأيت ماذا فعلوا؟ اسكنوا المنكوبين في دُور الثقافة، وقاعات المسرح وصالات الرّقص، يحلّون مشاكل الزلزال الّذي ضرب المدينة على حساب الثقافة والفنّ.

ـ حتّى صالتنا كثر حولها القيل والقال.

ـ وحقّ ربيّ يسيل فيها الدّم. لن تمرّ بسهولة.

قالتها مريم بعفويّة سريعة. أَنَاطُولْيَا، كانت تخرج الكلمات بصعوبة من فمها. تعبت كثيراً. سرقوا منها كلّ الأحلام الّتي جاءت من أجلها إلى هذه البلاد الّتي ابتذلت حتّى صارت أصغر من بعوضة عمياء. قالت أَنَاطُولْيَا وهي تُدخل أصابعها في شعر مريم النّاعم:

ـ بلادكم مدهشة، لكنّهم سرقوا منها الحياة.

ـ يجتثّون الجثّة وينهشونها. مْشَاوْا بني كلبون، جاوْا حرّاس النوايا.

ـ البؤس هو الّذي جاء بهم. لا يعشِّشون إلا داخل الأزمة.

في المطار شعرنا جميعاً بكآبة وقلق كبيرين. يا الله! لماذا لا تُسْتَثَارُ الأُلفة وحنين الفقدان إلا لحظة الافتقاد فقط؟ كانت ضراوة الأشياء تزداد. أَنَاطُولْيَا تخرج نهائيّاً. وَمريم تسافر. تذكَّرت خروجها ودخولها في كلّ مرّة مع فرقتها للباليه الوطني. وداعاً يا مريم!! وداعاً أيّتها الحبيبة الهَبِيلة! ما أبعدك عن عيْنيّ وما أقربك إلى قلبي. لا أتذكّر الآن سوى أزيز الَطائرات وصفّارات السّفن والقطارات. لقد تعبت كثيراً وأتعبتك معي وأتعبتني معك. من وداع لوداع. من طائرة لطائرة. من موت إلى موت. ترحل ذاكرتي ودمي وشوقي. أُوَدِّعُك كلّ صباح إلى البلاد البعيدة الّتي تسرقك منّي ولو لأيّام. ولكن بلا هوادة. لقد حفظت ألوان المطارات الباهتة ووجوه العمّال البسطاء ولون التواليت والمقهى وأختام الجمارك ومدارج الطّائرات وسُمْك الزجاج الغليظ حين أودّعك بعيني من خلاله، لقد حفظت حتّى شكل الصيدليّة الّتي لا تعنيني مطلقاً وألوان الأشياء الّتي لا أعرفها ولا أحسّها. من وداع لوداع، تأتين ثمَّ تعودين ثمَّ تذهبين باتّجاه البلدان البعيدة، بعضها لم نره إلا في البطاقات البريديّة. «سأبرق لك أوّل ما أصل».

تقولينها ثمَّ تندفعين داخل قاعة الانتظار. كلّ ما في هذه المدينة انتظار، حتّى الموت، أو عندما تأتين معي لِتَوْدِيعي وأنْتِ ملتصقة بصدري بمعطفك الإيطالي الفضفاض. مريم لن أتأخَّر. سأعود بسرعة. ثلاثة أيّام للندوة، ويومان لاكتشاف المدينة ثمَّ العودة. ثمَّ تَسْحَبِينَني باتّجاهك قبل أن أغادرك، مع ابتسامة فيها الكثير من المكر الجميل.

ـ احذر. لا تَتَشَيْطَنْ. كن عَاقِلاً.

أعرف القصد. أُقَبِّلك وأمضي.

كانت أَنَاطُولْيَا قد انتهت من إجراءات السّفر. مريم كانت ما تزال تقبض على ذراعي. من حين لآخر تنكِّس رأسها على صدري. تكسّرت بعض الدّمعات على خدّها رغم أنّها حاولت أن تخبّئها عبثاً.

قالت أَنَاطُولْيَا وهي تفلّي شعر مريم بأصابعها الخمسة كالعادة:

ـ أنت عظيمة يا مريم، ولكن اهتمّي بصحّتك أرجوك!!

ـ ماذا أقول عندما يكون الإنسان مهووساً بشيء اسمه الرّقص؟ مع ذلك سأحاول.

ـ أنا حزينة لأنّك لم تقدّمي شهرزاد في صالات المدينة. لكن سعيدة لأنّك كنت مدهشة في تلك اللّيلة العظيمة. مدهشة.

لم تقل مريم شيئاً، ولكنّها احتضنت أَنَاطُولْيَا طويلاً خوفاً من افتقادها، ثمَّ التفتت أَنَاطُولْيَا نحوي، سلّمتُها باقة الورد الّتي اشتريتها مع مريم من المطار.

قالت:

ـ أرجوك، Gardes la dans tes yeux. (احفظها في عينيك).

ـ هي رقيقة وهذا الخراب مخيف.

ـ رقيقة وتنكسر بسرعة مذهلة.

ضمّتنا إلى صدرها. ثمَّ نكست رأسها ودخلت قبل أن تنغمس في الإجراءات الجمركيّة. مدّت يدها إلى فمها ورفعت يدها الأخرى ملوّحة تلويحة الوداع. كانت آخر صورة أحفظها عن أَنَاطُولْيَا وهي تخبّئ وجهها خوفاً من دمعة منكسرة، شاردة.

في الخارج كان المطر الخفيف قد بدأ يسقط.

ركبنا سِيّارة 205 الفضّيّة. قلتُ: نعود يا مريم؟ قلت: البحر أفضل. من العبث تضييع بقيّة اليوم داخل البيت، أو داخل زحام المدينة وكآبات أهلها بقبحها.

ـ أرجوك أريد أن ننزل للبحر.

ـ لننزل البحر أفضل من الأدخنة الفاسدة.

ـ البحر والمطر. شيء لا يوجد إلا في القلب والشّعر.

كانت الأمطار الخفيفة قد صارت ثقيلة ونحن متّجهان إلى البحر عبر الطّريق المزدوج L'Autoroute، فتحت زجاج السيّارة، كمشتِ بعض القطرات، ثمَّ مسحتِ وجهي بنعومة. حَرّكت زرّ الراديو في السيّارة.

ـ اسمع، اسمع، مسكود[1] مسكين. المجنون العظيم الّذي سرقوا منه مدينته الجميلة.

«وِينْ زِنْجِي بَابَا سَالَمْ.
سَنْجَاقْ. طْبُولْ وَمْحَارَمْ.
وَغْوَاشِي عْلِيهْ مْلايَمْ.
مَاذا بْنانْ ذُوكْ السّْنينْ.
غَابَتْ النِيّهْ يَا فَاهَمْ
رَاحْ ذَاكْ الوَقْتْ الزِّيْنْ».

(1) مغنٍّ شعبي جزائري.

كانت جنازة المدينة مهولة مثل الحريق، في ميتتها البطيئة. مسكين «عبد المجيد مسكود». كان يُحبّ مدينته، وذات صباح عندما استيقظ وجد مدينة أخرى. شوارع أخرى. وناساً آخرين. فتحوّلت الغصّة الّتي تجمّدت في الحلق إلى كلمات مليئة بالحزن. ماذا حصل يا ابن أمّي؟ لا شيء سوى أنّ آثار الحيطان القديمة اندثرت.

عندما وصلنا على حافّة الشّاطئ، أرادت أن تتمدّد على ركبتي. شعرتُ بألمٍ في ظهرها. قلت لها انتظري لحظة. ركضْتُ باتّجاه السيّارة. سَحبتُ الفوطة الزّرقاء بلون الموج المتكسّر على الشّاطئ المهجور. رائحة البحر تنفذ إلى الأنف بلا استئذان، مددتُ الفوطة على الأرض، ثمَّ تَرَكتْ جسدها المتعب يتهالك وهي تضع رأسها على ركبتي بينما مسَّت أصابع رجليها الموجات الصغيرة القادمة من بعيد. وضعتْ يديها على وجهها، نزعْتُهما. تأمّلتُ عينيها الصّافتين اللّتين زادت زرقتهما خضرة. كانتا رائعتين بلونها المتميّز العائم في جسدٍ خمريٍّ مسكر.

قالت وهي تعيد يدها لا شعورياً إلى وجهها:

ـ شِفْتْ! أَنَاطُولْيَا كأنّها لم تكن! عجيب هذا البلد!

ـ وَاش تْحَبِّي، هي ضَحيّة لهذا الوضع الّذي يتدهور. البلاد تغرق يا مريم.

كان شيءٌ ما يتمزّق داخلها بقوّة. النوارس تغادر الفضاءات العليا. تحاول أن تقترب أكثر من مشهد السّفن المتروكة على الشّاطئ. تتصدّع الكثير من الجدران الهشّة والكثير من القناعات الّتي لا تحدّ. كلّ ما يحدث أمام عينيها من العسير هضمه. من قال؟ قلنا خرج بنو كلبون وأصبحنا ديمقراطيّين، وها فجأة نكتشف أنّهم غيّروا اللّباس فقط، ليصبحوا هم هم، حرّاس النوايا. يدخلون من الأبواب على دمّنا، وعلى أنقاض الرّصاصة الّتي تنام في دماغك.

ـ مَالَكْ سَاكتْ؟

ـ ماذا تريدِينَني أن أقول؟ محزون مثلك حتّى القلب.

كانت الأمواج تتكسّر عند أصابعها العارية الرّقيقة. يبدو أنّ شيئاً ما في داخلنا كالشوكة يصعب ترويضه، يجدِّف ضدّ التّيّار، كانت الأمطار الخفيفة قد توقّفت لفترة ثمَّ تعود ثانية بقوّة. لم تتحرّك، ظلّت ممتدّة. يدها على وجهها.

حُزْنُها كان أقوى وأفظع.

ـ الأمطار.. بدأت. أصبَحَتْ مزعجة.

ـ آه لو فقط يهدأ هذا الألم. الرّصاصة الملعونة.

ـ حاولي أن تنسيها.

ـ منذ ليلة «شهرزاد» أشعر أنّ حركتها ازدادت وهذا يزعجني.

ـ ليس مهمّاً. يجب أن نرى صديقنا الفلسطيني في أقرب وقت.

ـ لست نادمة، الرّقصة كانت مدهشة. كنت أريد أن أخبرك فقط.

ـ قلتُ لَكِ، لكنَّك مَهْبُولَةْ.

ـ يا سيّدي مجنونة ومجنون. لا حرج عليهما. كان يجب أن أفعل ذلك قبل أن أموت.

كدت اصرخ بأعلى صوتي. مُتْعَبٌ، مُرْهقٌ لا أريد أن أسمع هذا الكلام الفارغ. إنّك تموتين بعنادك. الحياة تُعطى مرّة واحدة. فإذا كان من العبث عيشها وسط البؤس فمن الجنون الانتحار. رأيت بريقاً طفوليّاً في عينيها وحزناً مليئاً بالغشاوة. زرقة عينيها بدأت تأخذ كلّ تلوينات المغيب والبحر، ثمَّ تستقرّ على خضرة تشبه خضرة غابة يلفّها الضّباب الفجريّ بنداه. كانت الأمطار قد خفّت من جديد وتحوّلت إلى رذاذ خفيف. عاجز عن الكلام. وهذه المخلوقات، إنّي أرى الموت الّذي بدأ يسرق ألقها. احضُنيني أيّتها الأنواء. فالغشاوة تزداد. والقلب امتلأ، والذّاكرة أصبحت حافية. إنّي أشعر بمريم تنأى، مثل النجمة الهاربة. هل أقول لها إنّي حزين لأجلها ولأجلي؟!

إنّ بي رغبة كبيرة للبكاء والعويل والصياح، والنباح، والفوضى والتكسير. هل أقول لها إنّك عنيدة ومهبولة. تبيدين حياتك وحياتي. هل أقول لها، أين كنت مختبئة؟ كنت هادئاً في زاوية داخل بيت، معزولاً عن الدّنيا، يائساً حتّى من نفسي. أقرأ الصحف اليوميّة والأسبوعيّة والشهريّة. أَحْضرُ المعارض وأعجب بمدرستنا الوطنيّة في الرسم. أتتبّع المسرح والموسيقى وأعود هادئاً إلى البيت، متدحرجاً عبر شوارع المدينة. أكتب مذكّراتي. مشاهداتي. بعض القصص القصيرة أو روايتي الّتي مازالت تتبعني مثل الوباء. أينما وصلت فهي تتبعني. وأكره الركوب في التاكسي لاسيّما عندما يكون الجوّ ممطراً. أفضّل المشي، وأكره المطريات. هل أصرخ وأقول لها إنّك صنعتِ لي دائرة جديدة، مركزها الأوّل: مريم؟ هل أقول لها بأنّي كئيب، كئيب جدّاً مثل هذه النسمات البحريّة المعزولة في هذا الفراغ الّذي يضيق كلّ يوم أكثر؟ هل أقول لك يا مريم إنّك استأصلتني من داخل المتعة وأخرجت رأسي إلى شوارع كنت أكره المشي فيها؟ قلتِ لي في ذلك المساء البارد. يا رجل قم!! خلّيك من الفراش والموسيقى والقراءة. اليوم ممطر. ألا تحبّ المطر أيّها الرّجل الصغير؟ الدّنيا جميلة وتستحقّ أن تُعاش. لا تكن مثل النعامة. عندما يأتي حرّاس النّوايا ويصلك رعبهم، ستموت مشويّاً، مشنوقاً، مذبوحاً، منتحراً. مُتْ بشغفٍ على الأقلّ. ماذا أقول، المخّ يغلي، والداخل بدأ يتفتّت.

مسحت مريم وجهها من رذاذات المطر والموج وسحبت أصابع رجليها قليلاً من البحر.

ـ مجنونة أليس كذلك؟ إنّي أعذّبك؟

ـ إنّك تنتحرين يا مريم. صحّتك أوّلاً.

ـ يا أخي لماذا تريد أن تكون وصيّاً؟ حياتي وأنا صاحبتها.

ـ حياتك حياتي.

ـ هل تريدني أن أخبّئ رأسي في البيت، مثل الزّوجة الصالحة.

تربّي البنين لهذا الوطن العظيم. أيّ عظمة؟ إنيّ عاجزة عن فعل ذلك!

– أنا لم أقل هذا الكلام.

– هذه النتيجة. شوف يا ولد النّاس. أنا مجنونة. هبيلةْ. ضايعةْ. صايعةْ. سَمِّني كما تريد وإذا تعبتَ منّي قلْ لي. نكاية فيهم كلّهم سأرقص حتّى الموت وإذا أصررت أنت كذلك، نكاية فيك أيضاً.

– وحياتك أنتِ هي أنتِ ولو كان تَتْزَلْزِلْ الأرض.

– وماذا تريدني أن أكون؟

لم أردّ عليها. صمتُ لحظة. تأمّلت البحر الّذي كان امتداده يشكّل نصف دائرة في الأفق المطلق، وأمواجه تبحث بشغفٍ عن أصابعها الّتي سحبتها قليلاً على الرمل، النّوارس الّتي تجمّعت، جماعات جماعات، غابت وراء قلاع «سيدي افْرَجْ Sidi Fredj» القديمة. قامت مريم من مكانها. وضعت رأسها بين يديها وبدأت تتقيّأ وتبكي وتعوي وتصرخ. هززتها بعنف من كتفها. يكفي من هذا الحزن. نظرتْ إلى وجهي مليّاً. حملت حفنة من ماء البحر، وغسلت وجهها. عاودت الكثير من المرّات. كانت دموعها قد اختلطت بمياه البحر المالحة. ثمّ مسحت على وجهي بيدها.

– مجنونة. يبدو أنّي أصبحت معقّدة. لا أرتاح إلا إذا شوّهتُ كلّ شيء.

– أوف!! تْخَربيق[1]! هل يأتي عاقل إلى البحر لحظة المطر ويصير أحمقْ؟

– مَنْ مِنا العاقل؟ ومَنْ مِنّا الأحمق؟

– اسمح لي على الهبال!!

مسَّدت على شعرها الآسيوي الناعم. في عينيها انكسار دمعات مستعصية لم تنزل. تمتمت بعنفوان وبحزن كبير. يا أخي أنا هكذا.

(1) كلام فارغ.

أُوْخَذُ ككلّ أو أُترك ككلّ. أُحبُّكَ والسَّلام. رقصتُ لك ونمتُ على صدرك ولست نادمة على الإطلاق. أوف!! من قال إنّي سأموت بهذه السهولة. أنا فقط حزينة من أجل أَنَاطُولْيَا. لقد أعطتني كلّ شيء. ربّتني. كبَّرَتني. أَحِنُّ إليها أكثر من أمّي. افتقدتها. وحْيَاتَكْ افتقدتها في هذا الفراغ المقلق. عندما أزعل منك، لا أعني ما أفعل وما أقول.

– ما بينك وبيني يجعلكَ تعرفني وتعرف وضعي.

– أخاف عليك فقط.

– طيّب يا أخي نزّلْ رَاسَكْ شْوَيَ. يكْفِي مِنَ الكآبة.

– لست كئيباً. مثلك حزين من أجل أَنَاطُولْيَا. أعرف أنّ الفنّان في هذا البلد عليه أن يموت ليكون، بدل أن يعمّق عشقه للحياة. وإذا لم يمت، يُقتل. أعرف كلّ هذا ولكن الله غالب. أحبّك.

– يا أخي، من قال إنّ الرصاصة في الرأس تقتل؟ أنا أتعايش بشكلٍ جديّ مع مأساة الجمعة الحزينة.

– رأسك يحمل ذاكرة زلزال العاصمة.

– الّذي يحزنني ليس هذا. الموت كَائِنَةْ وتكون. ولكن هذا البلد الجميل، يعود الآن بخطى حثيثة إلى القرون الوسطى، وحياتك الموت يدق على الأبواب. المسألة مسألة وقت، مادام البؤس يملأ العيون.

– متشائمة لهذا الحدّ؟!

– يرحم والديك قل لي كيف نفرح؟ المرأة تُردم في البيت أو يُلبِسُونها حلاسة[1] على وجهها ورأسها وكأنّها مجرمة بشكل أبديّ. الثقافة ميّتة أو يقتلون الآن جثّتها. البطالة. السكن. الندرة في كلّ شيء إلا الولادات، الوجوه المستوردة الّتي تعلّمنا ديننا وأخلاقنا كأنّنا فجأة نكتشف الإسلام، ونكتشف أنّنا ضُيَّعْ وبدون أخلاق!

– عندما تبدأ المشانق تنصب داخل هذه الفراغات، سيعرف

(1) خرق بالية.

ديمقراطيُو آخر زمان، كم كانوا أغبياء. إنّهم الوجه الآخر لأمّية السّلطة ولعَمَاها. في أيّ شيء يختلفون عن حرّاس النّوايا؟!

- أوف، خلّينا. السياسة تفسد متعة البحر.

قمنا من مكاننا. وضعتُ الفوطة على ظهرها. مددتُ يدي إلى خصرْها ثمَّ سرنا بهدوء على الشّاطئ الّذي كان يمتدّ طويلاً طويلاً. في لحظة من اللّحظات تمنّيت أن لا نتوقّف لولا حبّات المطر الّتي بدأت تتحوّل إلى قطرات خشنة نسمع تكسّرها على البحر وعلى رؤوسنا. كانت صامتة. ملامحها بدأت تعود إلى وضعها الطبيعي. نتوقّف قليلاً. نتأمّل امتدادات البحر وقلاع «سيدي افْرَجْ» وطيور النّوارس البيّضاء ثمَّ نواصل تدحرجنا على الشّاطئ. تستنشق ملء صدرها الأنسام القادمة من بُعْدٍ سحيق. ثمَّ تبحث عن مكانها داخل معطفي الخشن. ونسير. نسير.

- هل يُعقل أن يسرق البحر؟

- البحر كبير. قد نُمنع من رؤيته، لكن لا أحد يستطيع احتكاره أو يحرمنا من رؤيته ولو في الحلم.

- لست أَدْري، لكنّي دائماً أشعر بحزن كبير أمام الأشياء المدهشة.

- شيء فينا بُنِيَ على الألم منذ زمن بعيد.

ثمَّ وضعتْ أُصبعها على فمي. الأحسن أن نصمت أمام الدهشة. أن لا نبتذلها بالتبرير والكلمات. الكلمات في أغلب الأوقات عاجزة. كان المطر يزداد كثافة. قلتُ:

- برْدَانَة يا مريم!!

- أشعر بالبرد في داخلي.

نزعتُ معطفي ووضعته على ظهرها. ابتسمتْ بمكرٍ طفولي.

- شِفتْ! دائماً أجد الحيلة المناسبة لأسرق منك معطفك. أحبّه

لأنّه يُذكّرني بصورة والدك. لابدَّ وأن يكون عظيماً. لو كان حيّاً لعمَّدنا ببركاته.

- حتّى أنا لا أتذكّر منه تفاصيل كثيرة سوى هذا المعطف وحبّه الكبير لوطنه الّذي أكله.

- وجه أَنَاطُولْيَا كلّما نسيته، يعاودني بقوّة. أشعر كأنّ شيئاً في قلبي انكسر يشبه الموت. يتيمة مثلي. ستدخل أضواء موسكو. تسترجع ذكرياتها القديمة وستحزن كثيراً. كانت دائماً تقول، طُزْ في الزواج إذا كان قيداً قاتلاً ولم يكن صداقة ممتعة. عندما غادرت الرّجل الّذي نسيتُ اسمه وشكله قالت: أنا سعيدة جدّاً لأجلك. أنا كذلك طلّقته. كان أُوكْرَانياً مغروراً مولعاً بأصوله وكنت أنا مولعة بالرقص والرسم مثلك.

- أَنَاطُولْيَا كانت مذهلة. تعلّمت منها الشيء الكثير.

- سنسافر إليها ذات يوم من يدري، Le monde est petit، كما كانت تقول دائماً.

أرجلنا كانت تغوص في البحر والرمال الّتي كانت مياه الأمطار تحفرها بقوّة. نهايات الشتاء دائماً هكذا. من بعيد، رأتنا طفلة صغيرة، فجاءت راكضة. تحمل في عنقها عقوداً من النوّار. قالتها بالفرنسية Les marguerites النوّار! ضحكت معها مريم. بَادَلَتْها الابتسامة. قالت لها اسمي مريم وأنتِ.

- نُزهَة.

ظلّت عيناها عالقتين بعيني مَريم المدهشتين في صفائهما رغم حالة الكآبة. قالت الطّفلة:

- طَاطَا مريم. خُذي منّي واحدة!!

أخذت مَريم العقد الأوّل. وضعته في عنقي، بينما الثاني وضعته الطفلة نزهة في عنقها. كانت رائحته الطّيبة ما تزال طريّة،

مع سقوط الأمطار، ورائحة البحر الّتي تهُبّ مع النسمات الخفيفة الآتية مع الموجات الّتي كانت تتكسّر عند الأقدام. سألتها مريم:

ـ بِكَمْ؟

ـ عشرون ديناراً.

ـ من أين تأتين بهذا النّوار الجميل؟؟

ـ من ناحية الكثبان Les dunes.

ثمَّ بدأت الطفلة تدقّق في وجه مريم، كمن يكتشف فجأة وجهاً ضائعاً.

ـ شِفْتَكْ في التليفزيون! كنتِ ترقصين. أنا ثانية[1] نْحَبْ الرقص. بَصَّحْ[2] نرقص سوا في الأعراس مع يَمّا[3] كِيَ[4] بابا مَا يْكونشْ مَعَنَا.

مسّدت مريم على شعرها بحنوٍّ كبير. كان ملتصقاً من كثرة الأمطار.

ـ مَاكِيشْ[5] بردَانَة؟؟

ـ لا. لا.

ـ هه!! عندما تكبرين، سأعود إلى البحر وأعلّمك الرقص. بْقَايْ على خير يا نزهة. أنت طفلة رائعة.

انسحبت الطفلة باتّجاه امتدادات البحر وهي تردّد Marguerites, Marguerites.

التفتت مريم باتّجاهي.

(1) أنا بدَوْري.
(2) لكن.
(3) أمّي.
(4) عندما.
(5) ألشتِ.

ـ شَفْتْ!!! النّاس يظنّونني مهمّة في هذا البلد. شَفْتْ عينيها كيف انغرست فيّ؟!! وأنا ما حَقْلِيشْ حتّى سكنْ في هذه البلاد؟!!

ـ أنتِ موعودة بسكن!!

ـ الله. الله. حتّى أموت!! وهم يتقاسمون البلاد وخيراتها. خلّيك يا رجل من الفَشْتِي.

انطفأت الطّفلة نزهة داخل الشّاطئ المهجور، تبحث عن عاشقين آخرين تبيع لهما عقود النوّار. عندما كنّا راجعين من البحر، رأيناها وهي تركض باتّجاه سيّارة توقّفت بعيداً عنها قليلاً، لتبيع لها عقود النوّار الّتي كانت تتدحرج على صدرها، في الطّريق العابر إلى حافّة البحر، أوقفت مريم سيّارتها وقالت:

ـ أرجوك، سُقْ أنْتَ. رأسي يؤلمني. أشعر بالوهن. الرّصاصة الملعونة.

ـ قلت لك انسي هذا الموضوع.

ـ ما عليهش. سُقْ أنتَ، أريد أن أكون ملكة عليك. تجوّل بي في كلّ المدينة، حتّى يأخذني النّوم.

وضعتْ رأسها على كتفي وحاولت أن تنام قليلاً. عندما انتهينا من حافّة البحر ودخلنا المدينة، عبر «جميلة» و«عين البنيان» و«باب الوادي»[1]، كانت قد نامت. قبل أن نصل، أيقظتها بهدوء.

ـ وصلنا تقريباً يا مريم.

ـ لا! لا. ما حَبَّاشْ نْرُوحْ للبيت. خذني لصالة الرّقص.

ـ أنتِ مُتْعَبة.

ـ أَبْقَى قليلاً هناك، ثمَّ أَنزل إلى البيت.

ـ المفتاح أرجعته أَنَاطُولْيَا للإدارة.

(1) أحياء ساحليّة في الجزائر العاصمة.

ـ ربّما أجد العسّاس. هو يعرفني ويُحِبّني.

قطعنا بعض الأزقّة الضيّقة بصعوبة، ولاسيّما مع هذا اليوم الشتوي الممطر. كانت المدينة قد بدأت تَنْسَحِبُ من الشّوارع وتبحث عن دفئها داخل البيوت الضيّقة. ضغطت على زرّ المسجّل الّذي نسيته طوال الطّريق. «عبد المجيد مسكود»، الجزائر يا العاصمة، يبدو أنّها من أجمل ما كتب عن هذه المدينة في لحظة انهيارها وسقوطها.

«من كل جِهَه جَاكْ الماشي

زَحْف الرّيف جابْ غاشي

وينْ القفَاطِينْ والمجْبُودْ

عَادْ طَرّازْ لحرِيرْ مَفْقُودْ

وِينْهُمْ خَرّازِينْ ألجْلُودُ

وِينْهُمْ النَّقّاشِينْ؟!

وِينْ صَانَعْ سْرُوج العَوْدْ

وِينْهُمْ الرسّامِينْ؟؟!

قولوا لي يا سَامْعين (...)».

من يسمعك يا عبد المجيد؟ كلّ الآذان يا ابن أمّي صارت موصدة مثل الأبواب الصدئة. أصابها الصّمغ وأُغلقت بالشّمع الأحمر. مدينتك سرقت في لحظة غفوة وهي الآن تباد مثل البنايات الّتي فقدت مبرّرات وجودها. مدينتك عادت لها الأوبئة والأمراض الّتي انقرضت منذ زمن بعيد. الكوليرا. التيفوس. الطّاعون. السفلس... المياه كانت تملأ أطراف الشّوارع. عمّال بلديّة العاصمة ببوطاتهم وألبستهم البلاستيكيّة الصّفراء، المتّسخة يحاولون تنظيف مدخل المواسير، لا يحلو لهم العمل إلا في مثل هذه الظّروف الممطرة، ويقضون بقيّة السنة في البطالة المقنّعة.

ينتظرون حتّى تنهار البنايات وبعدها يصوّبون عيونهم باتّجاه الصّالات ودور الثّقافة والمسارح الوطنيّة، والمدارس الفنيّة العليا لنجدة المنكوبين، وتكديس الآدميّين مثل السَّردين داخل هذه الأماكن الّتي تتحوّل فجأة إلى مراكز للاستقبال. هذه هي الظّاهرة الجديدة الّتي جاء بها حرّاس النوايا. كانت المياه تتكسّر تحت عجلات السيّارات، عندما وصلنا إلى القاعة الواسعة، شيءٌ ما كان يدور على غير عادته. بالرّغم من الأمطار الغزيرة، هناك شاحنات كثيرة، كانت تقف بجانب الصّالة على غير العادة. كانت ممتلئة بالأثاث المنزلي، وتقف في خطٍّ مستقيمٍ طويل. تكاثرت الأضواء والضّجيج والوجوه غير الأليفة والصّراخ، مثل صراخ باعة الأسواق الشعبيّة. كانت مريم تتأمّل المشهد بكثير من الخوف والجزع. الدّهشة تُقرأ في عينيها وهي تحاول أن تفهم ما كان يحدث. ثمَّ فجأة قالت:

ـ أنْزِلْني. أنزلْنِي هنا، بسرعة أرجوك.

أوقَفتُ السيّارة على الرّصيف بصعوبة كبيرة، واتّجهنا نحو الصّالة الّتي كانت ما تزال بعيدة، والطّريق المؤدّي إليها مغلق بالنّاس والمتاريس الّتي وضعها المدنيّون لأنّ الشّرطة وَصَلت متأخّرة، الشّرطة في بلادنا هذه وظيفتها، كلّما تعقّدت الأوضاع، تتلقّى الأمر بإخلاء المكان، حتّى صارت تلقائيّاً تُخلي الأمكنة كلّما أحسّت بالخطر أو شعرت به من بعيد. يقولون عنْدنا الشّرطة مساكين أكثر من المدنيّين. لا يحملون من أدوات الدّفاع إلا أغلفة المسدّسات البيضاء بدون مسدّسات. النّاس لا يعرفون لماذا، ولا يتساءلون أصلاً. سيأتي يومٌ يقتلون فيه، ولا يجدون وسيلة الدّفاع عن أنفسهم..

ازدادت شدّة الأمطار المتساقطة. حاولتُ أن أضع المعطف على ظهرها ولكنّها اعتذرت، وبدأت تركض باتّجاه الصّالة، وكنت أركض وراءها. شيءٌ ما، خطير جدّاً كان يحدث. وأحسّتْ به من بعيد كالحيوان وهو يستشعر الخطر قبل حدوثه. رائحة كريهة كانت تنبعث من مكان، حتّى كثافة الأمطار لم تمْحُهَا.

في الطّريق إلى الصّالة، أَوْقَفَنا رَجُلُ مُلَتَّح قال إنّه رئيس البلديّة. لم يتركنا نمرّ. قال: ممنوع، لأنّ البلديّة بصدد تَلْجِيء المنكوبين من زلزال العاصمة، من سكّان القصبة الذين فقدوا منازلهم. الدّنيا مْخَلْطَة. نرجوكم أن تتفهّمونا. نحاول أن نفصل بين الرّجال والنّساء لتفادي كلّ الإحراجات. نظرت مريم إلى وجهه بحقدٍ كبير. شعرتُ بها في لحظة من اللّحظات تتحوّل إلى ذئبة هرمة، تدافع عن أبنائها وعن غارها بكلّ أنيابها ومخالبها وعوائها. استنفرت كلّ حواسها، أوقفت حاجبيها مثل الشّوك، وأغارت بعينيْها في المحجرين.

ـ شْكونْ[1] أنتم، يرحم والديك؟ من أعطاكم هذا الحقّ؟ من سلّم لكم مفاتيح الصّالة؟

ـ يَا أَمَةَ الله!! نحن نسير وفق القانون. المفتاح أخذناه من الإدارة، لم نكسر الأبواب.

ـ هذه الصّالة ملك للطلبة، والإدارة ماعندهاش حقّ، أيّ حقّ؟

تراجع الملتحي إلى الوراء تحت صراخ مريم. بعد لحظات قليلة كان طاقم البلديّة كلّه في عين المكان. تدخّل أحدهم، كان يلبس عباءة فضفاضة ونَعْلاً مطّاطيّاً:

ـ روحي يا حرمة. روحي لبيتك. الله يردّك لطريق الخير والصّواب.

لم تردّ عليه، ولكنّها اندفعت بقوّة نحو الصّالة. كان النّاس يتدافعون للدخول من بابيها. باب كان مخصّصاً للرّجال والأطفال الذكور وباب مخصّص للنساء والبنات، حاملين على ظهورهم قناني الغاز وأكياس الخبز والزّبالة، والأفرشة والتليفزيونات القديمة، والموائد وقطع الخشب الّتي لا معنى لها والقدور والزرابي الحائلة الّتي امَّحَتْ جلّ ألوانها، الدّجاج والأرانب، وكثرة الرضع والأطفال.

(1) مَنْ تكونون؟

هول القيامة، كانت تعلو بينهم صرخات حادّة تصل حدّ البذاءة أحياناً. أَمْشِ يا خُو!!! مادَرْشِ[1] يا مُوخ!!! آي رَاسي، الله يَلعن دين باباك!! الطحّان[2]!!! شوف قدّامك يا الدّابة!! الله يلعن طيزك وطيز أمّك!! الطحّان غِ أنْتَ!! والإمام النّاتئ، كان يطلّ من فوق، من نافذة العرض، مسبحته في يده، يصرخ ملوّحاً بيديه القصيرتين، الله أكبر!! لقد ظهر الحقّ وزهق الباطل؛ إنّ الباطل كان زهوقاً!! تأمّلته مريم طويلاً قبل أن تخبّئ رأسها بين يديها. لا تريد أن تصدّق ما كان يحدث. لقد كان المشهد بدائيّاً ومُؤْذِياً، لدرجة أنّ شيئاً ما في حلقها، ظلّ جامداً كالحجرة. ربّما كان صرخة ماتت قبل الخروج. ربّما كَانَ دمعة تحجّرت في العين.

عندما التفتت نحوي. شعرت بها مهزومة في داخلها:

ـ يا الله!! ألم ترَ البلديّة إلا هذه الصّالة. أهكذا يُبلّد حسّ البلاد ويُبتذل؟

ـ جريمة. من يوقفها، والدّولة غائبة. لقد تخلّتْ عن وظيفتها لغيرها.

كان شباب الحيّ الذين يتدرّبون في الصّالة، ينظرون إلى مريم بعيونهم الحزينة. عندما رأوها، عرفوها. اقتربوا منها، مشكّلين مجموعة صغيرة، ومعزولة وسط هذه الفوضى الّتي لم تكن لها حدود. قال أحدهم:

ـ جابوا المنكوبين بَاشْ ما نَتْكَلْمُوشْ. والله ما تَفْراشْ.

تحمّس أغلب الشّباب من أجل اقتحام القاعة، وانضمّ إليهم الحارس وهو يعتذر، بعينين مهزومتين.

ـ الله غالب، المدير هو اللّي فتح لهم الأبواب.

(1) لا تدفع.
(2) القوّاد.

ـ يلعن بُوه مدير، هَلْ هذا رِزْق والديه حتّى يتصرّف فيه كما يريد؟

قالتها مريم وهي تبلع ريقها بصعوبة.

وصلت سيّارة الشّرطة، كانت ممتلئة. البلد كأنّه يعيش حالة استنفار قصوى، بدؤوا يحوّطون المكان، من أجل تسهيل مهمّة البلديّة ورئيسها الّذي كان يسبقهم ويعطي التّعليمات، مشيراً إلى التجمّعات الّتي كانت تعيق سير عمليّة التلجيء. اقترب شرطي طاعن في السّن. يبدو أنّ شباب الحيّ يعرفونه جيّداً. يحمل شارة رتبة ما على كتفيه. تأمّل مريم قليلاً، كأنّه يريد أن يحفظ قسمات وجهها. يبدو أنه تذكّر، أنه رآها في عرض من العروض الّتي قدّمتها التلفزة. ثمَّ توجّه نحو مجموع الشبّان المحيطين بمريم. قال أحد الشباب، يبدو أنّه يعرفه جيّداً:

ـ شوف يا عمّي سالم. أنت تعرفنا مْلِيحْ. هُمْ اِللّي تعدّاوْا علينا مِشْ حْنَا!!

ردّ عمّي سالم بهدوء كبير، وصبر مدهش للأمطار الّتي تحوّلت إلى خيط من السّماء.

ـ حْنَا مَارَانَاشْ ضدكم. أعرف مطالبكم. وما عِندَناش رغبة نتخابَطْ مَعَكُمْ.

ـ وَاشْ جِيتُوا تدِيرُوا؟ واش جَابْكُمْ؟

قالتها مريم بدون أدنى تفكير. كانت ممتلئة حتّى العمق. بالأساس لم يعد هناك عقل يضبطها.

ـ يا ابنتي. أنا أعرفك ولا أريد أن أَصدمك. أعرف أحاسيسَك، نحن تلقّينا تعليمات بوجود تجمّعات غير قانونيّة، من طرف رئيس البلديّة!

ـ وهل ما يحدث أمام عينيك الآن من اغتصاب علني، شيء قانوني؟ صالة تُحتلّ بِحُجّة Le Recasement والكلّ صامت؟ وِينْ الدّولة يَا عمّي سَالمْ؟؟ وِينْكُمْ؟

ـ هذا بعيد علينا. مش شأننا.

ـ شأن من؟ شأن هذه الكمشة من النّاس فقط؟ هذا تواطؤ يا عمّي سالم، تواطؤ سافر!

ـ شوفوا يا جماعة!! المطر أصبح لا يُطاق. كلّنا متعبون. جئنا من الحامّة[1]. ومن باب الوادي. مظاهرات كثيرة يجب تهدئتها، تعرفون وضع البلاد. لنفترق الآن ونلتقي غداً. تعرفوا عمّكم سالم!! دائماً يخرج الزّواليا[2] من الحبس.

ـ يا عمّي سالم، البلاد مْشَاتْ، ضَاعَتْ.

ـ يا بنتي مِش أنا اللّي ضيّعْتُها. ومش أَنَا اللّي راح يَرُدُّها. الله يرضى عليك يا مريم. أنت عاقلة وبنت ناس. كلّ ما تقومون به، هو إحراج لنا. نقدّرك، لكن الله غالب.

كانت مجموعة شباب الحيّ تريد استرجاع الصّالة بالقوّة، بينما مجموعات البلديّة وحاشيتها، كانت تسنّ أسنانها وسكاكينها.

ـ هل تريدين الدّم يا مريم. إذا كنتِ تريدين هذا دَبّرِي رَاسَكْ!

تأمّلت الوجوه. بدت لها اللّحى السّوداء الّتي شوّهتها الأمطار، مخيفة. شيء من الدّم كان يتراقص في العيون. أهكذا يُبَاد النّاس؟ وهكذا تقتل العيون الطيّبة؟

افترق الشّبّان بصعوبة كبيرة، وبصعوبة كبيرة أسندتها إلى ظهري. كانت مرهقة. أدخلتها في سيّارتها. كانت درجة حرارتها مرتفعة بالرّغم من سيول الأمطار الباردة الّتي لم تتوقّف، رجوتها أن ترتاح عندي في البيت، ولكنّها أصرّت على الذهاب إلى منزل أهلها، قالت إنَّ أمّها لا بدّ قلقة خصوصاً في هذا الجوّ المكهرب الّذي يغزو البلاد من أقصاها إلى أقصاها إضافة إلى كونها في وضعٍ سيّئ.

(1) حيّ شعبي بالعاصمة.
(2) الفقراء.

ـ أرجوك حالتي ما تعجَبْش. يجب أن أدخل. دوائي في الداخل. ودواء عمّي في السيّارة. حالته صعبة. بدأ يهذي لوحده. يتحدّث عن الخلفاء الرّاشدين. يقول إنّه يُحدّث عمر وأبا بكر الصدّيق، وعثمان، وحتّى معاوية، أصبح يرفض غسل وجهه. رائحته عفنة وكسوته تقطّعت على ظهره. أرجوك اتركني أذهب بِرضَاك. أنا متعبة وأنت مُنهك.

ـ ارتاحي على الأقل. استرجعي أنفاسك.

ـ سأنغّص عليك كثيراً. أُفضِّل أن أنسحب.

أقلقتني حرارتها. عندَما انطلقت السيّارة، لم تلتفت إلى الوراء، سحبت منديلها. مسحت وجهها. ثمَّ اندفعت داخل الشّوارع الخلفيّة الضيّقة الّتي كانت قد نامت باكراً كعادتها.

في طريقي إلى البيت وأنا أتدحرج تحت المطر الّذي بدأ يخفّ، حاولت عبثاً أن أمحو كلّ الصّور ولا أحتفظ إلا بأصابع رجليها وهي تلثم الموجات الّتي كانت تتمزّق عند رجليها، وعند ساقيها الرّائعتين.

IX

حرّاس النوايا

كانت الأشياء تنداح ورائي بسرعة منذ أن خرجت من مستشفى «مصطفى باشا».

أتدحرج الآن على وجه هذه الشوارع والأزقة المعلقة، الصمت يلف الأرصفة ولا تسمع إلا خيوط التليفون العارية، والكهرباء وهي تئن في زاوية ما داخل هذه المدينة الّتي لم تعد لنا. خسرت روحها وأشواقها. عندما انعطفت لأصعد باتجاه «تليملي»، شعرت بالوجوه الّتي كانت تمر بسرعة، غادرتها ملامحها. الأضواء المتسخة، تحاول أن تغازل، في تلذذ، الضباب المنتشر هنا وهناك. لا أعلم! هناك شيءٌ تصدع من الداخل. هل أصرخ بأعلى صوتي؟ لا صوت لي وسط هذا الفراغ المقلق وهذا الحنين الّذي يبحث عن بقاياه داخل الحصى والأسفلت. ماذا بقي منك الآن يا مريم؟ تنامين داخل برادات الموت، وحيدة بعد أن نزعت الرصاصة الطائشة روحك في ذلك المستشفى البارد القاسي. أقرأ عينيك لحظة الحسرة الّتي تنام في الحلق. ماذا بقي منك يا مريم؟ كثير من الحنين وكسرٌ عميق، عميق مثل محيط هذا الخراب الّذي يزداد اتساعاً يوماً بعد يوم.

كل الأغاني والأحزان ومشاق الوحدة، صارت تؤدي إليك.

كم مر على ذلك الزمن الّذي صار بعيداً وهو قريب من القلب، من الألم؟ ساعة. يوم. شهر. سنة. لا يهم، الوحدة تصنع فراغها وأزمتها وزمانها.

تعثرت بعنف في الزاوية المؤدية إلى الزقاق المظلم. انتبهت فجأة إلى اللوحة الّتي تعثرت بها. كتب عليها.

«قل لن يُصيبنا إلا ما كتب الله لنا».

ثمَّ رأيت وجوه الزعماء السياسيين فيما تبقى من الحملات البلدية، والذين يستعدون للانتخابات البرلمانية. بعضهم يضحك. بعضهم الآخر يلوح بيديه في تقليد فاضح لحركة رئيس الجمهورية التقليدية كلما امتطى طائرته الخاصة. شعرت بزيف كبير يملأ هذه الوجوه. أشعر بالرغبة القصوى للصراخ! أي صراخ! حتّى تهتز الدنيا. حتّى تندلع المدينة صوب البحر الهائج. لكن في لحظة من اللحظات شعرت بالرغبة المتواضعة لادخار صرختي ليوم الجنون العظيم.

هل بإمكاني الآن أن أعد الأزمنة المنقرضة على هوامش هذه الأفراح المقتولة؟! يحزنني الحنين وتقلقني برودة الأمكنة الصامتة وطقوس المدينة الجميلة الّتي تذهب ولا تعود. كنا ننزل إلى أعماق المدينة. بياعو الأعشاب. الأسواق الشعبية. الخرازون. صانعوا النحاس. بياعو الأكلات الشعبية. المداح. الفوال حمل أشياءه الغامضة وسجاداته وأدويته ثمَّ انسحب باتجاه زاوية ما داخل المدينة. يرتعد وحيداً من البرد لا يستطيع أن يمد يده ولا أن يستعيد أمجاد الفوالين المنقرضين. بنو كلبون قتلوا داخله، والقادمون الجدد، حراس النوايا كملوا على الباقي. نسفوا كل ما تبقى من الوجوه الأليفة حتّى صار سكانُ المدينة مجرد رعية وليسوا مواطنين. حق المواطنة صار معلقاً. هذا هو العرف الجديد. أدِّ وإلا خلِّ يا المسكين!

تحيا بلاد الشهداء الذين مازلنا نكتشف حتّى اليوم رفاتهم!!

يحيا الأولياء الصالحون. سيدي الهواري، سيدي منصور الثعالبي، سيدي بومدين، سيدي عبد المؤمن بوقبرين... تحيا البلاد الّتي ليست بلاداً، الّتي لم تعد لنا. ولم نعد نعرفها، تحيا الأشياء الرقيقة الّتي لاتموت، سحبوها من القلب مثلما يسحبون إبرة انغرزت في العظم. تحيا يا أنا ابن المدينة الّذي أقسم أن لا يخرج للشارع فوجد نفسه غائصاً في أوحالها حتّى الركب.. ماذا بقي؟ من أين يبدأ المحزون كِتابَهُ؟

أعد الكلمات، والخناقات، والساعات والألفاظ. للألفاظ سحر خاص، يأسر العمق إليه بقوة منقطعة النظير ويؤدي به إلى عمق أعماق الهاوية والانحرافات، ماذا بقي لك أيها المسكين؟ عظامك تنزع على مرأى من عينيك لتصبح كائناً رخواً، ومدينتك تباد عن آخرها. ضيعت أباك في حرب أصبحت تشك كثيراً في أنها كانت نقية. وكانت انتصاراً، أي انتصار؟! هل هناك شيء واحد يشعرك به؟ الذين انتصروا، سرقوا البلاد واستعبدوا العباد ويتناوشون اليوم على حكم الرقاب. «ذُوكْ راحو وهَاذُو جَاوْا»[1].

بنو كلبون سحقوا العقول، وقالوا: رجلٌ يفكر معناه مشكلة إضافية، ولكنهم كانوا يعبدون الطريق لحراس النوايا الذين يقولون: رجل جاهل، رجل مضمون. أغْرِقْهُمْ في الإيمان وفي عالم الشياطين والجن وأهوال القيامة ومرر أرزاق السوق السوداء، والترابـاندو، ثمَّ بيضها، سيقف معك أئمة المساجد والتجار والعاطلون وتجار الشنطة... ألم يكن الرسول تاجراً؟ لقد مات شهداء البلاد ورجالها الصالحون الذين ملأت صرخاتهم أسواقها الشعبية وأحياءها الفقيرة. ذهب الذين كانت قلوبهم واسعة سعة البحر. تتحمل الأخضر واليابس وتمضي نحو حتفها وصدقها ولا تسأل. ذهب الزمن الّذي كان المرء فيه يأكل قطعة خبز صغيرة سمراء وينام، ويأكل اليوم الواحد فيهم مدينة بكاملها ويطلب المزيد!

(1) أولئك ذهبوا وهؤلاء جاؤوا.

ماذا بقي؟! المساحات البيضاء تعذبني والفراغات تؤذيني، ولاشيء آخر يملأ المكان سوى هذا السواد المقلق والتوهج الّذي تقل مساحاته.

يتنابني أحياناً الإحساس بالبكاء على أبي الّذي وجد معلقاً على سدرة شوك في البلدة بعد أن ثقبته رصاصات عديدة في الرأس والصدر. قيل عنه إنه مات واقفاً بجرأة؛ قيل إنه قاوم الرصاصات الأولى الّتي ثقبت بطنه. في الأخير مد يديه إلى رأسه بقوة ثمَّ تهاوى على السدرة، عاش ما كسب، مات ما خلى. لم يتحصل على شهادة الاستشهاد إلا عندما اندثرت عظامه، بعد عشرين سنة، بمناسبة إعادة الاعتبار للشهداء. أمي في ذلك الزمن البعيد قالت: مَدَّ دَمَهُ للبلاد. خيرنا لله وليس للعباد. أحياناً أفرح أنه لم يبق حياً ولم يتسخ، وفي أحيان كثيرة أحزن لدرجة القنوط عندما أرى ندوب الجدري الّتي غزت وجه هذه المدينة. هذه الكآبة تأسرني. أحياناً أجد لذة فيها، كبيرة، وأحياناً يصل بي الأمر حد التفكير في الانتحار. ثمَّ سرعان ما أسخر من نفسي. إنهم يقتلون جياد المدينة. النهب بدون هوادة. ذات مرة في قصر فرساي بباريس قلت وأنت تتأملين القصر والحديقة واللوحات. لويس الرابع عشر... الرجل كان أنانياً. لكنه كان يحب على الأقل وطنه. ترك معالم لا تمحى رغم أنه اندثر. المتاحف. الجسور. الحدائق الواسعة. أطراف الأنهار الكبيرة. يا أخي على الأقل بنى وطناً جميلاً. لمست في عينيك شراسة غير عادية، واستعداداً كبيراً لارتكاب المعصية الكبرى.

- إنهم يقتلون الجياد ويبيعون البلاد.

- من غير المعقول كل هذا العفن، لابد أن يكون لنا تاريخ نسيته أقلام الوراقين!

- الرداءة صارت قانوناً.

كنتم وقتها تعرضون البربرية في «الأولامبيا» بباريس بمناسبة الأسبوع الثقافي الجزائري. هي المدينة البعيدة، تخرج

الآن دفعة واحدة من هذا القلب المتعب ومعها تاريخها والأناشيد الوطنية الوهمية. وتبتعد. تبتعد حتّى تصبح نقطة صغيرة داخل سراب مطلق أصبح يملأ الدنيا والفراغ.

رائحة جسدك ما تزال عالقة بجسدي مثل الذاكرة المثقلة بالأوشام والتواريخ والأرقام والسحب الّتي ركضنا وراءها ذات طفولة فقيرة. والبحر الّذي كلما اكتشفناه ولمسنا اتساعه، ازددنا صغراً. شيءٌ ما في طفولتنا المشتركة، يحن إلى ذاته المقتولة، نبحث داخل الكلمات عن أشيائنا الضائعة، لماذا تجن الكلمات على اللسان عندما يكبر الهم ويصير للعشق معنى؟ فيك، مريم، الكثير من الفوضى والجنون. اللّي يَعْرِفَكْ، يَهْبَلْ! مريم يا شوق المنسيين وحنين الغرباء داخل مدن الريح السخنة، تقولينها وأنت تعبرين الممرات الضيقة في الأحياء الشعبية المكتظة بالنّاس.

- آسيّدي اللّي حَبْ يِكُونْ عَاقِلْ يِكُونْ. أنا مريم لهْبيلَهْ بِنْتْ لَهْبِيلَهْ، بِنْتْ السِّي لَحْسَنْ لهْبيلْ! نبهني فقيه القرية إلى جنوني ودعا عليَّ دعوة وصلت ساخنة. قال رُوحِي. الله يْجيبْ لَكْ اللّي يْثْقبَكْ ويْهَبّلَكْ. دعوته لحقت بي. يبدو أنه كان أقرب مني إلى الله، لأن معظم دعواتي لم تصل. سرقت في الطريق.

أشعر بشيء ساخن يعبر دماغي المتعب. لست أدري ما الّذي دفعني إلى التفكير في ضرورة النزول إلى المسمكة La pcherie بجانب فلائك عمي موح الصياد. المسافة بدت لي بعيدة والبحر كان قد اختفى واختفت معه كل السفن الّتي كانت أضواؤها تخترق سواد البحر والسماء، حاولت اختصار المسافة واختراق الزقاق المحاذي للنزل الجديد. فوجئت بالزقاق مغلقاً وبلافتة عريضة كتب عليها «سوق إسْلاميّة» وأكوام الزبالة المبعثرة والخضر الفاسدة ولا أحد يتجرأ على أخذها ولا يكلف نفسه متاعب إضافية. البلدية تقول: L'O.P.G.I وهذه الأخيرة تلصق المسؤولية للبلديات الّتي تتصرف بشكل مضاد للقانون وتشرع كما تشاء وكأنها هي جهاز الدولة. لكن الأوساخ كانت تزداد، وتعيد البلدية إلى بدائيتها الأولى

وإلى الفوضى المطلقة الّتي لا يضبطها أي ضابط. هكذا يقولون في المدينة وفي البلدية. اتركي الفوضى تزداد وتعمم، فهذا يعجل بسقوط النظام، ويزداد كره النّاس له. أي نظام، لقد صارت المدينة غابة والمواطن ذئباً. وجدت نفسي مجبراً على القفز فوق العفونة والقطط الضالة، بحثاً عن مكانٍ نقيٍّ يعيد لي إنسانيتي وبعضاً من شاعريتي الوهمية. كان لساني قد تجمد في الحلق، وتحول إلى قطعة لحمٍ إضافية لا معنى لها، مثل الطبل المثقوب، كنت أنزلق في المنحدراتّ، قبل أن أغير رأيي في البحر. والفلائك الضائعة وسط الظلمة، وأبدأ صعوداً قاسياً ومتعباً باتجاه مكان أحسه ولا أراه. كنت مكدراً ومحزوناً ومهزوماً. نزعة من العبثية كانت تملؤني، إذ بدا لي الإنسان صغيراً صغيراً أقل حتّى من البعوضة. ولكن كان من الصعب علي التآلف مع هذا الطرح. كيف تقتل الحماقة كوناً هائلاً من الشعر؟ مريم كانت القصيدة المنسية الّتي لا يقولها الشاعر إلا مرة واحدة ويمضي في سبيله. مريم كانت الكلمة الأولى في كتاب المقتولين.

فجأة سمعت ورائي تكسر عجلات سيارة، على مياه الأمطار الّتي لم تستقر. تسقط وتتوقف كما يحلو لها. أردت أن ألتفت، ولكني في أعماقي لم أشعر بالرغبة القصوى للاكتشاف. قلت. وماذا يهمُّني؟ وحاولت أن أعبر الطريق. الصوت سرق غفوتي، ولهذا لم أشعر تجاهه بأية ألفة، لأن إصراري على الوصول إلى جسر تليملي كان كبيراً. ونور مريم الغائبة كان يملؤني.

ـ اسِمع السِّي مُوحْ، ما سَمِعتْ السيّارةْ كِي وَقْفَتْ؟؟

ـ سَمِعْتُهَا.

أجبت بتلقائية:

ـ لماذا لم تتوقف؟

ـ ظَنَنْتُ أنْ الأمر لا يعنيني.

حاولت أن أواصل صعودي، حتّى قبل أن أرى وجهه، لكنه سحبني باتجاهه بقوة من تلابيبي الّتي مزق طرفاً منها. التفتُّ اتجاهه، بنوع من العنف. عَرَفْتُهُ من وجهه الّذي تغلب عليه بعض السمرة البدوية، بين قسماتها شيء من الخوف. تتدلى على خديه لحية كثة كادت تغطي وجهه بكامله. يلبس لباساً مدنياً. قميصاً فضفاضاً وقبعة أفغانية ذات لون كاكي. من عينيه عرفته أنه عضو من أعضاء حراس النوايا. استغربت توقفه خصوصاً وأني كنت وحيداً ولم أكن أحمل معي شيئاً يثير الانتباه سوى محفظتي الّتي لاتحتوي على شيء ذي بال، سوى مخطوط روايتي الأخيرة الّتي ترفض أن أجد لها نهاية. أعرف، بل صار مألوفاً، أن حراس النوايا لا يتدخلون عادة بعنف إلا عندما يكون الرجل مصحوباً بامرأة. أو يشمون رائحة الأجساد الّتي تعيش لحظة عنفوان شائقة. من صفاتهم، أنهم يقرؤون في عينيك ما تفكر به ولا يهم إن كان صحيحاً أو غير صحيح. المهم أنهم فكروا أنك على خطأ، فيجب أن تكون على خطأ بدون ثرثرة. عندما يكفّرونك، وعادة يفعلون ذلك عندما يختلفون معك، عليك أن تقبل، لأن أي نقاش سيقودك إلى تعميق الأزمة. الحاكم لا يناقش. الحاكم يُنفِّذُ أمره. ثمَّ تُقبِّلُ يَدُهُ البيضاء السخية، ويطلب غفرانها. لابد وأن تكون داخل هذا التاريخ المتوارث، أزمة حادة، عندما انتهيت من قراءة كتاب ابن قتيبة «الإمامة والسياسة» زاد يقيني، أن داخل هذا الرجل الصحراوي رغبة فظيعة للدم والسلطة وترويض رمال الصحارى لتعلن أمام الملأ مُبَايَعَتَها له، هو، وحده. أما آن لهذا النزيف أن يتوقف؟

عندما ذهبت لأرى مريم، آخر مرة. إلى المستشفى، شربت «الزّامبرُيطُو» حتّى خرج الحريق من أنفي وفمي. من سلبيات الزامبريطو الّذي نسميه La vodka Nationale أنه يشم من بعيد ورائحته تبقى مدة طويلة. فتش محفظتي. لم يجد سوى المخطوط الّذي قرأت البعض منه على مسمع مريم وهي تموت. لم أتحمل هذا العبث المبالغ فيه.

ـ من أعطاك حقّ تفتيش الحقيبة؟

ـ شرطة إسلاميّة. أوراقك شْكُونْ أَنْتَ أَوّلاً؟

ـ لا شيء وحياتك لا شيء إذا كان الأمر هكذا يسير. ديناصور منقرض يمشي في غابة.

ـ سكران يَا ولد الحرام؟! الشراب معصية وحرام. أركب نْورِّي أُمَّكْ الزنباع وين ينباع. أركب بسرعة.

نظرت إلى وجوههم. كانت يابسة مثل الصخرة. محفرة بثقوب الجدري. منظرهم لم يشجعني على المقاومة. كانوا خمسة. أساساً لم أكن مهيأً للدخول معهم في أي جدل. بدت لي قريتي بعيدة، بعيدة جداً ومشايخها يعيشون كالمرضى بالأوبئة المعدية، في عزلة تامة بعدما فقدوا علاقتهم بالمحيط. كانوا حكماء يجلسون تحت الظلال الممتدة عبر البيوت الواطئة. يفرحون ويحزنون كلما كان ذلك ضرورياً بالرغم من تقدم سنهم. وعندما يشعرون بأن أعمارهم لاتتأقلم مع الوضع، ينسحبون بهدوء، مع التحية التقليدية:

«تصبحون على خير يا جماعة الخير».

وعندما يسألون عن سبب انسحابهم، يجيبون بابتسامة واضحة:

«إحْنَا كبرنا وأولادنا مازالوا صْغَارْ».

لم يرفعوا السيوف يوماً إلا في وجه الغزاة الّذين سرقوا منهم التربة والمرأة. كانت قلوبهم مليئة بالحب والإيمان والوفاء. ابتعدت تلك الوجوه. بدأت تندثر، ومعها تنسحب سماحتها وسخاؤها.

اسحب البحر هو بدوره ومعه غاب وجه مريم، متعباً ومجروحاً.

ـ هيّا يا السِّي مُوحْ، هزّ روحك. اركبْ!!

كانت وجوههم قد بدأت تتعفن بكثرة حقدها. تدحرجت داخل

السيارة. كانت وهي تسير بهدوء، تلتقط في طريقها الكلاب والقطط الضالة والسكارى وبعض المسافرين الّذين لم يجدوا فنادق تأويهم. الكل جمع داخل صندوق السيارة المشبك مثل سيارة الشرطة. عند باب الشرطة، أنزلونا بعنف كبير.

ـ يا الله بسرعة يا خنازير!

وبعد انتظار تجاوز الساعات الثلاث، جاء دوري. كنت متعباً وغير قادر على الكلام مطلقاً. على الحائط صورة أحد الزعماء الدينيين وبعض الآيات القرآنية المكتوبة بخط أنيق. أدخلني أحد حراس النوايا إلى عمق مكتب الضابط. وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام جثة ضخمة جداً. شرطي، بلبس مدني. طلب مني الجلوس. وبعد أن انتهى من مَلْءِ بعض الأوراق الملونة بخطٍّ رديء، التفت نحوي:

ـ هاه يا بْنَيّ وَاشْ دَرْت؟

ـ وَالو. لا شيء يا سيدي. كنت أمشي فأخَذوني.

ـ تتمسخر بي؟

ـ وحياتك يا سيدي.

تمنيت أن أملك الشجاعة الكافية لأقول له عن كل شيء. أن أحكي له قصتي بكاملها. من المستشفى حتّى هذه اللحظة. أن أقول له أن مريم ماتت، ماتت يا سيدي وهل تعرف ما معنى الموت برصاصة في الدماغ وأنت مازلت ممتلئاً برغبة العيش؟ وعمرك عمر الورد؟!! أن أقول له بأني أشعر بالوحدة القاتلة في هذه المدينة الّتي تغيرت كثيراً. تركت ألبستها وارتدت ألبسة مستوردة لا علاقة لها بتاريخنا وحياتنا. بدا لي أن كلامي مُسَيّسٌ جداً. معناه أني أضيف إدانة جديدة ضدّي. ثمَّ بدت مريم منتهكة في أعماقها وحزينة. لم أرد أن أحرك شجونها في مكان وجد أساساً لإهانة النّاس الطيبين.

ـ هه!! أنتظر من حضرتك أن تقول ماذا كنت تفعل في هذا الليل؟!

ـ يا سيدي أنا مسالم جداً. ديناصور كان يجب أن يَنْقَرض ولم ينقرض.

ـ واش تخدم؟

ـ أستاذ جامعي في تاريخ الفن الكلاسيكي. إطار في هذا البلد الآمن من عين كل حسود بغيض. مثلت البلد في الكثير من الندوات العالمية.

ـ مثلّتها في الفِشتِي والكذب. أستاذ الفنّ والفسق والخلاعة؟

ـ لا يا سيدي. هذه بطاقة المعهد العالي الّذي أنتمي إليه. خُذْ.

ـ معاهد الفسق والزنا. يجيء وقت، سنمحو هذه الفضلات ونحولها إلى بيوت خيرية. لو كان ما جاتش عندك حصانة أستاذ جامعي، كنت مسحت بك الأرض مثل الجرو.

في أعماقي تأسفت كثيراً على استشهاد والدي وعلى تغربي إلى إيطاليا للدراسة، وعلى مريم الّتي تحملت رصاصة، جاءت بهؤلاء الأقوام، بزمر حراس النوايا.

ـ بهدلتُمْ الجامعة. مسختموها بالكلام الفاسق.

كلّ الكلمات هربت من لساني. حتّى مخي لم يعد يشتغل أبداً المسافة كانت تزداد بيننا. شعرت بنفسي في آخر طاولة، كان يحتل هو مقدمتها، ربّما معه حق. كنت أبدو له كإنسان غير طبيعي. عينان منتفختان وملامح مكتئبة وقسمات باردة لا تحمل أيّ حماس أو أيّ خوف.

ضغط على زر. دخل شرطي بلباسه الاعتيادي الأزرق.

ـ هاه. هل من جديد؟؟

قال الشرطي.

ـ يا سيدي لم نجد معه شيئاً مهماً سوى بعض الوريقات الّتي لاقيمة لها على الإطلاق. بعض الإيهامات الأدبية على ما يبدو.

ـ أخرجه وأرجع له حقيبته النتنة. سجله عندك في قائمة السكارى واطرده. رائحته مثل الخنزير.

في لحظة من اللحظات، شعرت بنفسي ضحية لعصابة مجنونة لا تعرف الرحمة. سجلني الشرطي في سجل كبير. أخذ مني كل المعلومات ثمَّ قادني إلى مخرج الكوميسارية (مخفر الشرطة).

ـ محظوظ. المفروض أن تُجلد.

ـ ماذا فعلت يا أخي؟

ـ تسألني أنا؟ سكران ويعرف باب داره؟ رُوح الله يسهّل عليك.

ـ يا رجل مانيش سكرانْ. إنّي أموت.

ـ رُوحْ يا خويا! مُتْ في الشّارع.

ثمَّ أغلق باب الكوميسارية في أنفي بعد أن دفعني عبر الأدراج بقوة. كدت أسقط على وجهي. عندما رفعت رأسي وجدت نفسي وجهاً لوجه مع الرجل الّذي أوقفني، بلحيته الطويلة السوداء وملامحه اليابسة. تأملني بنوع من الكراهية. لم يستطع أن يخبئ حقده.

ـ الطحّان. شيوعي. خلّصت (رشوت) البوليسي ولهذا أطْلَقُوا سراحك!!

ـ يا سيدي يرحم والديك اتركني وشأني.

ـ نحن في مرحلة انتقالية. الدولة الإسلامية قادمة، إما أن ترجع للطريق المستقيم، وإما يطير رأسك. ويطير رأسك أفضل لنا ولك وللمجتمع.

ـ يا أخي ما حدث لا يستحق هذه البهدلة.

ـ المفروض أن تُجلدَ يا ولد الحرام.

أنا منهك في هذا اليوم. منهك حتّى القلب. أشعر بأني لست مواطناً على الإطلاق. لا أنتمي إلى هذا البلد. كل ما يحيط بي يدفعني

إلى الانتحار أو العودة إلى البيت. وأغلق على نفسي حتّى اندثر مثل الريح. ومن بعد، ماذا سيحدث؟ تظل الدنيا هي الدنيا. والأنهار هي الأنهار، والبحر هو البحر، والجنون هو الجنون، والعنفوان هو العنفوان، والكآبة هي الكآبة، عادت رغبتي الكبيرة للصراخ من جديد، تملؤني عن آخري. لم أستطع أن أكتم صوتي.

ـ الله يلعن دين بُوها بلا... د... د...!!

كررتها العديد من المرات، حتّى سمعتها تتردد داخل القاعات والحجر الضيقة والكوميسارية والشوارع والأزقة. لم أتفطن إلا عندما نزلت على وجهي لكمة مثقلة بالحقد من الرجل الملتحي، أفقدتني توازني وجزءاً كبيراً من وعيي، كنت على الأرض عندما وقف على رأسي.

ـ يا وحد الخنزير مكانك مش هنا. يا ولد القحبة سترى ماذا ينتظرك.

لم أر وجهه جيداً ولكني عرفت ملامحه وصوته. لست أدري هل حملني وحده، أم مع مجموعة، فقد وجدت نفسي فجأة في شاحنة كبيرة مخصصة لنقل الزبالة. بين أكياس الفضلات والروائح الكريهة. كنت غارقاً في القمامة والعفونة. لست أدري، هل سارت السيارة كثيراً أم قليلاً، عندما استيقظت وجدت عند رأسي أحد السكارى الضائعين.

ـ أنت على أطراف الميناء يا خو (يا أخ)!

ـ ... ...

ـ رموك هناك في سيارة زبالة تابعة للبلدية، وراحوا.

وظل يحكي لي كيف سحبني من كومة الزبالة الّتي رموني فيها. قال لي، كنت مدوخاً وكنت أكاد أسمعه بصعوبة كبيرة. قال: رأيتهم عندما جاؤوا بك. كانوا مسعورين كالكلاب الضالة. لهم رائحة خاصة أشمها من بُعْدٍ سحيق. رموك في المزبلة، كنت وقتها أفتش

عن شيء صالح للأكل. لا يخفى عليك يا هذا الرجل الزين أن مزابل الأغنياء والفقراء لا تتشابه. القمامة الّتي تأتي لا أفتشها كلها. أعرفها من الأكياس والروائح وطريقة الإغلاق. ونادراً ما أخطئ. أجد الخبز والموز والبرتقال، وبعض علب السردين والطون الّتي لم تفتح والفواكه المختلفة، وحتى بعض الألبسة. ها أنا مثلاً ألبس تباناً ملوناً لأحد الأغنياء، ربما لأحد الزعماء السياسيين، قاعدته عريضة قليلاً لكنه مقبول وألبسه بدون تردد. غسلته في البحر ثمَّ لبسته. البحر يغسل كل شيء. أنت لا تصدقني، إذا قلت لك إنه مصنوع في إسرائيل. وحياتك!! أنا أهجي الحروف فقط واستطعت أن أعرف مكان صناعته. نقول الصح!! الصح!! خفت!! إسرائيل تغطي عوراتنا: مشكلة!

قدم لي قطعة خبز نصف يابسة.

ـ لابد وأن تكون جائعاً، خذ. اشتريتها من مخبزة «الباريسية». اطمئن. كل على ذمتي.

ـ مانيش جوعان. يكثر خيرك.

ـ يا رجل خليك من الهم. أعرف أنك متعلم، من شعرك الأبيض.

ـ كه... كه... متعلم! هذه شتيمة. أنت تشتمني يا صاحبي.

ـ الله يعطيك الصحة. أنت فهمت متأخراً. الآن فهمت. عندما رأيتك. أقول لك الصح، الصح، في البداية ظننتك جئت تنافسني في المزبلة الّتي احتكرها وخفت ما تفراش وعندما سمعتك، عرفت أنك رجل طيب.

ـ يا سيدي، قل ديناصور، في طريقه إلى الانقراض.

ـ شفت يا صاحبي!! أنا وأنت الآن متساويان في هذا البلد. نرمى في نفس المزبلة، ونقف على نفس حافة البحر. لغة اليوم، هي لغة الدولار، والبزنسة يا ولد النّاس. قد ما عندك؛ قد ما تسوى. خليك! اشرب معي كاس مادام كاين الغفلة. أعرف أنك مسكين مثلي. الزامبريطو والمزيريا.

كانت رائحة الزامبريطو ما تزال تملأ فمي وأنفاسي وبطني ولولا رائحة البحر لدخت واختنقت. قمت من مكاني. كان رأسي يؤلمني. بدا لي البحر القريب مني أبله، غير معني بما كان يحدث لي، العجيب، كل شي تسطح وتبلد. وقبل أن أغادر الرجل السكير، إذ أني كنت مصراً حتّى الموت على الذهاب إلى جسر «تليملي»، سمعت صوته وهو يتبعني وينصحني:

ـ احرز روحك يا ذاك الرجل الزين. الحفر كثيرة. حذار أن تسقط.

لست أدري ما الّذي جعلني استرجع الكآبات القديمة. لست أدري ما الّذي رماني في عمق المأساة القديمة. بنو كلبون صنعوا الموت وجاؤوا بهذا الوباء، عندما سرقوا استقلال هذا الوطن وملأوا المدن بالكذب والسرقات. ثمّ قالوا المدينة بدون ثقافة. سطحوها. ملؤوا المكتبات بالمطبوعات الّتي تستعيد الخرافات والدروشات. قالوا ليعش الفراغ، أحسن من أن يفكروا في السلطة. وذات صباح فوجئوا بحراس النوايا يقفون عند أقدامهم ويدقون على أبوابهم الموصدة، يزاحمونهم في سلطانهم. الكثير من بني كلبون والتجار والسماسرة وبياعي الكيف[1]، والترباندييست والحيطيست، صاروا من الوافدين الجدد على هذه المدينة. ما يحدث في هذا البلد كارثة، كارثة!.

«البلاد تباع في أسواق كاسدة».

قالتها مريم وهي تعيد علي ما سمعته من إحدى صديقاتها الّتي تجر وراءها لباساً فضفاضاً مفتوحاً، يسحب وراءه كل أتربة الطرقات، كلما مشت أو كلما قطعت طريقاً أو دخلت مدرجاً من المدرجات. قالت لها: كل هذه التربة الّتي تلتصق باللباس هي نعمة من الله. وتوزن في الدار الآخرة ويجازى صاحبها ذهباً. أتعرف!!

(1) نوع من أنواع المخدّرات.

العقل يغتال بسرعة مدهشة، ولا نظير لها. بعد زمن قصير، ستنزع الأعناق فقط لأنها قالت إن في بعض ممارسات الحاكم جوراً أو دافعت عن حقها في الصراخ. عن حقها في الجنون. عن حقها في الحياة. مقدمون على زمن يصبح فيه الوباء نعمة من الله يختبر بها عبيده ويصبح العقل إلحاداً وكفراً ولائكية مقنعة. أي كلام أمامه، وفي حضرته يا ولد النّاس؟! الرجل يستمد حكمه من تعاليم الله! من وضعه هناك؟ وضع نفسه، وإذا زدت في الكلام رأسك يطير! هيا هز روحك! قالت وهي تقبض على شعرها.

ـ هْبلْت؟! جَنّيْتْ؟!!

قالت لي تلك الصديقة الفخورة بلباس الجنة: لقد أنشأنا محكمة، تعقد لإعدام الذين ارتدوا أو خرجوا عن تعاليم الدين، إما بالقتل المباشر، أو بنسف داره، أو اختطاف أبنائه وأهله حتّى يسلم نفسه نختار لهذه المهام شباناً في سن 18 أو 20 سنة. تعد حجرة مضاءة، بشموع قليلة، يطلق فيها البخور، حيث يعبق في الحجرة، إضافة إلى جوٌّ يعطيها طابع التعبّد والرهبنة والقداسة. يؤمر الشبّان بالدخول لها عند منتصف الليل، بعد أن يخلعوا نعالهم خارجها ليجدوا منصة مرتفعة قليلاً، مفروشة بالسجاد، عليها وسائد مغطاة بالسواد، يتكئ عليها شيخ يرتدي قلنسوة سوداء، عيناه نصف مغمضتين. بيده سبحة طويلة، فيجلس الشبان عند رجليه، بعد أن يرشدهم إلى أماكن جلوسهم قبالة الشيخ الّذي يمضي في همهماته وابتهالاته ويدير حبات سبحته والبخور ينطلق من الأرجاء، والشيخ مايزال مطرقاً لاينظر إليهم، وعيون الشبان تختلس النظر إليه في حالة ترقب دائمة. ويمضي في صلواته الخافتة قرابة النصف ساعة، تتعطل فيها حواس الشبان عن التفكير في أي شيء آخر، سوى المهمة المقدسة، ثمّ يفتح الشيخ عينيه طويلاً فيهم، تنحصر الرهبة في أبصارهم. وبعد لحظات من الصمت، يقوم الشيخ ويقول لهم: حان وقت صلاة الفجر ويصلي معهم، ذاكراً في صلاته آيات الذين يقاتلون فيقتلون ويقتلون ولهم الجنة. وتنتهي الصلاة ويصمت برهة ثم تدوي صيحة

عالية: هل أنتم على استعداد للاستشهاد في سبيل الله؟! فيقولون: نعم. وهل أنتم مستعدون لقتل أعداء الله؟ فيقولون: نعم. نقسم. فيقدم المصحف ليقسموا عليه ثمَّ يقول لهم: أستودعكم الله. موعدنا الجنة. يخرجون وفي عزمهم شيء واحد: القتل والنسف. قلت لها، لصديقتي، تقول مريم، تقتلون من؟! قالت. أعداء الله! وشكون أعداء الله؟ قالت: الشيوعيُّون، حزب فرنسا، البربر، البعثيُّون، الملحدون، العقلانيُّون، اللائكيون وأصحاب دعوات تحرير المرأة، نساء الجمعيَّات النسوية، جمعيَّات العهر والفسق، والحكام، والرعية ومسؤولو أجهزة الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية... وكل من يحذو حذوهم... ضحكت. تقول مريم. ضحكت بحزن. قلت لصاحبة لباس الجنة، وماذا تبقون في هذا البلد؟!. بلا تردد أجابت: الأتقياء الخيِّرُونْ، من أبناء هذه الأمة. تصوَّرْ أين وصلت العقول! يحشونهم بالديناميت، مستغلين بؤسهم وأحزانهم. ثمَّ يوقِّتُونُهمْ ويطلقونهم في الشوارع مثل القنابل الفتاكة.

هو ذا العصر الثاني، الّذي انقرض بصعوبة، يأتي زاحفاً بقوة ليغتال ما تبقى من بحر هذه المدينة وأفراحها. السابقون أبادوا، اللاحقون يجهزون على ما تبقى. أما آن الوقت للصراخ العظيم؟!! كان الألم الّذي يملأ دماغي إثر لكمة حارس النوايا، بدأ يتلاشى شيئاً فشيئاً، وبدأت استعيد حالة حزني الأولى، وإصراري للذهاب حتّى النهاية إلى مرتفعات «تليملي». أشعر بالرغبة الكبيرة للوقوف على الجسر الّذي أكل شاعرة هذا البلد[1]. وعندما ينتحر شاعر، فهذا حدث لا يتكرر دائماً ويعني حتماً أن قنبلة مخبأة في جوف المدينة الساحلية ستنفجر عما قريب. لكن الحادث تسطح حتّى صار شيئاً مبتذلاً وسط هذه الزحمة المقلقة.

وجدت شهوة كبرى للمشي. كان شيء في داخلي، يحرقني، وجهها يملؤني ويملأ دمي، يملأ خطواتي الّتي فقدت اتزانها.

(1) الشاعرة هي «صفية كتُّو» الّتي انتحرت بعد أن ألقت بنفسها من على الجسر نفسه.

تصوري يا مريم!! الحديث عنك صار جناية! ما أعمق هذا الحزن! ماأفظعه! عندما يصل الألم إلى منتهاه، نفكر في شهوة الكتابة.

أهلاً بالحزن العظيم.

«أما تعبت أيّها الرّجل الصغير؟».

أنت تملئين قلب الرجل الصغير. إني أراك بكل امتدادك وعنفوانك. ها أنت تعودين مثل الريح الساخنة الّتي صارت تملأ هذا الدماغ المتعب. وجهك غارق بين غبار الكتب والأسطوانات والأشرطة، تتأملين انعكاسات العينين اللتين لا تتعبان والأشواق المدفونة بين حروف الغواية المدهشة. هو المطر، يعيدني إليك بخوفي وقلقي وارتعاشاتي، إلى البرودة الّتي تأكلك، إلى الحنين المملوء بتكسر الموج، وزرقة البحر. تعيدني الأمطار إليك كما تعيدك إلى وسط هذا القفر الّذي لم يبق فيه إلا المطر والبحر.

هو العمر كلّه، يَمْضي في عشقك.

عمرٌ من الحنين وبعض السنوات..

عمرٌ من الفرحة والحزن وبعض السنوات..

عمرٌ من الحماقة وبعض السنوات..

وأنت أيّها الرّجل المحزون، أيّها الصَّغير، العابر للشوارع مثل عقارب ساعة ذرِّيّة، أما تعبت؟ أما تآكل حذاؤك؟ أما أنهكك المطر الّذي يلفك داخل فرحه وكآبته؟ لقد تعبت! تعبت من قراءة الشوق والنسيان والصمت! لك الجنون وكل حماقات الدنيا وأنت داخل برودة الثلج؟ أما تعبت يا زوجة سلطان الكلمات والأبجديَّات الّتي تدخل القلب بلا استئذان؟

أما تعبت بعد؟

لقد تعبت كثيراً. أشعر بنفسي كل يوم أصغر. الأمطار تدخلك إلى بيتي الصغير، إلى أعماق فراشي، إلى حيطان المدينة الذابلة، إلى زجاجات النوافذ المكسورة، إلى وريدات اللبلاب الّتي تبحث عن

أوهامها بتسلق كل الحيطان الّتي أصيبت بالحفر ومرض الجدري، إلى وجهك وهو يتفتح في منتصف الليل وبعض الساعات على الشارع المليء بروائح الأمطار، وعرق المتعبين الذين يصعدونه يومياً وينزلونه. إليك وأنت تختبئين وراء باب نصف مفتوح، تتلمسين جسدك وقلبك. وأنا أتلمس أشواقي في رعشتها. هي ذي تأتي! كيف ستكون أول ليلة معها؟ كيف ستكون أول لمسة؟! من أين يبدأ الشوق الأزلي الّذي يملأ القلب؟! أي حرف؟! أية غواية ستخرج مدافن الطفولة؟

أنت يا أنت... أما تعبت بعد؟ أما كلّت ذاكرتك؟ هل تعيد الميت كلماتك؟ ما أروع قلبك!! ما أقدس صمتك وشوقك. قلت في الليلة الأولى، أرجوك تكلم. تكلم حتّى الصباح ولا تصمت. أعرف أن العيون الكريهة صارت كثيرة. تمتص هواء الدنيا وزفرات العشاق ولا تيأس، تسحب زرقة البحر من الذاكرة ولا تيأس، تسرق عنفوانات الطفولة وتسرق الجنة من عيونهم والألوان، ولا تيأس!

أما تعبت؟ أنام الآن بين القلم والألم والحلم والذاكرة، أدعوك إلى آخر غوايات هذا الحلم الّذي بدأ يتآكل داخل جحيم الكلمات وقلق المدينة. كل شيء يعيد الحزن إلى بداياته الأولى، إلى القلق المحرج، وأنت تدورين وتدورين، كالمجنونة داخل فاجعة الموت، مستقرك البعيد ومداك. تتأملين بحزن وبعينين نصف مفتوحتين الوجه الّذي لا ينام إلا على تقاطيعك الملونة. أما تعبت؟! قليلاً من الحزن والفداحة أيّها الرّجل الصغير ثمَّ نفترق لنلتقي ذات حلم جريء، عاريين. ليلة واحدة فقط قبل الإغفاءة الأولى في فراش واحد. هل يعقل أن تكون الجنة بهذه الفظاعة، قليلاً من الحزن ولنصمت بعدها. سعادة مفجعة أن نموت تحت المطر.

تمنّيت أن يكون لديّ زمن وكثافة من الألم لكتابة هذه الفاجعة. لكن الانهيار الداخلي كان مذهلاً يتوازى مع حالات الجنون.

واصلت تدحرجي باتّجاه الجسر الّذي يربط المدينة بما تبقّى من مرتفعاتها.

X

إغفاءات الموت

ـ ألو!! ضروري تأتي إلى المستشفى. مريم مريضة جداً.

ـ وهل الوضع خطير يا دكتور؟

ـ يا سيدي تعال أولاً.

عرفته من صوته الشرقي الّذي بدأ يفقد ميزته تحت تأثير بعض المفردات المحلية. صديقي الفلسطيني. لم يكن من الضروري أن يقول لي عن اسمه. عرفته من صوته. كانت حشرجته تشبه الغصة الّتي تقف باستقامة كبيرة في الحلق.

البارحة غادرت مريم. وجهها كان ضائعاً وقلبها ممتلئاً بالدود الأزرق والأسود. كانت الخيبة تملأ عينيها وشوقها إلى أَنَاطُولْيَا يزداد. لقد سرقوا كل شيء حتّى آخر الأنفاس، بل حتّى زرقة البحر الّتي كانت تتصور أنها ملك الذين يحبون فقط. عندما استيقظت، كان رأسي يؤلمني. تأملت قنينة «الزامبريطو» الّتي كانت تقف بتوحد عند قدمي. كانت في ربعها الأخير. سحبتها باتجاهي. ليكن. كان الحزن يشل ما تبقى فيَّ من الأفراح الطفولية الصغيرة. تذكرت ألم مريم مرة أخرى وهي تشعر بيتم وهي تتأمل الصالة وهي تتعرض لغزوٍ كبير ومنظم من كل الأبواب. قال لها الأطباء،

لاتنفعلي. اضحك الآن داخل الخيبة. من منا لا ينفعل داخل هذا البلد؟ إننا نموت بشكل متجزئ. يموت الفرح. تموت الذاكرة. تنحني الأشواق. ندخل في الرتابة، ثمَّ ننسحب. نشيخ بسرعة وبشكل مذهل. شيءٌ ما يتآكل يومياً في داخلنا. قلت، ليكن، سأتصل بمريم في بيتها. أكثر من عشرين محاولة. لم يكن أحد بالبيت. كل مرة أقول، مؤكد، مريم في الطريق، تأتي. ولكنها لم تأتِ. لي رغبة قصوى لمواصلة شرب البارحة. رائحة الزامبريطو كريهة، ولكن دوخته ممتعة. ثمَّ إن المدينة مغلقة ومحلاتها الجميلة وباراتها الرائعة انسحبت من شوارعها مخلفة بنايات مهدمة أو مداخل مغلقة، أو حولت إلى محلات لبيع التجارات المهربة من طايوان، وسوريا، وفرنسا، وإيطاليا. كل شيء في هذه المدينة اكتسب شرعيته بالقوة. السرقات الكبرى، بيع الوطن، الترابندو. قلت في خاطري، ليكن!! لن يضرك يا ابن هذه الأم اليتيمة في شيء هذا الربع الأخير من قنينة الزامبريطو الّذي صنعته بيديك، من الكحول والصودا. تذكرت كلمات مريم الّتي تقولها كلما شمت في رائحة «الزامبريطو»..

ـ عَمَيْتْهَا يَا حَلّوف!!! الزّامبريطُو Vive la vodka nationale!!

منذ أيام دخلتني حضارة التليفون. منذ ذلك الوقت تلقيت مكالمتين، الأولى كانت من مريم حين أخبرتني عن سفر أَنَاطُولْيَا وذهبنا لتوديعها، والمكالمة الثانية أتلقاها هذا اليوم في وقت كنت أنتظر مريم أن تأتي ولكنها لم تأت. الآن دخلتنا حضارة التليفون. أخبرتني مريم بحزن عن عزم أَنَاطُولْيَا. كنت أعرف كل شيء. لقد كرَّهوها في حياتها. فسخوا عقدها قبل انتهائه. قالت لهم خدمت هذه البلاد أكثر من ربع قرن. أكثر منكم كلكم. قال مدير المعهد العالي للفنون الجميلة، يا مدام أَنَاطُولْيَا، تعرفين أزمة البلاد. لم تعد قادرة على تحمل الدفع بالعملة الصعبة للمتعاونين. قالت أقبل التعامل بالدينار. قال: مدام إننا نتلقى تهديدات بغلق المعهد ولدي تحت مسؤوليتي أكثر من ألف طالب أرميهم في المزبلة؟ قالت: قاوموا هذا الوباء. قال لها: «يا مدام أَنَاطُولْيَا، رأسي هو رأسي،

ومع ذلك فنحن نقاوم». كان يكذب بكل بساطة، كان يريد أن يحافظ على منصبه بكل الوسائل. يومياً يحاول أن يغازل حراس النوايا الذين بدؤوا يتوزعون داخل المعهد بشكل سرطاني، ويتقصون الصغيرة والكبيرة. عندما كوَّنا وفداً وذهبنا نقدم احتجاجاً على ما كان يحدث في المعهد، قال: أعطوني فرصة. سأتدبر الأمر بنفسي. وعندما طرحنا عليه قضية أَنَاطُولْيَا، قال، بعد أن مسد على لحيته الّتي تدلت في الآونة الأخيرة: البلاد يا إخوان تمر بأزمة في العملة الصعبة ولم نعد قادرين على تغطية النقص. وتعرفون، الأجانب، لايتنازلون عن حقوقهم. ذكّرناه بأنها مستعدة لتسلم مرتبها بالدينار. قال: يا جماعة دعونا من حساب البقالين. البلاد أولاً. كانت الديماغوجيا تخرج من عينيه. ثمَّ ذكرنا بأستاذ الفن الإسلامي الّذي نسي وظيفته وبدأ يحول دروسه إلى تحزبات عجيبة. ثمَّ قال: يا جماعة الرجل مسكين ولاجئ سياسي، يعيش في البلاد بسبب موقفه. لكن الّذي لم يذكره المدير، هو أن الرجل لا يضيع إلحاحاته من أجل التحويل في نهاية كل شهر. كانت العلاقة قد تدهورت نهائياً مع الإدارة الّتي فقدت كل مصداقية. يقيسون كل شيء في حدود مايرتضون.

عندما حملت السماعة مرة أخرى، قال صديقي الفلسطيني، لم أكن أعرف الساعة والتوقيت:

ـ اسمع. واش تحبني نقول لك؟ الحالة صعبة جداً.

ـ هل الوضعية متعلقة بالرصاصة؟

ـ جاء أهلها وخرجوا. حتّى عمها العباس، يبدو أنه دخل حالة ذهول خاصة، لم يعد يكرر إلا كلمتين حفظهما عمال المستشفى «وعلاش مشيت لشجرة الخروب؟ مش أنا يا السي لحسن. مش أنا. هم السبب. هم السبب».

ـ واش حالها الآن؟

ـ في غيبوبة. كلما استيقظت تطلبك. رجتني أن أخبرك. تطلب منك شريط «شهرزاد» وما كتبته عنها في رواياتك الأخيرة. تعال.

كان الزمن يمر بسرعة مذهلة.

كتاباتي... هل هناك شيء أهم من الكتابة، من تحويل الكلمات الضائعة، الجافة إلى كائنات حية؟ ولكن في بلادنا مسكينٌ الكاتب. يصرخ في وادٍ خالٍ؟ خلينا من الكتابة يرحم والديك؟؟ قلتها لها في ذلك اليوم عندما سألتني عن روايتي الأخيرة. أنت أهم من كل شيء يا مريم. كنت مدهشة. مرعبة. رائعة. متوحشة. غجرية. نبية... فظيعة. وحياتك. كنت مدهشة. كنا نشرب قهوة الصباح المتأخرة بتثاقل. تصوري!! خفت عليك كثيراً، وأنت ترقصين بجنون، كنت أبحث عن الكلمات الّتي تحول الرقصة إلى كلمات مضيئة.

ـ مهنة صعبة أن تحول النوطة إلى كلمة.

ـ ومع ذلك، عندما نحب بدهشة وذهول، يصير كل شيء ممكناً كان على الكلمات المضيئة أن تحمل سحرك وخوفك الداخلي ورائحتك.

ـ عندما نكتب، ونعشق ما نكتب، يصير الأمر ممكناً.

كنا نشرب قهوة الصباح المتأخرة جداً، لأنه بعد الرقصة في الصالة، والدخول داخل لحظة الذهول، عندما استفقنا، كانت الساعة تشير إلى السابعة إلا ربعاً، وكان علينا إخلاء الصالة قبل مجيء العمال والطلبة. سرنا باتجاه بيتي في ذلك الفجر الّذي جاء بسرعة. وضعت معطفي الخشن على ظهرها وبدأنا نتدحرج. كان الذهول يملؤنا.

قالت:

ـ ياه! الساعة السابعة؟ بهذه السرعة؟

من العبث أن نسلم بقية اليوم للغير! تذكرت كلمات جاك بريفر... وصممنا أن ننهي بقية اليوم في البيت. قلت أمي لا تنتظرني إلا في المساء. لن تقلق. يا الله. ليكن! لن تهرب مني. قلتها مع ابتسامة مليئة بالمكر الجميل، في البيت، كانت أصابعك تبحث عني.

قلت:

ـ لن أضيع دقيقة واحدة. هذا اليوم لنا.

ـ ما أجملك يا مريم. كل هذا السحر!!

ـ أريد أن أواصل إغفاءتي المجنونة حتّى اليوم الموالي. على صدرك. ألمسك في عريك، في طفولتك، في خجلك، مشتاقة دائماً لحنينك.

ظللت مدة طويلة، لا أعلم إن طالت أم قصرت، أمسد على شعرها الآسيوي. أقبل عينيها البحريتين الضائعتين داخل إغفاءات لا حدود لها. وهي تتقطع، قبل أن تصبح متزنة، ونغوص في حلم ورديٍّ لم أتذكر إلا ألوانه. من حين لآخر، أتحسسها لأتأكد من أنّ ماكان يحدث داخل قلبي وعلى مشارف جسدي، لم يكن حلماً.

عندما استفاقت، مدت يديها إلى خديها المحمرين. كان رأسها قد بدأ يؤلمها.

ـ يا لطيف. يبدو أن هذه الرصاصة الملعونة بدأت تتحرك بعنف.

لمست شعرها. أدخلت أصابعي. عنقها. ظهرها. كانت بعض الحرارة تعلوها.

ـ واش نقول لك يا مريم؟ أخاف عليك!

لم تتكلم في البداية. تأملت صورتها العملاقة الّتي كانت تتسلق الحائط بكل عنفوان مع صورة إيكاترينا ماكسموفا. ثمَّ ابتسمت.

ـ تصور. كاتيا!! حركة تافهة في العمود الفقري أو في القدم، أرجعتها إلى الأرض. أقعدتها. هل كان من الأفضل أن تستسلم لهذا الموت التافه والمجاني؟ قاومت حتّى قامت، حتّى صارت كاتيا الّتي ظل مسرح البولشوي ذو الطوابق والقطيفة الآجرّية يتعشقها. انظر!! ما أروع ساقيها!! فهل تموت الرقصة هكذا في قلبها؟ دعني على الأقل أموت الآن مرتاحة. أديت شهرزاد لك. كان هذا حلمي.

ـ سيأتي يوم آخر وتدخلين حلماً جديداً.

- ليكن هكذا الفنان. ولد ليحيا داخل الرقصة والحرف والموسيقى . هذه هي خلجانه.

كانت الكلمات قد توقفت وبدأت تتأرجح أمام إصرارها وغفوتها المدهشة.

- يجب أن تتفهمني. كل ما فعلته كان من أجل هذا الحب الكبير. من أجلك.

- أعرف. لكني أنا كذلك لي أنانيتي الخاصة. أريدك أن تبقى لي.

- للحياة وقت. وللموت وقت. عندما يأتي، علينا أن نتمادى معه قبولاً ورفضاً. تكلم لي عنك قليلاً. حدثني عن رواياتك. شوقتني وهي لم تنته.

- لا أريدها أن تنتهي. لن تنتهي هذه الأشياء المضيئة في دواخلنا.

المشاكل اليومية لم تساعدني على إتمام هذا النص. هموم مريم. متاعب أَنَاطُولْيَا. خيبتي مع هذه المدينة الّتي بدأت تنفصل عنا بقوة وعنف كبيرين. أنتظر اللحظة المفجّرة، الكتابة، لأهرب داخل عنفوان الكلمات والأشياء الّتي تحافظ على ألقها حتّى النفس الأخير. لكن!! ماذا تريدين يا مريم!! كل شيء يشيح عنا بوجهه والمدينة تشيخ بشكل لم نهيأ لتقبله بسهولة وطمأنينة. تنخرها الأمراض الداخلية الّتي بدأت تتعدد، والأوبئة، الكوليرا، السل وقريباً الطاعون. شيء من هذا بدأ يعلن عن حضوره الآن!

عاد صوت التليفون ليرن من جديد، ليقطع الحرائق الّتي كانت تنشب في داخلي.

- ألو. هي تطلبك. أهلها غير موجودين. خرج الجميع. أرجوك أن تسرع.

شعرت في الكلمات الأولى بنوعٍ من الأنين والخوف. رأيت وجه

صديقي الفلسطيني قد تهدل من كثرة الهزائم والهموم، وشاربه الكث قد ابيض بسرعة. وبدأت الكسور الرقيقة تملأ زجاجتي نظارته. لست أدري كيف ارتديت معطفي الخشن بالذات، ولا كيف انتعلت حذائي، ولا قميصي ولا حتّى كيف وضعت شريط شهرزاد لرمسكي كورساكوف ومخطوط روايتي الأخيرة في محفظتي القديمة.

عندما وصلت إلى المستشفى، شعرت به كبيراً على غير العادة ومساحاته تزداد اتساعاً وأزداد أنا صغراً وسط فضاءاته المليئة برائحة الأدوية الّتي كنت أكرهها منذ الطفولة. العجيب، كلما دخلت المستشفى، أشعر أن للموت رائحة. للحزن رائحة. للدمع رائحة. للبكاء رائحة، لا نشمها إلا بعد زمن بعيد عندما نتذكر الفاجعة. كان شبه فارغ، بعدما غادره الزوار الوافدون من كل جهات الوطن. في ذلك الزمن الّذي صار بعيداً، قالوا يا مريم حددي من حصصك التدريبية، تفادي الرقصات العنيفة. عندما ذكرتها، قالت الأطباء يجعلون من الحبة قبة. رصاصة الجمعة الحزينة، كانت قد بدأت تتحرك في الدماغ. الأدوية الّتي سلموها لها، تقول مريم، قادرة على إيقافها على الأقل في مكانها، وتمنعها من التصدؤ.

- تْحَاوْلي[1] على روحَكْ يا مريم.

- يرحم والديك، لا تحرمني من لحظة اخترتها بنفسي.

كل هذا لم يعد مهماً، داخل هذا المستشفى الّذي شعرت فجأة ببرودة حيطانه وحزن قاطنيه. النّاس لهم طقوسهم في هذا المكان. طقوس إجبارية، ثمَّ تتحول إلى عادات يومية تؤدى بدون سؤال مسبق. عندما انحرفت باتجاه جناح العمليات كان صديقي الطبيب الفلسطيني واقفاً عند المدخل، بلباسه الأبيض ونظارته البيضاء الّتي ينزعها ويعيدها في حركة رتيبة كلما تكلم أو كلما دخل في نقاش طويل حول مسألة من المسائل الطبية أو السياسية. لم أشعر بأية

(1) حَاذِري، انتبهي لنفسك.

ألفة مع الحيطان البيضاء ولا مع القطط السمينة، ذات الرؤوس الكبيرة والمدورة الّتي كانت تتقاتل بجانب أكوام الزبالة.

قلبي كان مذبوحاً وصامتاً. مددت له يدي:

ـ هل هي في خطر؟

ـ حتّى الآن لا نعرف. المشكل، أننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً لقد أرهقت نفسها كثيراً في الأسابيع الأخيرة. إنها متعبة جداً.

شعرت بالموت قريباً مني. يكشر بأنيابه الطويلة، في شكلٍ ساخر، وبأشياء كثيرة تتصدع في داخلي في شكل يشبه تكسر الزجاج الرقيق، وتحترق وتخترق روائحها الكريهة مناخيري. أوف.. الساعات كانت تمر بتثاقل مخيف. ربما لو لم أكن موجوداً، لما وقع الّذي وقع. كان بإمكاني الاعتراض أو عدم المجيء إلى الصالة. وعندما تساءلت أكثر بدا الأمر تافهاً، ويزداد تفاهة كلما فكرت فيه أكثر. مريم كانت أسعد إنسان في تلك الليلة. سعيدة لدرجة أني كدت أن أضيع ملامحها. كانت شفافة مثل الغيمة البنفسجية. هل كانت تراني؟! أنت لا تراني. لقد صرت شفافة، تقول مريم، كلما رقصت، أشعر بنفسي أذوب داخل الأشياء الحميمية حتّى تصبح رؤيتي مستحيلة.

قال صديقي الفلسطيني وهو يتأمل حالتي الّتي بدأت تتكسر:

ـ في صورة «السكانير» وضعية الرصاصة تغيرت كثيراً. لم تعد في موقعها الأول، عندما تتحرك، فهي تمزق الكثير من الأنسجة الرقيقة، وهذا ما يبرر دخولها في حالة من الإغفاءات والإغماءات المتكررة.

ـ سيطول وضعها على هذه الحال؟

ـ الله كريم!

ـ يعني؟

ـ لقد نظفنا الجرح، ونحن ننتظر.

بدأت أتحسس من كلمته اليومية «الله كريم»، لأني كلما سمعتها، شعرت بحالة يأس من الوضع. كلمته المتكررة، لرفع معنويات النّاس الّتي تنزل فجأة، كلما تخطينا البوابة الكبيرة للمستشفى، تشممت الخطر في كلامه. كان يتفادى التفصيل في الحديث. شعرت بمغص في معدتي وبألم فظيع يمزق قلبي. عندما دخلت إلى القاعة، كانت ممتدة على السرير، شبه نائمة، تعلو وجهها بعض الصفرة، تنسحب من رأسها كتلة من الخيوط والأنابيب، ومن عمق أنفها. شفتاها تميلان إلى بياضٍ جاف.

ـ أنت هنا، تأخرت كثيراً.

قالتها بصعوبة وهي تنزع الكلمات من أعماقها بإرهاق كبير.

ـ عندما سمعت الخبر جئت. لا بأس عليك.

ـ تعرف.. شممت رائحتك قبل أن تدخل. كنت أتخيلك كما أنت الآن، بمحفظتك الجلدية السوداء ومعطفك الخشن.

ـ ما تتغبِيشْ حالك.

ـ أوف!! فيك ريحة الزامبريطو!! Vive la vodka nationale.

ـ شربت في غيابك لأمتلئ بك. فرن التليفون، فجئت أركض.

ـ التليفون! لقد صرت حضارياً!

قالتها وهي تنزع بعنف، ابتسامة عميقة، سرعان ما انكسرت بين شفتيها اليابستين. وأضافت:

ـ كانت تلك الليلة مدهشة. تصور، نسيت كل شيء إلا وجهك وأنت تضع الكأس بين يديك وتتأملني من وراء الانعكاسات الضوئية. كنت أظن أني المجنونة الوحيدة!

ـ كُنْتِ تَغْبُرِينَني مثل السّهم الحارق. كانت الصور عنيفة.

ـ شفت!! والآن يقتلون المدينة والجياد. أغلقوا كل شيء، حتّى الأنفاس.

ـ هذا قليل من كثير. القادم أفظع. ستصل البلاد إلى حافة الانتحار. إما أن ينطق الصامتون حتّى الآن بما فيهم الجيش وإما أن نعود إلى القرون الوسطى. ويبدو أننا عائدون لا محالة. حتّى عندما يدخل الجيش، فهو لا يحل لا مشكلة الجوع ولا العمل، يهدئ ثمَّ يعود إلى ثكناته ويعودون هم إلى عاداتهم القديمة.

الكلمات لم تخرج بسهولة. حبات العرق كانت ترتسم على جبهتها، كأنها قطرات مطر تتحرك على بقعة مزيتة. حاولت أن أغير حالة الكآبة الّتي كانت تملأ وجهها وتزحف نحو عينيها اللتين لم تفقدا ألقهما ولونهما:

ـ أعلنت وزارة الثقافة عن عرض «شهرزاد» الّذي ستدخل به فرقة الباليه الوطني موسم «ربيع الجزائر» القادم. شيء عظيم. سمعت الخبر في الإذاعة والتليفزيون.

ـ مبادرة منا، ووفاء لأَنَاطُولْيَا واحتجاجاً على غلق صالة التدريبات. لكن مصيبة هذه الرصاصة.

ـ أوف!! مثلما دخلت ستخرجين معافاة.

ـ الرصاصة في الدماغ مثل السرطان. مؤذية جداً.

كان صديقي الفلسطيني، في الزاوية يتأمل المشهد بكثير من الاهتمام. ابتسم. ورغم أنه لم يبد أي شيء يدعو إلى اليأس، فقد شعرت أن في ابتسامته بعض الألم. قال وهو يمازح مريم:

ـ شُوفي يا مريم، وحياتك أوّل ما تعودين إلى الوضع الطبيعي، سأمِلّك بالنصائح. وهذه المرة سأكون صارماً.

ـ يا سيدي لا حرج على مجنونة مثلي. مستحيل. تخيل امرأة لم تر الأرض في حياتها، وتنزل إليها فجأة. وقع الصدمة سيكون كبيراً أرثي كثيراً لحواء وهي تطأ التربة لأول مرة. الرصاصة الملعونة. أشعر بدوارٍ يرهقني.

ـ ارتاحي قليلاً.

ـ أرجوك لا تذهب. ابق معي..

ومدت يدها نحو يدي. كانت ممتقعة، وبدأت تدخل في إغفاءة لست أدري كم طالت، عندما عاد لها وعيها من جديد، بدأت الصفرة تنزاح شيئاً فشيئاً ويعلو خديها صفاء خاص. وعاد لي تنفسي من جديد، بعد أن انحصر في حلقي كالشوكة. لكن شيئاً ما في داخلي، كالخوف، كان يأسرني ويزيد من حالة الخوف الّتي كانت تعتريني. ضَغَطَتْ على يدي. كانت تريد ماء. نظرت إلى صديقي الطبيب الفلسطيني. أشار بعينيه بالموافقة. ناولتها قليلاً، من غير أن أحرك رأسها. ساعدني صديقي الفلسطيني الّذي كان يسهر عليها.

ـ مريم لا تتكرر دائماً. فنانة من نوع نادر.

سمعت فقط صوته، لأني كنت مأخوذاً بعيني مريم اللتين بدأ بياضهما يزداد ذبولاً. لكن زرقتهما ازدادت صفاء وذهولاً. كان صديقي الفلسطيني قد استأذن، لعيادة المرضى، ثمَّ العودة إلينا بعد قليل، بعد أن طمأنني. قالت وهي تضغط على أصابعي:

ـ تعرف يا حبيبي، أريد أن أفتح عيني عليك وأغلقهما للمرة الأخيرة على وجهك.

ـ لا تتعبي نفسك أرجوك.

ـ من يسبق في الموت: أنا أم أنت؟

ـ وهل من الضروري طرح هذا السؤال؟

ـ أنت قلت لي، عندما يأتي الموت سأقول لك. قل..

ـ ... ...

ـ لا يهم. أعرف أني أنا.

ـ كيف تعشقين كاتيا ماكسيموفا لأنها قاومت الموت وأنت تستسلمين بسهولة؟

ـ قاومت، لكنه الموت. إني أشعر به على رؤوس أصابعي مثلما

كانت موجة البحر تفعل معي. أكره الموت وكنت أتوقعه، لكن هذه المرة أتى مبكراً.

– لا ترهقي نفسك. سترين. ستشفين وسنعود لممارسة كل الحماقات الّتي نسيناها.

– في قلبي أشياء كثيرة، أريد أن أقولها دفعة واحدة. لا أريد أن أموت وهي معي.

– غداً سنعبر كل شوارع المدينة ونتحدى حراس النوايا مع كل عشاق هذه البلاد. وأحضر عرض الربيع القادم. وسأخرج، وتتوقفين بسيارة 205 الفضية عند رجلي. اركب. وأقول لك أحب المطر. وتقولين اركب وإلّا ننزل نمشي معك. هذه المرة لن أكون أحمق. لن أركب. سأقول لك أوقفي السيارة وانزلي نعبر الشوارع الممطرة. المشي في يوم ممطر فيه الكثير من السحر والدهشة. من لم يجرب، لا يعرف درجة الغفوة والسكر الّتي يشعر بها المرء وهو يستمع إلى القطرات المتواترة وهي تعبر دمه.

– أوف وهل تعود تلك الأيام الرائعة؟

– وهل انتهت، حتّى تعود؟؟ إننا نعيشها بعمق.

– يا رجل خليك شوي موضوعي وشفْ الحقيقة بعينيك ما تشوفهاش بقلبك فقط.

أنت تراني الآن وسط هذا الفراش الّذي أكرهه. قالت مريم بمسحة حزن عميقة. الدنيا تتعقد. أشعر بالدوار في كل لحظة. لقد صرت أقل من نصف إنسان. لا أتحرك مطلقاً. وبعد أيام ربما سأقعد نهائياً. الوضع خطير. إني أشم رائحة الموت. مصرة على الحياة، لكن بأي سلاح؟ منذ أن غادرتك تحت المطر، وأمام منظر غلق الصالة، والشرطة، والنّاس الذين يتزاحمون، عرفت أن كل شيء انتهى. حتّى إن البلد بدأ يغوص برأسه في الوحل. عندما عدت إلى البيت، تمنيت أن يكون ما حدث أمام عيني، وحتى سفر أَنَاطُولْيَا،

مجرد كابوس مزعج ولكن كل شيء كان يقودني إلى الفاجعة. حتّى عمي زاد وضعه تأزماً، وبدأت أقرأ داخل كلماته الهاربة، أسباب صمته الّذي دام أكثر من ربع قرن. كلماته تشعرني بأن أبي قد قتل. عمي العباس يعيش حالة ذهول خاصة. لقد ضيع علاقته بالمحيط. «غلاشْ مْشَيْتْ لشجرة الخرّوب!!؟ مَشِ أنا يا السّي لحْسَنْ. مَشِ أنا. هُمْ السَّبَبْ.» شجرة الخروب، هي الّتي قيل إن السي لحسن شنق نفسه عليها بعدما سمع بخبر تزويج ماما خضراء بعمي العباس، كأنه يعيش كابوسه بعمق كبير. أحياناً يتفحص أمي حتّى يكاد يبتلعها بعينيه، وفي أحيان أخرى ينظر إلينا نظرات مريبة ثمَّ يصاب بحالة هيجان، فيغادر البيت ليوم أو يومين. في المرة الأخيرة غاب أسبوعاً بكامله، في يده مصحفه القديم، وعندما عاد كان متسخاً، يتراكض الأطفال وراءه، وفيهم من كان يرميه بحجارة أدمته. وضع مأساوي جداً. البارحة سحب سكيناً، كان يضعه داخل المصحف، ثمَّ أراد أن يذبح أمي وهو يصرخ. «وَغْلاشْ قْبَلْتي وغلاش قْبَلْتِي. شجرة الخرّوب يا ربي سيدي». دفعته بكل قوة، ثمَّ سحبت قضيباً حديدياً كان مرمياً في الزاوية وهممت بضربه على رأسه. لأول مرة أشعر أني أملك طاقة كبيرة لتدمير كل شيء، حتّى نفسي. التفت نحوي. كانت عيناه حمراوين مثل الجمرتين الحارقتين. صدره يعلو وينزل بسرعة. رفع يديه. قلت في خاطري، سيأكلني لا محالة! لكنه فجأة تبدلت ملامحه. وضع رأسه بين يديه، وسالت دمعات سوداء من عينيه. وعندما سقطت على الأرض مغشياً عليَّ، سمعت أمي بصعوبة، وهي تشتمه بكل المفردات البذيئة. أَرْوَاح[1] أَنْتَ قَوَّمْهَا يَا وَحْدْ الدّابَةْ! هَايْشَةْ!![2]...

جلس عند رأسي وبدأ يبكي بأعلى صوته. في الحقيقة كان يحمل نفسه ذنوب الدنيا بكاملها. كنت مرهقة بالأساس من حادثة غلق الصالة، ولم أسقط لأنه أراد أن يذبح أمي، ولكن لأني لم أكن

(1) تَعَال.
(2) الحيوان.

أملك أي طاقة للمقاومة، حالة يأس مدقع، لم أستيقظ إلا وأنا في المستشفى. تقول أمي إنه بكى حتّى جن. ثمَّ أصر على النزول معها إلى المستشفى. ساعدها على نقلي ولم يخرجا إلا عندما طمأنهما صديقك الطبيب الفلسطيني. طوال الصبيحة ظللت هكذا بين اليقظة والإغفاءة حتّى جئت أنت. أعرف أن وضعي صعب للغاية. إني أشعر بها وهي تتحرك في الدماغ. الرصاصة الملعونة الّتي فككت بني كلبون، وجاءت بحراس النوايا إلى الواجهة. أحياناً ألعنها وألعن والديها لأنها كانت بدون معنى. وفي أحيان أخرى أقول، هذا هو التاريخ. يجب أن يتعفن لكي يتحرك.. أوف، بدأنا ندخل في السياسة. لا أريد ذلك الآن، فأنا في حاجة ماسة إلى وجودك. وأنا أجابه مأساة الموت، علي أن أحفظ قسمات وجهك قبل أن أغيب داخل هذا الفراغ المقلق الّذي أسمه الموت. النهاية. ومع ذلك، لو أعود ثانية، سأعيد ارتكاب الحماقات نفسها معك. الحماقات الّتي تقربني منك أكثر.

ـ هاه.. ها هي تتحرك. ألمها فظيع.

عضت على شفتها السفلى بقوة. مدت يديها بهدوء إلى رأسها. ضغطت بعنف شديد، كأنها خائفة من انفجار دماغها. جرى إليها صديقي الفلسطيني الّذي كان قد عاد لتوه من البهو المطل على حجر المرضى. تلمس رأسها. ودقات قلبها.

ـ هل تشعرين بألم؟

لم ترد ولكنها حركت عينيها في المحجرين اللذين بدءا يتعمقان، أن نعم. سحب من العلبة الّتي كانت عند رأسها قرصاً ملوناً وضعه في فمها ثمَّ قدم لها كأس ماء. سحب منها مقياس الحرارة. تأمله جيداً ثمَّ نظفه بقليل من القطن، ووضعه في إناء عند رأسها. ثمَّ سألها بعد لحظات قليلة:

ـ والآن؟

ـ مرهقة. أشعر بتعب كبير.

ـ يستحسن أن ترتاحي قليلاً.

ـ أريد أن أبقى قليلاً مع... أستاذي.

ضغطت على يدها. شعرت بيتم في عينيها، وحالة يأس ترتسم على ملامحها. لم تتكلم. ظلت مندهشة في الفضاء المغلف بالبياض المقلق. كان صديقي الفلسطيني قد خرج من جديد، بعد أن نبهني إلى أنه إذا نامت، أن لا أوقظها لأنها متعبة جداً. طلبت منه أن يكون صريحاً معي. أكد لي أنه حتّى الآن وضعها غير مستقر ولكنها ستنام بفعل القرص الملون. فالرصاصة صارت شبه ملفوفة داخل المخ، وأية حركة جديدة، ستحدث تمزقاً في الأنسجة. كانت تحاول أن تفتح عينيها بصعوبة تبتسم ابتسامات تنكسر بسرعة تحت ضغط الألم.

ـ تتألمين؟

ـ لا أشعر إلا بك. إنني خائفة!

ـ ستخرجين وسنسافر معاً. لي دعوة من معهد العالم العربي. أتمنى أن تذهبي معي.

ـ أذهب معك إلى آخر الدنيا. إلى الجنة. إلى الجحيم. لا يهمني. المهم أن أكون معك. بمجرد خروجي، سأبقى معك. تعبت كثيراً

ـ سأكون أسعد إنسان.

ـ أمي جاءتني بقرار السكن من الولاية. الأصدقاء في وزارة الثقافة، كانوا رائعين لقد ساندوني كثيراً وساعدوا أمي. أنا سعيدة جداً لشيء واحد، صار بإمكاني أن أسكن بيتاً صغيراً. بدأت أشعر أنه أصبحت لدي بعض المواطنة في هذه البلاد. سيكون بيتاً بفضاء فارغ ليبدو متسعاً. لن يوجد فيه سوى صوفة صغيرة ومكتبة مليئة بكتبي المفضلة، والأشرطة والأسطوانات وستيريو كبير وإذا شئت أن ننجب طفلة، ننجبها. أريدها أن تشبهك وتشبهني. تأخذ منك

القامة والسماحة والدهشة وتأخذ مني العينين وسمرة السواحل الرومانية.

ألم تقل هذا؟

- أريد لها قلبك الذّي لا يعرف سوى الطيبة والمقاومة والشجاعة.

- شفت كيف يصير الإنسان طفلاً حالماً عندما يقترب من الموت؟

- عندما يصل حراس النوايا، يكون حلمنا قد شارف على نهايته. وعندما يصدرون فرمانات منع الحلم، يكون الزمن قد انتهى.

- جاء بنو كلبون. وها هم يمضون. يأتي حراس النوايا ويمضون. وتأتي فلولٌ أخرى وتمضي ونأتي نحن ونمضي، لكن شيئاً واحداً سيبقى أبداً، هو هذا الصدى المليء بالعشق والحب والحنين، الذّي يحول قلوبنا إلى نور مشع.

- أشعر بإرهاق كبير، كأني قضيت الأيام الماضية في حفرة عميقة. عيناي تحرقانني بشكل كبير. أحس برغبة عميقة للبكاء. يبدو أنني في الطفولة لم أبكِ مثلما يبكي جميع الأطفال. كنت أتمنى أن أعرف إذا كان أبي قد شنق نفسه أم استشهد حقيقة. شيءٌ ما في أعماقي يشبه الهوس يقول لي إما أنه شنق نفسه أو مايزال حياً. أنزل إلى الشوارع والأزقة، أتأمل الوجوه بتمعن. أحاول أن أقرأ الشبه الذّي يختبئ بين ملامحها، فلا أجد شبهاً، فأعود بخيبة. ذات مرة، رأيت أحد الوجوه. شعرت فجأة بأنه يشبهه. كان الرجل يلبس معطفاً خشناً شتوياً عريضاً. ركضت وراءه مدة من الزمن حتّى وصل إلى الزاوية في أحد الأزقة الضيقة، وكان يشعر بظلي. انكسر على اليمين، ثمَّ وقف عند مدخل إحدى البنايات وغمزني بشكل مبتذل، أن أتبعه. شعرت بخيبتي الكبيرة، فعدت راكضة باتجاه البريد المركزي، ثمَّ الجامعة وأنا أحاول أن أنسى أوهامي. غسلت وجهي

بماء مثلج وقلت في خاطري، لابد أن أكون مجنونة. صرنا نتآلف مع الخيبة بسهولة.

كان الإرهاق بادياً على وجهها وفي بياض عينيها، بالرغم من أن البؤبؤ الأزرق ظل صافياً مثل البحيرة.

- أرجوك أنت متعبة. ارتاحي قليلاً. سأسمعك شريطك المفضل «شهرزاد». حاولي أن تنامي.

- يا سيدي لنا كل الموت لننام. ضعه في المسجلة، اسمعني ماكتبته عن تلك الليلة.

- ليس شيئاً خارقاً. من الصعب أن تحل الكلمات محل الموسيقى. أنا عاجز أمام سحرك.

- كلامك أكبر مني. أريد أن أسمعك.

كانت الفرصة مناسبة لأساعدها على النوم ولتخلد إلى الراحة قليلاً. وضعت الشريط في مسجلها الصغير الذّي جاءت به من موسكو. تذكرت أَنَاطُولْيَا، ولكني لم أرد أن أذكرها أمامها. بعدها بدأ أنين الكلمات والكمان، ينحت الصدى ويعطيه معنى جديداً. أغمضت عينيها. غامت وسط الغمامة البنفسجية بهدوء. ظلت تغرق في داخلها حتّى اختفت نهائياً عن الأنظار. هل تراني؟ لقد صرت شفافة! شيءٌ من السحر داخل موسيقى الباليه والأوبرا يحولها إلى نور شفاف جداً. هل تراني؟!

- هاه. مستعدة للاستماع إلى تخريفي.

هزت رأسها. لم تتكلم أبداً. شيء من الحزن كان ينتشر بسرعة كبيرة على جبهتها وعلى شعرها المنتشر هنا وهناك. ثمَّ ملأت صدري بالهواء، حتّى ولو كان مليئاً برائحة الأدوية والموت والخوف وبدأت أقرأ ما كتبته عن تلك الليلة، في روايتي الأخيرة.

«يندفع المقطع الموسيقي الحزين مضمخاً برائحة البحر الذّي

صار بعيداً، وبنسمة هوائية شعبية، كانت تئن تحت وطأة الخيالة. تحاول أن ترتفع أكثر من الفضاءات. لا وجود لها سوى الفراغات الفراغات.. تنظر مريم إلى المرآة، تتجوف. تتقعر أكثر. يرتفع لباسها ويتلون وجهها بألوان لهب نيران الصنوبر... تتأوه بقوة. ويمتد خيط الأنين عبر صوت الكمان الّذي أصبح خلفياً...».

ـ مريم هل تسمعين؟؟

لم تتكلم. عندما انتبهت لها، كانت تعض على شفتها السفلى بقوة، حاولت أن أنهض لأنادي صديقي الفلسطيني ولكنها ضغطت على يدي وأومأت لي بعينيها بضرورة المواصلة وعدم التوقف إلا إذا رفعت يديها. شيء ما كان يؤذيني في قلبي، وأنا أستعيد اللحظات الّتي مضت دقيقة، دقيقة، كنت أعيش الحالة بكثير من الرعب.

القطعة الموسيقية في بداياتها بأنينها المعتاد.

وكان علي أن أواصل حتّى النهاية.

«تتمايل مريم مثل ورقة البلاطان. تدور، تدور، كالنحلة، شعرها الآسيوي المتفحم، الّذي يميل نحو زرقة مشعة، الطويل، ينحل، يتبعثر في الفضاء مشكلاً ظل دائرة عملاقة. أصبح قزحياً تحت الألوان المنكسرة الّتي أعطته انعكاساً فوسفورياً مدهشاً...».

«يزداد الربيع في عيني شهرزاد تألقاً، تنكفئ على رجلها اليمنى. تحني رأسها بفرح، يتصاعد كالبخار في عينيها، تتقطع الكلمات القرآنية في أذنيها بنغمة مليئة بالأفول، يتدحرج يوم الجمعة الحزين في أعماقها مثل الرصاصة الباردة وهي تبلغ منتهاها».

كنت أشعر بحرارة أنفاسها وهي تتقطع بهدوء وتتباعد شيئاً فشيئاً. ثمَّ من جديد تضيق بينها المسافات، بشكل غير طبيعي. أظن أن المسألة لا تعدو أن تكون إغفاءة لم أكن مستعداً لتضييعها عليها. الموسيقى تتقطع. الأشعة الّتي كانت تملأ عينيها، بدأت تتكسر بعنف.

عندما فتحت عيني باتجاه المدينة، كانت العصافير تنسحب من أزقتها، وساحاتها، وشوارعها وبحرها. شعرت بها تحاول أن تفتح عينيها بصعوبة كبيرة. حاولت أن أتشجع أكثر على مواصلة القراءة، بهدوء وبدون توقف، مع انحدارات الموسيقى في أعماق الأعماق. بحثت عنها مرة أخرى داخل هذا الوله المخيف، بدأت عيناها المفتوحتان تتعمقان، والبياض يزداد نصاعة بعد حالة ذبول. كانتا تصران على المواصلة.

«وحياتك لا أشرب إلا معك وعلى الخشبة، ماتغيرش!! لا يعرف سحر الجنون إلا من جربه.. صباح الخير أيها الحزن المستعاد. صباح الخير أيها السواد سيد الأكوان والفلوات. صباح الخجل يابلاداً تنسى أحبتها وشهدائها. صباح الموت أيها القتلى الجدد...».

ـ هل أواصل..

عندما دخل عليَّ صديقي الفلسطيني سألها أكثر من مرة.

ـ هل أنت الآن مرتاحة، أفضل من قبل؟!

لم تجبه. عيناها تحجرتا، وشفتاها ازدادتا بياضاً.

تلمس عنقها. يدها. قلبها ثمَّ أحنى رأسه بانكسار كبير. تمنيت أن أسأله، لكني كنت مأخوذاً بالحالة وباللحظة الّتي كانت تريدها. كان مندهشاً. خرج ثمَّ عاد ومعه طبيب طاعن في السن، وممرضة. فحصوها من جديد. أرادوا إخراجي، لكني أصررت على مواصلة القراءة مما دفع بصديقي الفلسطيني إلى إقناعهم بضرورة بقائي. شيءٌ ما كان يتراقص في عيونهم يشبه حالة الاندهاش.

ـ ماتت.

قالها الطبيب العجوز، ماتت منذ خمس دقائق. وهل يعقل؟ كانت المقطوعة في نهاياتها. شعرت بشيء يفصلني إلى جزئين متساويين. ماذا حدث؟ كنت أقرأ على مسمع مريم وهي ميتة؟ هل

ماتت كلماتها وأشواقها في حلقها؟ مريم لا تموت هكذا وسط هذا الفضاء ذي البياض المخجل... مريم تموت على الخشبة. لابد وأن يكون شيء يشبه الكابوس. ربما كانت الإغفاءة الّتي لا نعرف مداها.

لم أقتنع بحالة الموت، إلا عندما بدأت مجموعة من الأطباء والمساعدين من الممرضين والممرضات، ينزعون من أنفها الأنابيب والخيوط الكثيرة. تكور لساني في فمي مثل الكرة المرة الّتي صعب علي ابتلاعها. كانت يدها اليسرى ما تزال في يدي. أشعر بدفئها حتّى الآن. لم أتخيل مطلقاً أنها يدٌ ميتة، سرقتها رصاصة «وطنية»... سمعت طقطقة المسجلة وهي تتوقف نهائياً، ومعها ينتهي أنين شهرزاد. عيناها ظلتا مرتشقتين في السقف الأبيض بكثير من الاحتجاج. مد صديقي الفلسطيني يده إليهما. أغلقهما بهدوء. قبلتهما. بدأت أقتنع أن شيئاً يشبه الموت قد احتل جسد مريم. حتّى تلك اللحظة، كنت ماأزال أحاول أن أقنع نفسي أن ما حدث لا يعدو أن يكون كابوساً سأحكيه لمريم عندما تعود إلى وعيها وتستيقظ من إغفاءتها. وستضحك مني بصوت عالٍ مثلما تعودت، كلما أزالت النقاب عن حماقتي.

ـ ما تخافش. عمر الشقي باقي. ماراحش أموت بسهولة..

صديقي الفلسطيني كان متأثراً، ومع ذلك بذل مجهوداً كبيراً لإبعادي عن كآبة اللحظة.

ـ واش تحب. هذه هي الدنيا. قلبك كبير.

وضعت رأسي على صدرها. خيل لي أني أسمع دقات قلبها. ثمَّ أقنعت نفسي بأن الأطباء ليسوا مجانين. ماذا يعني أن تعشق امرأة، تعرف أنها مصرة على حقها في الموت منذ البداية. هل أقول إنها انتحرت؟؟ هل أقول إنها ماتت؟؟ هل أقول إنها قتلت؟؟! هل أقول إنها كانت ممتلئة بالحياة؟؟ هل أصمت وأتأمل قلبي المحزون عندما يصبح الصمت بلاغة العاشق القصوى؟

عاد الطبيب العجوز ليخبر صديقي الفلسطيني.

ـ أخبرنا أهلها. سيأتون بعد قليل.

عند الباب وأنا أخرج من القاعة البيضاء الّتي تحول لونها إلى موت، وقف معي صديقي الطبيب الفلسطيني قليلاً عند المدخل من غير أن يتكلم. شعرت بالبرد. كان الليل قد بدأ يهبط، والهواء البحري، بدأ يأتي محملاً بالنسمات الباردة ورطوبة البحر الّذي لم يكن بعيداً، كانت ساحة المستشفى واسعة، وأصوات سيارات الإسعاف كانت هي الوحيدة الّتي تمزق هذا الصمت الّذي يأكل الداخل. كنت أتمنى من أعماقي أن أصرخ بأعلى صوتي، أن أبكي بأقصى حزني، لكنني شعرت بعجزي الكبير. ثمة أصوات كثيرة تطمس الآن ملامحها، وتخنق داخل هذه المدينة.

ثمة أشياء تموت بسرعة مدهشة.

ثمة خوف يصعب علينا أن نتآلف معه.

ثمة حزن يجرح بتجدده الدائم.

أيقظني صديقي الفلسطيني، عندما ضرب على كتفي، يحاول تشجيعي.

ـ خلِّ قلبك واسعاً. على الأقل رأيتها وحدثتها قبل أن تموت. كانت تحبك.

ـ محزن أن يموت الإنسان في هذه السن وهو مليء بالحياة.

ـ واش تحب. الموت أعمى.

ـ ... ...

لم أجبه. شيء ما كان يدفعني إلى البقاء وحيداً، استأذنت منه، قبل أن أغادره، سمعت كلماته الطيبة وهي تتبعني:

ـ سأتكفل بكل الإجراءات الإدارية. سأزورك غداً إن شاء الله.

نزلت الأدراج بصعوبة كبيرة. تدحرجت قليلاً داخل الساحة، بصعوبة.

كانت الريح قد بدأت تزداد قوتها والصمت المقلق يزداد اتساعاً، والفضاءات تضيق لدرجة الخوف. لم أكن أعرف أين سأذهب، ولكن مؤكد، هو أني كنت مصمماً على مغادرة المكان بأقصى سرعة ممكنة وأحاول أن أنسى ما رأيته وأبحث عن إغفاءة ما خارج هذا المستشفى الواسع، تجعل من الفاجعة كابوساً فقط.

عند الباب الواسع الّذي تدخل منه سيارات الإسعاف عادة، تذكرت صديقتي الشاعرة «صافية كتّو» الّتي قتلتها المدينة، فرمت نفسها من أعلى قمة في جسر «تليملي» الّذي يربط أسفل المدينة بمرتفعاتها. لم أعلق كثيراً، ولكني تركت جسدي ينزلق عبر الشوارع الّتي بدأت برك الماء تتجمع فيها وأسترق السمع إلى صوت «غفّور»[1] الّذي كان ينبعث من البار ـ المقهى، المقابل للمستشفى، بشكل محزن وجنائزي...

«أَنَا مَجْفَاكْ كَاوِيْتْنِي،

آ وَلْفِي مَرْيَمْ،

كِيفْ الحَالْ يَا البَاهيَهْ!...

بْذِيكْ النَّظْرَة البَاشرهْ

حَيّيني من ثَمْ.

آ ولفيَ مَريَمْ...

(1) أحد روّاد الأغنية الأندلسيّة بالجزائر.

XI

نهايات المطاف

شيء ما في المدينة انكسر بقوّة وسقط منِ علوّ شاهق.

الآن يحق لي أن أتنفّس بعمق بعد أن حرثت شوارع المدينة وأزقّتها. ملأت صدري بهواء البحر الرطب الّذي كان يصعد باتّجاه مرتفعات المدينة بثقل كبير. لقد صرت قريباً جدّاً من جسر «تليملي». عجيب هذا الولع الفجائي بالجسر، ربّما لأنّه يربط بشكل وهمّي النّاس اللّي تحت بالنّاس اللي فوق، في المرتفعات. ربّما لا معنى لهذا الولع لكن شيئاً ما يقودني بهذا الاتّجاه بشكل انتحاري. ربّما لأنّ الموت الّذي أخذ شاعرة هذه المدينة صفيّة يأخذ الآن على حين غفلة ضوء هذه المدينة، مريم!!

بحثت عمّا تبقّى في داخلي. كانت أشواقي تهاجر صوب المدن البعيدة الّتي لم أنس أحزانها وصمتها ووجهكِ البعيد، المتوزّع على الأرصفة وأسقف البنايات القديمة، الأسقف القرميديّة الآجريّة. تذكّرني الآن بأجمل المدن الّتي نشبت أظافرها داخل قلبي بعنف العاشق الخائف. الآن! الآن! ماذا يحدث الآن، في هذا الدّاخل الّذي تحوّل إلى شكل يشبه الرّماد، وسط هذا الصّمت المحزن الّذي يلفّني مثل الضّباب البحري في داخله، لا أسمع سوى صوت السّيارات المتقطّع الّتي تمرّ مسرعة على مياه الأمطار المسائيّة الّتي نامت

باستكانة على الطرقات الأسفلتيّة. السّاعة الآن تجاوزتْ منتصف اللّيل. الرحلة من المستشفى إلى هذا المكان كانت متعبة. بعض النّوافذ تُفتح وتُغلق وبعضها الآخر لم يُفتح أبداً. كأنّها مُسَمَّرَة من الدّاخل. ووجهك البعيد. البعيد بين تجاويف الذّاكرة وَرَعْدَة الموت. يقتحمني، يأتيني مثل الشّهب الناريّة ليُؤَكّد لي عن فاجعة القلب المتعب. يأتيني متعطّشاً، يأخذ نفساً من نسائم البحر وصمت المدينة المتواطئ، ثمَّ يختبئ داخل المعطف الخشن. يشرب كأساً ثمَّ ينزل إلى فضاءات المدينة الخالية. هل جرّب أحدكم هذه المتعة؟ كأس نبيذ في الشّتاء القاسي وتأمّل المدينة من وراء الزّجاج المندّى، ثمَّ الخروج إلى دروب المدينة الخلفيّة الّتي لا تملك إلا فرحها الصّغير وبعض أحزانها الضّائعة.

تنام البيوت. تقلّ حركة السيّارات، ويزداد المطر وأنت تنأين كالنجمة البحريّة، لكن ظلّك يملأ المكان.

من يتأمّل هذه المدينة من بعيد، يشعر بروعتها، ومن يقترب منها يشعر بمأساتها. النّاس فيها صاروا مثل الدّود الملوّن. الكلام يتكاثر، والأدخنة تتزايد. أشعر أحياناً بأنّي بدأت أتخلّى عن الفارس الّذي ينام في قلبي. شيءٌ ما في هذا الخلاء يتحوّل إلى عويل وإلى نحيب. هل أصرخ بأعلى صوتي؟ هذا سلاحي، أنا المحارب المرهق وهذا حبّي الكبير الّذي لا يستسلم للموت المجّاني. لكن الفارس في داخلي يحتضر. وهذه مريم، نوّارة القلب، لها اللّهب المقدّس حين يصعد من أعمدة الصنوبر الوهّاج، ويلتهم جسدي، لها الرّعشة إذ تأتي متأخّرة حينما يصعد الدّم إلى القلب مثل النّار، ألم أقل لك يامريم؟ العصافير، والبحر ونبيذ هذه المدينة الّتي تعشق عريها، خسرناها أو بدأنا نشتاق إلى حضورها الّذي صار حلماً. كلّ شيء بدأ ينطفئ. كنتِ تمشين عبر امتدادات السكك الحديديّة، خارج المدينة، تحاولين أن تتوازني على السّكة. قلتِ: يجب أن نسافر لنغيّر الهواء وإلا سنُختنق مثل العصافير.

تنتابني الرّغبة القصوى للنّوم، لكن قلبي يؤلمني، ووجهك

البعيد، البعيد يؤرقني، لأنّك في ساعة متأخّرة. من ليلة متأخّرة، في زمن متأخّر جدّاً، لم تَعْلَمِي ماذا تفعلين؟ سوى الإحساس بالفراغ والبياض الّذي يمتدّ كالظلّ في داخلك وسط مدينة متوحّدة مع آلامها تتعدّد ألوان أسقفها بين الآجرّي واللّون الأخضر العتيق.

أعرف الآن لماذا كان لباسك ربيعيّاً!

أعرف الآن، لماذا كان لون قلادتك آجُرِّيّاً!

أعرف لماذا تكتئبين تماماً مثلما تكتئب المدينة المفجوعة في أحبّتها!

قلتِ وأنت تستمعين إلى دقّات قلبك الّتي بدأت تغيب وسط هذا الخراب المقنّن: يجب أن نحزن يا حبيبي حتّى نملك جرأة القول ثمَّ ننام بشوق. تصوّري، يا مريم، يا حزن الآتين، كنّا حينما نتعب، في زمن المدن المنقرضة، نخرج إلى الأرصفة، والأزقّة، نمشي ولانَسْأَلُ ولا نُسْأَلْ. ندخل الأحياء الشّعبيّة، نأكل البُروشِيتْ[1]، والرُّوْز، والبطاطا المقليّة، ثمَّ نخرُج، نتحدّث في السّياسة وآلام النّاس والجامعة، نمرّ عند عمّي الحمامصي، نأكل سمكاً جديداً. ثمَّ نمشي. ندخل البحر مع عمّي مُوحْ الصيّاد. ثمَّ نمشي بدون توقّف. اليد في اليد والجنون يملأ العينين. تعجبني السحابات الّتي في السّماء. خيط من اللّهب يملأ الآن قلبي. يذوّب جسدي من الداخل. عليّ الآن أن أُقنع نفسي بأنّ وجهك الغائب وبأنّك مازلتِ هنا وأنّي ممتلئ بك مثل هذه المدينة، وأنّك مازلتِ في القلب والذاكرة. وهاأنذا أفتح الباب على مصراعيه وأنتظر النّسمة البحريّة الأولى، أقطفها لأضعها داخل عينيك الزرقاوين، ولأسكر بعدها بوجهك الخمريّ وبوجه المدينة.

كان الصّعود باتّجاه المرتفعات مرهقاً. وجسر «تليملي» لم يَعُدْ بعيداً ولا مستحيلاً. الأمطار كانت قويّة. إنّها أمطار أخريات الشتاء.

(1) اللّحوم والأرز.

سعادة مفجعة أن نموت تحت المطر. أن نلفظ الأنفاس الأخيرة والعيون ممتلئة بالثلج.

أشعر بأنّ هذا اليوم هو أكثر الأيّام كآبة وحزناً. الشّوارع مغلقة. الوجوه جامدة، تتأمّل الموت بهدوء وببطءٍ. العيون الّتي كانت ترمش للغادي والرّائح زهواً، بدأت تتضاءل وتغور في أعماق المحاجر. أحياناً أصبح مثل الطّفل الصّغير، أحلم أن أنام دهراً وعندما أستيقظ أجد كلّ الفضاءات قد صارت بيضاء مثل الحليب، مبلّلة بالفرح. تضع على رأسها النوّار، وعباد الشّمس والطّيور قد تجلّلت بالخضرة. أتمنّى أن أرى البحر الّذي غادر موجه وشواطئه، فهو يحنّ إلى العودة إليها وتقبيلها. أتمنّى أن تعود العيون الحزينة إلى محاجرها، لكن شيئاً ما يشبه اليأس يدفعني إلى أن أنام ولاأستيقظ. مريم نامت ولم تعد تأتي. هل هو الكابوس الّذي يأكل، ويتآكل من الدّاخل؟ ما معنى أن تندفع مثل الشّهب الحارقة داخل غيمة بيضاء وتخترقها بعنف حتّى تنزل أمطارها داخل هذه القحط المتصحّر؟

من يلمس ما في داخل هذا القلب الّذي تعذّبه الكآبة؟ الله؟ أوف يا ابن أمّي أشعر أنّ الله تخلّى عنّا. إنّنا نعود بسرعة ضوئيّة إلى بدائيّتنا الأولى؟ مثل السرّ الدّفين تعودين من جنازات الجمعة الحزينة، ثمّ تغيبين بغموضك.

مريم، يا شهد النّحل وياسمين القرى البعيدة!

مريم يا شجرة الأحزان والألوان!

إنّي أموت أو سأموت في وقت قريب، وعليّ أن أظلّ واقفاً مثل شجرة الخرّوب الوحيدة في هذا القفر، وأموت بقوّة، حتّى أتحمّل دغدغات الدّود والحشرات الترابيّة الّتي تتوالد عند الأقدام وتأكل الأشياء الصّفراء الّتي تحدث ثقوبها في الجسد. هذه المدينة بُنيتْ لتكون جميلة ولكنّها أصبحت وسط هذا الخلاء وساعات القفر، تعيش وحيدة ساعات الخوف والاحتضار.

مريم!! ما أبهجك!! وأنا صغير داخل آلامك الكثيرة. إنّي متعب. دعيني أنام. أريد أن أغفو إغفاءة المتصوّف الحزين الّذي لم يعد يرى إلا أوجه الصّحابة الأجلاء. قلتِ، أحبّك عليك أن تظلّ يقظاً. لَنَا كُلُّ الموت لِنَنَام. يجب أن تظلّ هنا واقفاً مثل «القَصْبَة» تقاوم عنف الرّياح. تَعالَ أيّها الرّجل الصّغير الّذي يتعنّت مع ألوانه وموسيقاه، وصوره الحائطيّة الكثيرة، ولوحاته، تعالَ. لا تيأس! شيءٌ ما يصعب تدجينه ينام داخل قلبك. مريم! يا ملجأ المحزونين، وعود النّوار، وحبق الحدائق الشّعبيّة والنّوافذ نصف المغلقة في الأحياء الفقيرة، متعبٌ أنا، وحياتك متعب حتّى القلب. إنّي أغفو وسط الأتربة في بلاد لا شيء يدلّني بأنّي ابنها المدلّل. ابنها الرّيفيّ الطيّب. هل تسمعين الأشياء الثمينة الّتي تتكسرّ الآن بحزن كبير في الدّاخل؟ هل تسمعين الخراب الّذي ينشب أظافره في الداخل؟؟ أوف يا سيّدي. لا جديد! لقد تعوّدنا على الكسور. تقولينها بكآبة لا مبالية ثمَّ تنسحبين باتّجاه أسطوانات الأغاني والأشرطة، وتبدئين بحثك الدؤوب. تعالَ؟ تعالَ أيّها الرّجل الصّغير. تعالَ. الرّقصة الأخيرة ستكون عظيمة، وسأكون مدهشة بين ذراعيك. من يعلم؟! قد تصير هذه الرّقصة غداً جرماً كبيراً، وإثماً يعاقب عليه القانون. تعالَ ولا تفكّر. اترك البقيّة للغد الّذي لا نعرف مطلقاً كيف سيكون. بلى! سيكون محزناً جدّاً وكئيباً. ووحيداً. ولكنّكِ؛ مريم، ابنة الرّجل الطّيب الّذي نسمع عنه ولا نعرف عنه شيئاً، ها أنتِ تخرجين من هذه الدّنيا، رافعة يديك على رأسك، تبحثين عن برودة مقلقة، وفي جسدك الحيّ أشياء كثيرة، عن رقصة عشْتِها بعمق ولم ترقصيها إلا لي ولصديقتك أَنَاطُولْيَا. قلتِ وأنتِ تبحثين عن تفسير للغموض الّذي يطوّقك من رأسك إلى أخمص قدميك. أَفْضَل! من يعلم؟؟ ربّما سأموت قبل أن أملأ قلبي بألوان شهرزاد! لا قلب لي في هذا القفر سواك. وأنْتِ هي أنتِ. قلبك ممتلئ بالأضواء والأنوار. بعيدة. تبتعدين أكثر. الظّلال تتوسّع بداخلي وتمتدّ، تمتدّ أكثر فأكثر بسعة الحنين. لا تخرجْ!! أرجوك لا تخرجْ. ابقَ قليلاً. أريدك أن تكونَ معي الآن. قلتِ، بقلب بدأ يخفت مثل

الضّباب، ابقَ من أجلي. وبقيتُ. وها أنا ذا أتمدّد عبر هذا الشّارع الخالي، مثل الفقر، وأطالبك بالبقاء من أجلي، لكنّك لا تسمعين. تسحبك برودة المدافن البعيدة والبياض الّذي لم يعد يلوّن المستشفى ولكنّه صار يلوّن الذّاكرة.

مريم.. يا حزني المنسيّ. اخرجي من قبر البرودة وعودي إلى مياهك العذبة!

مرْيم.. يا صوتي المكتوم منذ الطفولة الأولى! صراخك يملؤني ولون عينيك يستفزّ سخافات هذه المدينة.

مريم.. اتركي الغيمة الجافّة الّتي طافت عبثاً كلّ السّماوات، وعودي إلى غيمتنا البنفسجيّة. عودي إلى حنينك الّذي لم ينتهِ. إلى وجهك المسروق على حين غفلة. عودي إلى التّربة الّتي تقدّسك وغادري التّربة الّتي تأكل جسدك. فضاؤك واسع سعة هذه الدّنيا الّتي يمكن أن تغيّر قيامتها. عودي إلى الرّقصة الّتي بقيت في جسدك ودمك.

مريم.. يا شوقي المطلق! لماذا كلّ هذا الصّمت يا ابنة أمّي؟ إذن دعيني أنام فأنا متعبٌ للغاية، والسّماء قد فرغت من زرقتها. بيننا الآن، ثلج صار يشبه قيامة الدّنيا. «لا شيء.. لا شيء».

من قال لا شيء؟ من أين يأتي هذا الصّوت الحزين؟

أوف. رأسك غليظ كحجر الوديان الجافّة! تفطّن يا هذا المنهك، المنتهك في عمقه! تفطّن! أنت الآن رجل متعب. يتمترس في أحد شوارع المدينة كإشارة مرور فقدت معناها. بين البنايات، في الأحياء العليا. ومريم صارت قطعة ثلج في برّاد لا يعرف إلا استقبال الجثث.

آخ يا أمّي البعيدة عنّي. أريد أن أعود إليك. إلى رحمك المتعب من كثرة الولادات الميّتة. وأضع رأسي على الوسادة. متعب أنا أريد

أن أنام وأغفو لحظة، وبعدها لأتدحرج بقوّة، وسط هذا الفراغ المهول.

نفضت رأسي قليلاً من ثقل شعرت به ينزل فجأة عليّ. رأيت البحر يركض هارباً من زحف المدينة، والمدينة تمضي ولا تتراجع أبداً. الشّوارع، من هذا المرتفع، تبدو واضحة وطويلة. لكنّ البنايات، كلّما اقتربت من البحر، اشتدّ تزاحمها. على الجهة اليمنى، بقايا الكنيسة الكبيرة الّتي حُطّمت جدرانها وحوّلت إلى مسجد يفتقد أيّة هندسة. كانت تحفة سياحيّة رائعة، لكن شيئاً من البداوة كان حاضراً يوم إبادتها. ثمّ الرّافعات. دائماً الرّافعات المصدّأة، الّتي تبدو من بعيد، تحت الأضواء ككائنات خرافيّة، وهي تصعد وتنزل في البحر. تتطاول باتّجاه سماء لم تعد عالية بالشّكل الكافي، ثمّ تغوص في أعماق السّفن الراسية منذ أيّام طويلة، لتفريغ حمولتها. ومصنع الفوسفات المختبئ بجانب البنايات القديمة، كان يقذف بأدخنته الملوّنة الدّاكنة بدون توقّف. يبدو أن التّخريب المُقنّن للمدينة، شُرع فيه منذ زمن بعيد.

كم هو قصير هذا الزّمن وذاكرته لا ترى أكثر من حاضرها!

تتدفّق مريم داخل قلبي بكثير من العذوبة. لكنّها تمضي بسرعة.

جئنا على طريق البحر، وجدنا أنفسنا فجأة في عمق المدينة.

جئنا على طريق الجبل، غزت قلوبنا المدينة.

وها نحن الآن نتأمّل دهشتنا بالكثير من العنفوان الطّفوليّ. كلّ شيء يعيد إلى الذّاكرة الأولى أشواقها. قلتِ هه!!؟! عيناكِ مرتشقتان في فضاء واسع بدأ يضيق. يا سيّدي.. من سيدي بلعبّاس.. لوهران.. مغنّية.. تلمسان.. كم مرّة ركبت القطارات القديمة ونمت بين الألواح، مأخوذة بصمت الأشياء، وبالمشاهد الّتي اندثرت! كم مرّة شهقت في المحطّات، وأنا طفلة أودّع باكية، الأعزّاء على حافّة السكك الحديديّة أو جثث الذين نحبّهم ونرسلهم إلى البلدة، فهم يريدون أن يُدفنوا في قراهم، بين أحبابهم...

وماذا بعد؟!

أراكِ الآن في المحطّة القديمة الّتي كانت تندفن بعياء داخل مجموعة من البنايات المقابلة للبحر، الّتي تآكلت بقوّة. أراكِ الآن تودّعين عزيزاً يشبهني. لم يغفُ لحظة واحدة ليلة سفره. عيناه حمراوان من اليقظة. هدوء هذه المحطّة القديمة لا يورث إلا الذكريات الّتي لا تنتهي. سأطالب الآن هذه المحطّة أن تعيدك إليّ، أن تدخل قلبي بقطاراتها ولنهرب من صدأ الرافعات وندخل الغيمة البنفسجيّة الّتي عشقناها.

عليّ الآن أن أدقّ. أدقّ. وأدقّ بكلّ قوّة هذه الأبواب الموصدة. فالله ينتظرني عند البوّابات الواسعة للنزول إلى أعماق الأشياء المجهولة ويؤنّبني. لماذا تركتك تذهبين، تلك اللّيلة؟ كان يجب أن تحترقي على صدري، وتتلاشي كالغيمة.

كم هو محزن أن يستعيد الإنسان ألق الأشياء الآفلة في مدينة بعيدة!

مدينة الرافعات والمصانع الّتي تتزاحم ببناياتها المتعدّدة الّتي تتراكض الآن باتّجاه البحر.

الطّريق يزداد طولاً وأشعر الآن بثقل هذه المرتفعات الّتي تزداد انحناءً كلّما صعدنا. ابن الكلب. حرّاس النّوايا.. كانت الضربة للرأس قويّة قبل أن أُدفن حيّاً في مزبلة كبيرة... وجع الرأس بدأ يتحوّل إلى إنهاك جديد، يصعب تحمّله..

ليَطُل الطّريق.. ليتمدّد مثل خطّ القيامة.. ليس مهمّاً.

لأحزَن عنك حتّى ينفتح جرح القلب عن آخره. ليس مهمّاً.

لأحزم أمتعتي وأنفاسي وأسافر. ليس مهمّاً.

لأخرج بأسرع ما يمكن من فضاء هذه المدينة.. ليس مهمّاً.

أريد فقط في لحظة من اللّحظات، الّتي لا ذاكرة لها، ولا نهاية، أن أعود إلى البيت. أن أراك. أعدك أنّي لن أكلّمك. لن أحزنك. لن أكون وصيّاً تعيساً. سأضع قدمي على قلبي وأضغط بعنف شديد

حتّى يتكسّر هذا القلب الزجاجيّ الشفّاف. أحمل ألبستي المبعثرة. سروالي. حذائي. معطفي الصوفي الخشن. بعض الكتب والأشرطة. بعض الأوراق. بعض ألوان الأيّام الماضية. الحيطان. السماء. الأشياء المعلّقة هنا وهناك. أملأ عيني بك للمرّة الأخيرة، جوعي كبير إليك أيّتها المرأة المدهشة. قامتك الممتدّة حتّى مدخل البيت. انكسارات دمعاتك. أتأمّل الآن طولك وأضع قبلة بين عينيك البحريّتين وصفاء دموعك...

ثمَّ.. ثمَّ.. ثمَّ انطفِئُ على صدرك مثل نجمة الرعيان.

تسأليني: إلى أين أيّها الرّجل الصّغير؟ ينكسر الجواب في داخلي. إليك يا نجمة الفجر. هل سأتحدّث عن الجنون عندما يحين وقته؟ ربّما كنت الآن أعيش وقته. إنّه الجنون العظيم الّذي سرق مريم. إنّه انتحار العاشق الّذي حيّره سؤال القلب.

- وَاشْ بِكْ يَا رَجَلْ؟ راكْ تْعِيشْ جَنَازَة؟

ألتَفِتُ بسرعة صوب الصوت. أيّ صوت؟ كان الألم يأتي من داخلي.

أين أنا الآن بالضبط داخل رحلة المدينة؟

هاه.. لقد وصلتُ. Eurreka!! Eurreka!! Ok.. وجدتها!.. وجدتها!. أقف على متّكأ جسر «تليملي» الحديديّ. العالي جدّاً. أتأمّل الفراغ الّذي يملأ المدينة من تحت.

كانت المدينة قد بدأت تتخفّى داخل حبّة مطر مثقلة بالأتربة الصحراويّة والأنوار الباهتة. يأتي صوت فيروز من قريب. ينبعث من نافذة في أعلى البناية. المؤكّد أنّها طالبة تعيش داخل فضاءات وحدتها.

... اليوم عُلّقَ على خشبة

الّذي علّق الأرض على المياه (...).

الّذي وشّح السماء بالغيوم.

وابن العذراء طُعن بحربة.

شيءٌ ما حادّ كالشفرة، أقطع من الشعرة وأحزن من الدمعة، كان يمزّق الداخل بقوّة، ومع ذلك شعرت في لحظة من اللّحظات بقدر من الانتشاء، عندما وصلت إلى جسر تليملي، الّذي قادني إليه شيء غامض مثل الدهشة. لم يكن مبرمجاً عندما غادرت مستشفى مصطفى باشا. كان المطر قد بدأ يخفّ. هو ذا المطر الّذي أحبّه وصارت تحبّه مريم. إنّه يعمّق الإحساس بالفاجعة ويدفع إلى عيش المأساة في عمقها. أكره الحرارة. الغبار. الصيف. الجفاف. العرق المجّاني. كلّها علامات تذكّرني ببدايات عصر حرّاس النوايا الّذين لاينبتون إلا داخل تجاويف الفراغات الساخنة. يأتون دائماً مع الرياح الصحراويّة الجافّة.

رأسي كان مايزال مليئاً بالضباب والألوان الّتي تشوّهت داخل هذه الفراغات المقلقة. هل بقي للأغاني سحرٌ في هذه المدينة؟ هل بقي للألم معنى؟ للوحدة من تشوّق إبداعي؟ في لحظة من اللّحظات تمنيّت أن يتوقّف المطر. لم أستطع تحمّل فظاعة الأشياء. ملأتني صورة مريم وأنا أتأمّل فراغات الجسر العالي وأتحسّس رأسي من ضربة حرّاس النّوايا وشتائمهم. يا ولد القحبة؟ واش هذا الربّاني اللّي جِبْتُوهْ لي؟ أستاذ الفنّ والفسق والخلاعة! الطحّان!! شيوعي..

كانت الأضواء تتكسّر على الإسفلت والحفر الّتي امتلأت ماءً. لأوّل مرّة انتبه إلى نفسي. بدأت أتحسّس جسدي. الضربة في الرأس خلّفت انتفاخاً كبيراً بحجم حبّة بطاطا. يد لا ترحم. الله يلعن والديها. تأكل البَنِي آدم حيّاً. إنّهم هكذا. حرّاس النّوايا. يأتيك أحدهم وهو لا يعرفك مطلقاً يسمع عنك في أحسن الأحوال، لا يكلّف نفسه حتّى بجمع المعلومات كما كان يفعل بنو كلبون سابقاً. يأتيك، يفاجئك مثل الدودة.. هاه!! هاه!! يا ولد الحرام! أنت اللّي قالوا عليك بلّي شيوعي؟ وملحد؟ وعلماني؟ وتبدأ الصفات تنزل عليك الواحدة

تلو الأخرى كالصاعقة. ولا تهمّ مطلقاً إجاباتك ومحاولاتك لتبرئة نفسك، لأنّ الحكم يكون قد صدر فيك ويُطبّق عليك شرع الله! وتتساءل: أهذا هو شرعك يا الله؟! عندما تمتلئ المدينة بالذئاب والتوحّش وينسحب الأنبياء، الأتقياء، بعيداً، بعيداً إلى مدارات التصوّف والحنين والبكاء. البكاء الّذي يتحوّل بسرعة إلى عويل وعواء؟

تأمّلت نفسي من جديد. شيءٌ ما يسير بشكل غير طبيعي.

كه.. كه.. بربّك أنتَ أستاذ جامعي؟! وكاتب؟ وعاشق للفن الكلاسيكي؟ يا رجل يكفي من النكت. أنتَ لا شيء في هذا الفضاء المؤكسد. حرّاس النّوايا كانوا محقّين عندما قالوا لك، يكفي من الفستي (الكذب). أستاذ الزفت. لا شيء فيك يثبت هويتك الّتي لم يسأل عنها حتّى حرّاس النّوايا. ما معنى الهويّة في وطن ليس لك؟ يا رجل مَزِّقْ رَبّهَا وريَّحْ.

كان الزيت المغلي قد بدأ يملأ رأسي. أخرجتها. تأمّلتها مليّاً بخضرتها الباهتة الّتي لا تورث إحساساً كبيراً بالوطنيّة. ثمَّ كتابتها العريضة بطاقة التعريف الوطنيّة عدد ز/رقم 124170 قلبتها. الصورة القديمة وبصمة الأصبع اليسار العريضة. مزّقتها ثمَّ أكلتها مثلما كنت في طفولتي ألوك الخبز اليابس حتّى وصلت إلى بصمة الأصبع اليسار. تأمّلتها ثمَّ أكلتها هي بدورها. يرحم والديك واش بقى فيك؟ شعرك الملفلف الّذي كانت تعشقه مريم؟ مريم ذهبتْ؟ أنفك التهب ومخاطك يسيل بكثافة. رأسك صار غليظاً مثل الكَابُويا. لباسك تقطّع، وتمزّق من شدّة سحبة حراس النّوايا العنيفة. تمزّق حتّى القميص. كلّ شاعريّتك ذهبت مع الوادي يا ولد النّاس الطّيبين. حذاؤك تآكل بفعل سقوط الأمطار الكثيفة. الفردة اليمنى ذهبت قاعدتها. عندما رفعت رجلك كانت دامية جدّاً ومجروحة. مسستها. لم تشعر بأيّ ألم. كان لحمك ميّتاً. بدأت تتحوّل إلى جيفة. عليك أن تموت أيّها الرّجل الصغير وأنت في صفائك قبل أن تتفسّخ. سروالك التصق بجسدك. ماذا تبقّى فيك ممّا يجعلك مواطناً صالحاً، وأستاذاً

جامعيّاً؟ لا شيء سوى هاتين النّظارتين اللّتين تجعلان منك مثقّفاً! مثقّف؟ وَاشْ هذا الكلام الفارغ؟؟ يَلْعَنْ دِينْ بُوهَا صنعة! لقد طلقّتُ كلّ شيء ووضعته تحت حذائي وسأنتحر معه. ها هي النظّارات تتكسّر تحت الحذاء. أسمع الخرخشة كأنّي أطأ صُدْفَةً على حلزون ضائع في طريقٍ أسفلتي. معطفك؟ نزعته وهممت بإلقائه من أعالي الجسر. فجأة اجتاحني نور مريم وهي تمدّ يدها وتصرخ! لا. لا! أيّها الرّجل الصغير! هذا ليس لك. ليس ملكك. هو لأبيك. المعطف الخشن ملكي. كانت تحبّه بعنف. شيء ما في داخلها كان يدفعها نحو أبي الّذي لم أعرفه كثيراً ولم تعرفه مطلقاً. وضعته على المقبض الحديديّ للجسر. كان مثقلاً بمياه الأمطار الّتي عادت إلى التساقط من جديد. ماذا بقي فيك إذن؟ حبّك للفنّ؟ الذاكرة؟ هذا الكهف المخيف الّذي يثقلك، كيف تخرج منه أو تُخرج أثقاله باتّجاه هذه القمامة الّتي تملؤك؟ هل هي الهستيريا؟ هل هو الكابوس الّذي ظلّ يملؤك منذ زمن بعيد؟ ماذا بقي فيك أيّها المسكين؟ أشياء كثيرة، صارت تبعدك الآن عن وطنك. أيّ وطن يا رجل؟ أنت من رعاية هذا البلد، لم تملك بعد حقّ المواطنة. غريب في وطن سُحب من عينيك بعنف شديد. مَنْ تكون؟ رموك في مزبلة في نهاية المطاف. شحنوك في أوّل سيّارة بلديّة مخصّصة لجمع القمامة ثمّ رموك مثل الأشياء المستهلكة في مزبلة الأحياء الفقيرة. كنت بين الدوخة والدوخة، تستنشق كلّ وساخات الدّنيا. كانت الروائح كريهة جدّاً. عندما فتحت عينيك حاولت أن تنهض بصعوبة شديدة ولولا السكّير، صاحب المزبلة، الّذي جرّك إلى حافّة البحر، لشنقت ودلّك على الموج الّذي لم يمت في هذه المدينة. ماذا تساوي في هذا البلد؟ أيّها الأستاذ والكاتب المحترم! المتخرّج من المدرسة العليا للفنون الجميلة بإيطاليا. دكتوراه دوليّة. تخصّص تاريخ الفن الكلاسيكي. خمس سنوات للحصول على معادلة الشهادات. قلتَ: ليكن. هذا وطني ولا خيار لي سواه. سأقاوم. وقاومتَ. شرّفتَ البلد في العديد من المناسبات الدوليّة. كرّمك رئيس الجمهوريّة، قلتَ يومها، لن أذهب. كاتب ياسين

في المنفى. وخدّة مطارد. والسينمائي ابن إبراهيم في السجن. أكبر تكريم، أن يعاد للثقافة وجودها الحقيقي. كنتَ تحلم وتمارس رومانسيّتك الخاصّة المليئة بالأحزان. ماذا بقي فيك؟ هل نسيت شيئاً من بطولاتك لم تذكُرْهُ؟ الدولة خسرت عليك ألوف الدولارات. صُرِفَتْ لتكوينك كأيّ استثمار وطني. قالوا لك لماذا لم تبقَ هناك في بلاد النّور؟ قلتَ وطني، وقتها كان قريباً من قلبي. قلتَ سأعود. كنتَ سعيداً حتّى وأنتَ تواجه متاعب الجمارك الّتي تجد لذّة في إتعابك عندما تكون حقائبك فارغة.

مرّة أخرى، تأمّلتَ هذا الجسد المنهك من كثرة العبور والسير والصعود والنزول. بدوت لنفسك محزناً جدّاً. هل بقي فيك شيء يوحي بأنّك متخرّج من جامعة متخصّصة؟ يا ولد الحرام تتهرّب. المحفظة الجلديّة السوداء. أَرْوَاحْ لَهْنَا يا وَلْدْ الّذِين.. حاولت أن ترميها من أعلى الجسر. قلتَ في سِتّيْنْ داهية. لكنّك فجأة تذكّرت روايتك الأخيرة.. مسكينة!! مخطوطة لم تنته من إنجازها منذ سنوات عديدة. قلتَ، هذه عزيزة عليّ. فيها الكثير من جنونيّاتي وحماقاتي وأنين مريم. أخرجتَ المخطوطة. صعد في إثرها جواز سفرك. الباسبور لخضر.

«.. دَرْتْ البَاسْبُورْ لَخْضَرْ

وُقُلْتْ أَنَا ذِي خْيَار الحَيَاة».

لم تتأمّله كثيراً. بَدَأتَ تُرَيِّش أوراقه مثل دجاجة خضراء. نزعت ورقته الأولى بصورتك الملوّنة. ثمّ الورقة الثانية والثالثة، بعدها صار جوازك مثل كرّاس مدرسي لطفل بليد. دحرجته من فوق. سمعت صوته وهو يرتطم بالوحل بقوّة شديدة. لا وطن لي. وطني الوحيد داخل قلبي ولون عينيك.

عندما بدأت أرجع إلى نفسي، كانت كلّ وثائقي تنام في أسفل جسر تليملي. لقد صرت بدون شيء يثبت وجودي. أساساً كانت هذه القيامة الّتي أحياها قد سحبتني من وطني وألغتني. إمكانيّة العودة

والمصالحة مع المدينة صارت مستحيلة. لقد صفيّت حسابي نهائيّاً مع نفسي. أفكّر الآن في هذا الديناصور الّذي لم ينقرض. عليه أن يأكل نفسه قبل أن تأكله قيامة حرّاس النّوايا. سُأعرّي دِينْ أمّهْ!!

أوف.. ما أثقل هذا الرصاص المنصهر فوق القلب الّذي صار مثل كتلة حديديّة فقدت أيّ معنى عاطفي! هل أعلن الآن بشكل مطلق أنيّ انتهيت؟! أنيّ أخفقت في هذه الدّنيا؟ «عندما نريد نستطيع. Quand on veut, on peut».

من قال هذا الكلام البئيس؟ آه. أيّها الرّجل الصغير! يأكلك السواد المخيف. هل سبق لك أن أردت؟ وأردت بعمق؟ أردت بكلّ كيانك لدرجة أنّك عشت الحالة قبل حدوثها وفجأة استيقظتَ لتجد نفسك داخل كابوس أحمر، وتجد نفسك في مواجهة وجوه كالحة مليئة بالأفواه مثل الأفاعي الّتي تطلق النّار من مناخيرها؟ هل سبق لك أن شعرت بداخلك ناراً تحترق، بركاناً، زمهريراً يذوّبك مثل قطعة بلاستيكيّة، تبحث عن دمعة تطفئ بها هذه النيران، فلا تجد سوى بريق متحجّر في عينيك، وحرقة محزنة تأكل ما تبقّى من أفراحك الصغيرة؟ هل سبق لك أن جلست وحدك رغم اكتظاظ النّاس حولك تستمتع بموسيقى الفالس الأخير(1) ويأخذك خيالك إلى البعد البعيد لدرجة أن تصدّق أنّك تراقص حبيباً بكلّ عمق ، تستمع إلى أنفاسه المتقطّعة، فيبدأ العرق البارد يتصبّب على كامل جسدك ثمّ فجأة تُخرجك صرخة ما، من واقعك ولحظة الغفوة اللّذيذة، وتجد نفسك غائصاً حتّى الركب في بركة مليئة بالزبل والقذارات؟ أوف.. قلتِ.. يكفي من الافتراضات السوداء. افتح عينيك وقلبك قليلاً. لا تترك هذا اليوم يموت داخل الرخاوة. يا مريم! لقد مات هذا اليوم. وربّما يموت الغد وما بعده وقد أموت أنا داخل هذا التوجّس الكئيب. لكن قبل هذا، سأفترض كثيراً، ولكنّي بالرّغم من ذلك، سأظلّ أبحث عنك وسط هذا الزحام، وسط هذا الظلام وسنظلّ نقاوم هذا الإعصار

(1) La dernière valse

الجامح. أبحث عن كفك لأملأها بكفّي. عن ابتسامتك. عن حبّك. عن حنانك. عن الآمال المنكسرة، عن المصاعب الّتي لا تنتهي. أبحث عنك، وعندما لا نلتقي، أفتح الصندوق في أسفل البناية. أجد قصاصاتك الّتي تعوّدت عليها. أنزوي في مكانٍ خالٍ ثمّ أقرؤها خوفاً من عيون وهميّة تتأمّلني من زاويةٍ ما. إنّي أشعر بك، كما تشعرين أنتِ بهذا الديناصور الّذي لم ينقرض. قلتِ. خذني إلى صدرك. إنّي أشعر بالوحدة القاتلة تزحف بين تفاصيل هذا السرير الأبيض البارد. قلتُ ليكن. العالم كلّه، غير قادر على منعنا من الحلم. أحلامنا لنا وأشواقنا في القلب. ينزعون القلب ولا يمسّونها. ابْتَسِمْ. مَاتْتْكَرْفسْشِ(1) هكذا.!! هه.. وماذا بعد؟!

لا شيء سوى أنَّ الزمان كان يمرّ بسرعة كبيرة. شعرتُ في لحظة من اللّحظات بالدفءِ يصعد من صدري باتّجاه فمي وأنفي. آلام الرأس ازدادت حدّة ولم يعد ممكناً تحمّلها. الضربة كانت مسمومة تحمل في عمقها حقداً دفيناً. الآلام تتسّع لتشمل الجسد بكامله. النَّصّ الروائي. المخطوط. كان مايزال في يدي. أوف.. الأوراق.. الأوراق.. دائماً الأوراق.. عفواً مريم فقد كنت أحبّك وعندما أكتب أشعر بخجل كبير لأنّني أتعرّى أمام بياض الورقة وصفائها مثلما أتعرّى في حضرتك. فقد كنت أحبّك ومجنوناً بك مثلك. إنّي أتعرّى أمام شوارعي المسروقة. أمام هذه البنايات الهرمة الّتي أتعبتها إخفاقات السّنين، أتعرّى من هذا الوباء الّذي اسمه الذّاكرة. ليكن! الضربة كانت قاسية وتحمّلت وقعها، لكن موتك صعب عليّ ابتلاع بُرُودَته. عفواً مريم، فقد كنت مولعاً ببهجتك وعنفوانك الطفولي. سأتحمّل هذه الحماقة.

حملت الرواية بين يدي. وَرّقتها بصعوبة. فصولها تكاد تنتهي. أحد عشر فصلاً. لم يعد للكتابة معنى في غيابك. بدأتُ أبعثرها فصلاً فصلاً حتّى يكون وقع الألم محتملاً. الفصول الأولى سقطتْ مثقلة

(1) لا تنزعِج.

بمياه الأمطار سمعت وقعها الجافّ في أسفل الجسر وكأنّها كانت تسقط في بركٍ مائيّة، عندما تلاشت الأمطار، وبدأت نسمات البحر تتحوّل إلى رياح قويّة، رميت بقيّة الفصول الّتي تبعثرت في الفضاءات المظلمة. سمعت تكسّر الألواح في أعالي البِناية. فُتِحَتِ النافذة. شعرت بخيطٍ رقيق من الضوء يتسرّب إلى المكان الّذي كنت أقف فيه. أطلّت امرأة شابّة، ربّما كانت طالبة، لأنّها كانت تسكن أعالي البناية، في الملحق. ازداد صوت فيروز المتوحّد في حزنه:

«إكليل شوك،

وضع على هامة،

مَلك الملائكة...».

تأمّلتني. مدّت يدها إلى بعض وريقات الرواية المبعثرة الضائعة في الفضاء. غاصت فيها لحظة. تمنيّت أن تسألني ولكنّها لم تفعل. بهدوء أعادت غلق النافذة الخشبيّة ولم تطفئ الضوء. بينما بقيّة الأوراق كانت تتصاعد، وتتسابق. وعندما عادت الأمطار إلى السقوط، بدأت تنزل الواحدة تلو الأخرى، مثقلة بالمياه، حَمَاقَات ميّتة. كانت ترتطم مثل الأجساد الآدميّة على الطريق الأسفلتي نصف المضاء، في أسفل الجسر.

لست أدري ما الّذي أنزل على قلبي في لحظة من اللّحظات. قشعريرة لا أدري إن كانت من البرد أو من الخوف. حبّات المطر ازدادت سمكاً واستدارة.

اتّكأت على متّكأ جسر «تليملي» الحديديّ. تأمّلت الفراغ. كانت الهوّة عميقة! ليكن! لقد صمّمت أن أتَعَرّى أمام البياض.

وداعاً يا مدينتي الجميلة. فقد كنت أحبّك كثيراً. أغادرك وقلبي مايزال يحمل حنينك وخيبتك وأشواق الفرسان المهزومين بفرحة أمام جسد ساحر لامرأة عاشقة. وداعاً..

وداعاً لِسِيَرِ الأبطال والعظماء والمنبوذين والحارات الّتي تنام قبل الأوان.

وداعاً للشوق الّذي يقاوم موت الابتذال.

وداعاً للزرقة، وللبحر الّذي لم ينس موجه.

آه يا ولد النّاس ما أبأسك في هذه اللّحظة! ما أوحش صوفيّتك في أزقّة موبوءة لا يهمّها كثيراً ما تكتب وما تقول. أيّ مدينة تأتي الآن في الظلام؟ أيّ شوق يدخل القلب مع جرح الغريب؟ أيّ غريب يبحث عن مأوى داخل أهوال البحر؟ أيّة موجة تتكسّر الآن عند صخور الشّاطئ الأسود؟ أيّة دمعة تتجمّدُ الآن عند حدود عينيك؟ أيّ صراخ يصعد من قلبك، يبحث عنك في عربات القطارات اللّيليّة وفي العيون الّتي انكسرت قبل الأوان؟ أيّ شيء يأتيك حارّاً مثل يوم القيامة قاطعاً أنفاسك ودقّات قلبك!

آه أيّها الرّجل الصغير! ما أبهج اللّحظة الّتي تموت الآن حتّى ولو كانت متعبة. مريم. يا ابنة النّور الّذي لا يموت، مع أيّة ريح ساخنة، شُحْتِ مثل الغيمة المدهشة؟ أيّة دهشة سرقتك على حين غفلة! أيّ حنين موسيقى، حَوّلَكِ إلى ذرّة أخذتها نسمات الفجر الأولى داخل مدينة تستيقظ باكراً، قبل أن تبدأ المصانع في التثاؤب، مقبل أن تغسل الأمواج الهاربة، ملوحة البحر والشطّ الصخري المهجور؟

أيّة ريح يا ابنة أمّي جاءتْ بِكِ إلى قلبي؟ مريم يا نوّارة القلب! لم يكن الطالع يعلم أنَّ ما بيننا كان كبيراً مثل هذه الأحزان وأنَّ غفوة مميتة ستأخذك منّي وأبقى وحيداً؟

سأستمع إلى أصدائك الّتي لا تموت حتّى نهاية المطاف.

سأستمع في غيابك إلى نحيبي الّذي دفنته في صدرك ذات ليلة شتويّة، لا أتذكّر تاريخها سوى أنّ اليوم كان ممطراً مثل هذه اللّحظة الّتي تتآكل بين الشقاء والخوف وحالات الموت القصوى. مريم!!

أيّتها المازوزية (الصغيرة) هل هي الحقيقة، أم مجرّد تفاصيل لِكَابُوس بدأ يُلازِمُني مثل الخوف ويتحوّل إلى منفى صغير؟

شعرت بالآلام الحادّة تنتقل من رأسي وجسدي وتتمركز في صدري عند حدود الانحناءة على مقبض الجسر الحديدي. كانت هوّة الفراغ تزداد عمقاً كلّما تأمّلتها أكثر. كم هي مؤلمة درجة الارتطام على الأرض! أوف. مرة واحدة وينتهي كلّ شيء. تذكّرت صفيّة كتو، شاعرة المدينة المنسيّة. هي لم تطرح هذا السؤال مطلقاً ولهذا كان الجنون العظيم أقوى وأجدر.

ليكن. لقد آن الأوان لتصفية حسابي مع نفسي. عفواً مريم! لقد كان الألم أفظع ولم أكن قادرا على مقاومة الحمم القادمة مع ريح الصحراء وخواء الربع الخالي.

كان صوت فيروز قد انكسر نهائيّاً. أُغلقت الأبواب وأُطفئت أضواء النوافذ بشكلٍ فيه الكثير من الجفاف. عادت الأمطار إلى التساقط من جديد بقوّة كبيرة، مصحوبة بتكسّرات الأمواج الّتي كنت أسمعها من بعيد. كانت الأصوات تزداد وتتحوّل إلى هدير مهول يشبه الصرخات المكتومة الّتي تخرج بعنف شديد من أفواه سُدّت زمناً طويلاً. ازداد عنف الأمطار، رفعت رأسي إلى السماء للمرّة الأخيرة، لم أرَ الزرقة لكنّي شعرت بعينيّ تتلوّنان بالحمرة، وبالملوحة في فمي. انتابني دهشة ما. مددت كفّي لأسحب بعض القطرات. فجأة تكوّنت في كفّي بقع حمراء. ظننت نفسي أنّي جُرحت. مسحتُ يدي، لكن القطرات الحمراء كانت تزداد كثافة وتملؤني أكثر فأكثر والملوحة تزداد في فمي. يا الله!! هل هي القيامة الكبرى؟؟ هل هو النفير؟؟ من أين يأتي هذا النفخ في البوق العملاق؟ إنّه الدّم. وحياتك يا مريم. الدّنيا تمطر دماً.

إنّها رائحة التربة!

إنّها رائحة جسدك!

مطر من الدّم يسقط. البلاد تذبح نفسها بنصلٍ صدئ.

كان صوت البحر ينسحب مُخلّفاً وراءه أصداء لأناس يُذبحون ويُحشرجون الحشرجات الأخيرة. أصوات تشبه أصوات السكاكين وهي تنغرس بقوّة في الرّقاب والصدور مخترقة الألياف، والعروق، واللّحم والعظام الرقيقة.

أردت أن أصرخ. فجأة وجدت نفسي أعوي. أعوي وأصعد على متّكأ الجسر الحديدي. أعوي بدون توقّف مثل ذئب جرح في رأسه برصاصة قاتلة:

القتلة المشاة. القتلة الطغاة. القتلة البغاة. القتلة الرعاة.

القتلة في السماء. القتلة في الأرض. القتلة بين السماء والأرض.

القتلة في الهواء. القتلة في الماء. القتلة في الصراخ. القتلة في الصمت.

القتلة في النّهار. القتلة في الظلام. القتلة فيما بين النّهار والظلام.

القتلة في الدّم. القتلة في الألم. القتلة في الذاكرة.

القـ.. تـ.. لـ.. ـة.. في الأنفاس الأخيرة، الّتي تتقطّع الآن بخوف داخل هذا الخلاء الموحش.

أيّها القتلة! اخرجوا من قيامتنا. اخرجوا من أحزاننا وأفراحنا. اتركونا نموت ونحيا كما نشاء. أيّها القتلة! اخرجوا من أصدائنا وأشلائنا. اخرجوا من دورتنا الدمويّة.

مطر من الدّم يسقط. أضع أصبعي في فمي. تلتصق الملوحة بحلقي. أطلّ من أعلى الجسر. أصعد على المقابض الحديديّة. الهوّة تزداد أكثر فأكثر. والصرخات تملأ الأرجاء. والسكاكين لا تُسمع إلا صوت الآلة الّتي كانت تَبْرُدُ جنباتها.

كانت البلاد تذبح نفسها بقوّة، وبعناد كبير.

الوطن ينتهي ويصير أوطاناً. القبائل تتحوّل إلى مداشر.

والمداشر تصغر لتصير غيراناً. الألسن تضيع. وفرسان البلاد القديمة يبحثون عن موتهم خارج النهايات المبتذلة.

وأنا، جسدي يتدحرج في الهواء. أقبض على المقابض الحديديّة بقوّة، أكزّ على أسناني. أرفض أن أرى الهوّة مرّة أخرى. أغمض عينيّ. لِيَكُنْ، الدنيا تعاش بقوة أو ترمى دفعة واحدة. ثمَّ افتح كفيَّ على سعتهما، وفي أذنيّ بقايا بحّة الشيخ غَفُّور[1] الحزينة:

«أنا مَجْفَاكْ كُوَيْتِينِي،

آ وَلْفِي مَرْيَمْ،

كِيفْ الحَالْ يَا البَاهْيَهْ..

كِيفْ الحَالْ يَا البَاهْيَهْ..

كِيفْ الحَالْ؟!..»».

الجزائر العاصمة ـ شتاء، ربيع 1991

---

(1) مغنٍّ شعبي من مدينة «ندرومة» التاريخيّة.